أحمد عبد المجيد

# ترنيمة سلام

رواية

إن ما يجعل قصة خالد قصة تستحق الحكي، أن أحدًا منا لم يمتلك الشجاعة التي امتلكها هو للوصول بالتدمير الذاتي لحياته إلى منتهاه.. نحن دائمًا ما ندور في دوائر مفرغة، نبتعد ونقترب من النجاح دون أن نحسم قرارنا.. نشعر أننا لا نستحق الحب، فتفشل قصصنا العاطفية، ثم ما نلبث أن نبدأ من جديد لأننا نسأل أنفسنا في كل مرة: ولم لا؟ قد تكون هذه هي المرة الناجحة! وحده خالد محفوظ الذي امتلك الشجاعة ليكسر تلك الدائرة الملعونة ويصل بتجربته إلى أقصى نهاياتها.

تعرض لنا رواية ترنيمة سلام تجربةً روحية فريدة، تنتقل بنا ما بين الواقع والحلم عبر ثلاث قارات، أثناء سعي بطلها لإيجاد سلامه النفسي المفقود.

[redacted]esign By:
[redacted]

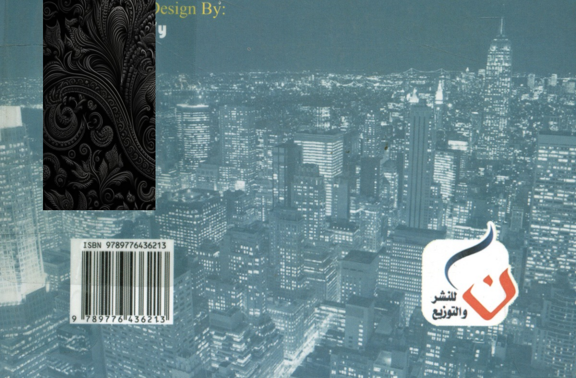

ISBN 9789776436213

9 789776 436213

للنشر والتوزيع

مكتبة طريق العلم

لتحميل المزيد من الكتب تفضلوا

بزيارة موقعنا

www.books4arab.me

# ترنيمة سلام

الكتاب : ترنيمة سلام
المؤلف : أحمد عبد المجيد
الناشر : ن للنشر والتوزيع
Noon_publishing@yahoo.com
ت – 02-35860372   011-27772007
رقم الإيداع : 2013/10920
الترقيم الدولي : 978-977-6436-21-3
الطبعة الأولى : 2013
تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد
تصميم الغلاف : محمد عبد القوي مصيلحي

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

# ترنيمة سلام

رواية

أحمد عبد المجيد

إلى محمد عبد المجيد، خلف خليفة، إبراهيم العراقي، صالح البيروتي، نبيل فاروق، أحمد خالد توفيق.

صلاح الراشد وطلاّبه، إيكارت تول، واين داير.

لولاكم لما سلكتُ هذا الدرب..

تعالَ.. تعالَ

لا يهم من أنت، ولا إلى أي طريقٍ تنتمي

تعالَ.. لا يهم من تكون

عابر سبيل..ناسكاً.. أو عاشقاً للحياة

تعالَ.. فلا مكان لليأس هنا

تعالَ.. حتى لو أخلفت بعهدك ألف مرة

فقط تعالَ لنتكلم عن الله

جلال الدين الرومي

وقعت الأحداث التالية يوم الجمعة الخامس من شهر مارس سنة ٢٠٠٤، في الوقت الذي استغرقه القطار من القاهرة إلى أسوان، في تلك الرحلة التي قمتُ بها لأسباب ستتضح بعد قليل.

تردّدتُ طويلاً في تدوين ما رُوي لي أثناء تلك الرحلة لأني اعتقدتُ أن الناس ليسوا على استعدادٍ لتقبّله.. لكنّي لأسباب لا مجال لذكرها الآن؛ أعرض عليكم ما سمعتُه وما وقع لي، تمامًا كما شهدته ودون تدخلٍ مني.

سأخبرك عن لحظتي الكبرى.

كنتُ أقف بجوار أبي ننتظر أن يلحق بنا بقية رفاقنا بعد أن أنهينا صلاة التراويح في مسجد الشيخ مروان، وكانت تلاوته العذبة مازالت تحلّق بأرواحنا في فضاءات لم يزرها بشرٌ من قبل.

حينها شعرتُ بروحي تشفّ، امتلأت نفسي بشعور عميق بالطمأنينة والسلام، فنسيتُ الماضي والمستقبل. أعتقد أنني عدتُ حينها إلى الأصل الذي بدأ منه كل شيء، كنتُ موقنًا من أنني لو نظرتُ إلى مرآة فلن أجدني كما عرفتني، سأرى كيانًا شفافًا من الضوء، تمامًا كما أتخيل الملائكة.. ملأني يقين غامض أنني لو أردتُ الطيران فما عليّ إلا القفز، لكنّ الحكمة التي صاحبت السلام الذي ملأني جعلتني أحجم عن المحاولة كي لا أُفزع أبي إذا وجدني أطير أمامه فجأة.

لم يلبث عمو عوض الله أن لحق بنا، حينما اقترب منّا وصافحنا شعرتُ بسعادة شديدة، كأنّ روحي الطيبة تعرفتْ على روحه الطيبة، ولولا فارق السنّ لاحتضنته وبكيت. أما عمّو خليل وابنه سمير الذي طالما نافسني في

كل شيء؛ بدءًا من الدراسة وانتهاءً بالفتيات، فلم أشعر تجاهه حينما لحقا بنا سوى بشعور عارم بالحب والتسامح.

وحينما اقتربتُ من سمير واحتضنته فجأة أصابه الفزع.. ثم لم تلبث نفسه أن ذابت أمام عطاء روحي غير المشروط، فوجدته يهمس لي بحيرة وتردّد : سامحني.. إن كانت أفعالي تضايقك !.

لم تستمر هذه الحالة معي سوى دقائق بعد رحيلنا من أمام المسجد.. بل ربما نصف ساعة، أو أكثر قليلاً.

والسؤال الذي ظلّ يشغل بالي منذ ذلك الحين : هل بإمكاننا نحن البشر أن نعيش طوال الوقت في نفس الحالة الروحية الرائعة التي مررتُ بها في تلك الدقائق القليلة ؟.

* * *

قال لي كلماته تلك وعيناه تسرحان بعيدًا.

لم تكن كلماته الأولى معي، مضت نصف ساعة منذ جلس بجواري رغمًا عني، لكنّي نسيتُ خلالها ضيقي وتبرمي من إفساده لرحلتي.

كان هذا هو اليوم الذي خصصتُه منذ فترة لكتابة روايتي الجديدة..

كانت الخلطة التي جعلت قصّتي القصيرة تفوز في مسابقة ساقية الصاوي تتلخص في شيء واحد : الملل !.

أن يعذبني الملل فلا أجد أمامي ما أفعله سوى الكتابة، ولا أشعر بشيء آخر في الكون حولي.

كنتُ عائدًا من الإسكندرية بعد أجازة قصيرة، وكان القطار شبه خالٍ، وبعد أن قطعنا نصف المسافة دون أن أفعل شيئًا سوى التحديق من النافذة إلى ظلام الليل بالخارج؛ فكّرتُ أن أخرج أوراقي وأحاول كتابة أي شيء لتمضية الوقت.. وحينما وصل القطار إلى محطة رمسيس انتزعتُ نفسي بالكاد من فوق الأوراق.. كان الجزء الأكبر من قصّتي التي ستفوز لاحقًا بجائزة ساقية الصاوي قد اكتمل.. الملل الذي أحاط بي طوال الرحلة جعلني أوجه كل اهتمامي وكل حواسي لكتابة القصّة، فخرجت أروع مما تخيلت.

حينما حكيتُ الأمر لأصدقائي على سبيل الطرفة فاجأني سمير بقوله ضاحكًا: إذن فكلما أردتَ الكتابة عليك أن تسافر في القطار ولا تفعل شيئًا سوى أن تكتب !.

ربما كان هذا هو مفتاح الإبداع فعلاً.. كررتُ الأمر مرة أخرى وسافرتُ من القاهرة إلى الإسكندرية حاملاً قلمي وأوراقي ممنيًا نفسي بقصّتين رائعتين، واحدة في الذهاب وأخرى في الإياب.

لكنّ قصّة الذهاب خذلتني، إذ جلس بجواري شخصٌ سمج، ظلّ لدقائق يرمقني وأنا أكتب، ثم لم يلبث أن سألني بفضولٍ مرح :

ماذا تكتب ؟ خطاب غرامي ؟!.

شرحتُ له بسرعة أنني كاتب وأنني أحاول كتابة قصّة قصيرة جديدة، فإذا به يضحك :

لو كنتَ تريد قصصًا فعندي ما تريد.. لا توجد أكثر من القصص في حياتي.

وانطلق يحكي لي عن مشاكله مع أقاربه وكيف خانه أعزّ أصدقائه وأضاع النقود التي شقي في كسبها من عمله في السعودية لخمسة عشر عامًا، وخطيبته التي تركته لأن مساحة شقته لم تعجبها، إلخ..

ضاعت ساعتا السفر في حديثه المتصل الذي لا ينتهي، وفشلت كل محاولاتي لمقاطعته أو العودة لكتابة قصّتي.. ربما كان عليّ أن أكون أكثر حزمًا معه، لكنّي لم أملك وقتها الجرأة الكافية لأكون وقحًا وأطلب منه تركي في حالي.

شعرتُ بالإحباط وأنا أضع قدميّ على رصيف محطة الإسكندرية، وحين خرجتُ من المحطة وسمعتُ أصوات المنادين أمام الميكروباصات : مصر

مصر مصر.. ركبتُ الميكروباص صامتًا وعدتُ إلى القاهرة دون أن أظفر سوى بسطرين اثنين، لم يكتب لهما لاحقًا أن يكونا بداية أي قصّة.

من أجل ذلك خططتُ جيدًا هذه المرة.. حجزتُ تذكرتين متجاورتين ذهابًا وعودة إلى أسوان !.

أكثر من اثنتي عشرة ساعة ذهابًا ومثلها إيابًا لن يجلس فيها بجواري أحد.. أربعة وعشرون ساعة من الكتابة، ولا شيء سوى الكتابة.

ضايقني في البداية وجود مجموعة من الطلبة العائدين من كلياتهم إلى قراهم في الصعيد. ركبوا دون حجز وأخذوا يثيرون الصخب. يبحثون عن بقعة شاغرة في أي مكان يدسون فيها أجسادهم. يقفون في الممر بين المقاعد ويتوسدون الطرقة الصغيرة بين العربات، ويحشر بعضهم جسده النحيل بين الكراسي المتعاكسة. اقترب مني أحدهم وسألني بأدب إن كان المقعد المجاور لي – الذي وضعتُ حقيبتي الصغيرة فوقه – شاغرًا، فرددتُ عليه ببرود أنه يخص قريبًا لي سيلحق بي في بني سويف !.

– هل بإمكاني الجلوس حتى يأتي قريبك ؟.

رددتُ عليه بحدة أن لا، وتوقعتُ أن يردّ عليّ بنفس الحدة ونبدأ في عراكٍ يفسد عليّ رحلتي كلها، لكنّ الفتى نكس رأسه وعاد إلى زملائه دون كلمة.

كان أبي يقول دائمًا : كلّ ميسّرٌ لما خلق له.

وأنا ميسّرٌ الآن لأن أكتب طوال الساعات القادمة وبجواري مقعدٌ شاغرٌ بإمكان أحد هؤلاء الفتية أن يجلس عليه، لكن لا.. هم ميسّرون للعودة إلى أهاليهم ولو وقوفًا، وأنا ميسّرٌ للكتابة.. هذا هو الأمر !.

لم تمضِ سوى بضع دقائق حتى أخرجني صوتٌ واثقٌ من الهماكي :

أنا أعرف أن المقعد بجوارك محجوز.. لكن هل بإمكاني الجلوس عليه قليلاً لأريح ساقيّ ؟.

رفعتُ عينيّ إليه. كان عجوزًا في الستين أو السبعين من عمره، يرمقني بنظرة ودٍ وترقب. فوجئتُ بنفسي دون كلمة أرفع حقيبتي من فوق الكرسي لأتيحه له. سمعتُ أحد الفتية يقول لأصحابه بصوتٍ عالٍ كي أسمعه :

لتحصل على حقك في هذا البلد يجب أن تكون عجوزًا !.

لم يكن هذا هو السبب، كان بإمكاني أن أتشبث بقناع الفجاجة وأطلب منه أن يريح ساقيه فوق مقعدٍ آخر. كنتُ قد ركبتُ القطار وقد وطّنتُ نفسي على أن أكون فجًا صارمًا مع أي مقاطعة. لم أدفع مائتي جنيه في تذكرتيّ الذهاب والعودة كي يفسد أحدهم عليّ خطتي من جديد. لكن كان هناك شيءٌ ما أسرني في هذا الرجل. ملامحه كانت مألوفة لي، شعرتُ أنني أعرفه،

رأيته من قبل لكن لا أذكر أين. ربما تعودت عيناي عليه لأني كنتُ ألتقيه صدفة من آنٍ لآخر عند بائع الجرائد، أو كان يركب معي نفس الحافلة كل يوم.. فيه شيء حميم جعلني أشعر أنه أحد أقربائي وأني لا يمكنني منعه من الجلوس بجواري.

عدتُ إلى أوراقي. كنتُ أجد صعوبة في السيطرة على القلم فوق السطر مع اهتزاز القطار، لكنّ هذا كان يزيد متعة الكتابة، ويجعلني أشعر أنني أجاهد كي أخطّ كلمة واحدة، فكنتُ أختارها بعناية من يدرك قيمتها.

نظرتُ لجاري بطرف عيني. لم يكن يختلس النظر إلى ما أكتب لكنّه كان يرمق المنظر خارج القطار من النافذة التي تجاورني. شعرتُ بعدم الارتياح لكوني في طريق نظره، ويمكنه في أي لحظة أن يلقي نظرة سريعة على ما أكتب، لكنّي كنتُ ممتنًا لصمته.

- من الجميل أن أرى أحدًا من جيلك مازال مهتمًا بالورق والقلم.. كلكم الآن تستخدمون لوحة مفاتيح حواسبكم النقّالة !.

التفتُّ إليه مرتبكًا. كان يرمقني بود، لكنّي لم أكن مستعدًا لتسليته طوال الطريق. قلتُ له بحدة وفي نفسٍ واحد :

الحواسب النقّالة لا تستمر في العمل أكثر من ثلاث ساعات كما تعلم، تحتاج بعدها لإعادة شحنها، لذلك أُفضّل استخدام الورق والقلم في هذه

الرحلة التي أقوم بها خصيصًا كي أتمكن من التركيز والانهماك في الكتابة.. أنا كاتب يا سيدي وهذه روايتي الأولى، وأنا في حاجة إلى كل لحظة لأكتب، وللأسف لن أستطيع التحدّث معك ولا تسليتك !.

فوجئتُ بنفسي ألهث مع انتهاء كلامي. لم أكن معتادًا على مخاطبة الناس بهذه الحدة. توقعتُ أن يصاب بالحرج ويعتذر، أو ينتابه الغضب ويعتبرني قد تجاوزتُ حدودي في الحديث مع من هو أكبر مني، وفي كلتا الحالتين كنتُ مستعدًا للاعتذار وإبداء الندم على اندفاعي، لكنّه فاجأني حينما ابتسم وقال لي بود :

كان الله في عونك يا صاحبي.. لابدّ أنك عانيتَ من أولئك الذين يرغبون في تزجية وقت سفرهم على حساب غيرهم.. لا تقلق، لا أنوي أن أشغلك عن عملك، اعتبرني غير موجود.. هل تحب أن أنهض فأذهب ؟.

شعرتُ بالحرج ولم أدر ماذا أقول.. غمغمتُ أنه لا داعٍ للذهاب، وهززتُ رأسي شاكرًا وعدتُ لأوراقي.

كان عامل البوفيه يمر بجوارنا وهو يدفع أمامه عربة تراصت فوقها المشروبات والمأكولات. استوقفه جاري وطلب منه كوبي شاي، ثم التفتَ إليّ متسائلاً :

كم ملعقة سكر ؟.

غمغمتُ بحرج أنه لا داعٍ لذلك، لكنّه أصر :

أرجوك.. أنا سعيد بجدّيتك والتزامك، وأودّ أن أدعوك إلى كوب شاي، هذا أقل شكر على سماحك لي بالجلوس.

وحينما لمح تردّدي قال ضاحكًا :

ولا تخشَ شيئًا.. لن أتخذ الأمر ذريعة لفتح باب الحديث معك.

ثم التفتَ إلى عامل البوفيه :

أعطني خمسة أظرف سكر.. ولصديقي هذا..

والتفتَ إليّ متسائلاً، فغمغمتُ بدهشة :

خمسة أظرف أنا الآخر !.

قهقه ضاحكًا :

كلانا يحب مشروبه مسكّرًا، مصادفة لا بأس بها.

ولما لمح التردّد في عين عامل البوفيه مدّ يده إليه بجنيهين وقال غامزًا :

ستحقق ثروة لو كان كلّ الركاب يريدون المزيد من السكر !.

أخذ كلانا يرشف من كوبه، وبدا جاري صامتًا كأنّه لا يراني. كنتُ أشعر بالحرج من كرمه معي، فسألته متودّدًا :

هل تظهر سيادتك على شاشة التلفاز أو السينما ؟ يخيل إليّ أنك مذيع أو ممثل ؟.

هزّ رأسه مبتسمًا :

لا، مطلقًا !.

عدتُ أقول بحيرة :

مع ذلك يخيّل إليّ أننا التقينا من قبل !.

سرح ببصره بعيدًا وهو يغمغم :

ليس ضروريًا أن نلتقي وجهًا لوجه لنعرف بعضنا !.

لم أفهم مقصده، فقلتُ له بشكلٍ مباشر :

عمومًا أعتذر يا سيدي عن حدّتي السابقة.. أنا متوتر منذ بداية الرحلة خشية أن يفسد شيءٌ ما الهماكي في الكتابة.

وشرحتُ له بإيجاز فكرتي الخاصة حول كتابة رواية عظيمة من خلال سجن نفسي لعدة ساعات في مكانٍ لا أستطيع أن أفعل فيه شيئًا سوى الكتابة.

لمعت عيناه وقال لي :

أصبتَ يا صاحبي.. أنتَ عشتَ حالة خاصة في رحلة عودتك من الإسكندرية وكتبتَ قصّة عظيمة، فظننتَ أن بإمكانك بتكرار تجربة السفر أن تكرر الكتابة العظيمة.. لكنّ الأمر لا يدور حول السفر، بل في الظروف التي أحاطت بك خلاله.. لو استطعتَ إعادة تلك الظروف وأنتَ في بيتك، دون حاجة لركوب القطارات، فستكتب ما تريد !.

– الظروف التي أحاطت بي في تلك الرحلة كانت الملل !.. ألّا أجد أمامي شيئًا أفعله سوى الكتابة، فأنهمك في الأمر وأكتب عملاً عظيمًا !.

– هذا هو تعبيرك عن الأمر.. لكنّي أعتقد أن الموضوع لا علاقة له بالملل.. أنتَ في تلك الرحلة خرجتَ من حيّز الزمن.. لم تعد تفكّر في الماضي ولا المستقبل، عشتَ لحظتك وغصتَ فيها.. لم تكن هناك مؤثّرات خارجية تلهيك عنها.. سأقول لك شيئًا.. أتذكر فترة الطفولة ؟ أتذكر ذكرياتها الحميمة ؟ حينما كان لكل شيء مهما كان صغيرًا معنىً شديد الروعة.. ألم تجلس ذات يوم لتقلب في ألعابك حينما كنتَ صغيرًا، مجلاتك المصورة وقصصك، ألم تمرّ مرة على مكانٍ مررتَ به في طفولتك

فشعرتَ بما يسمونه النوستالجيا ؟ حنين شديد إلى تلك اللحظات ؟.. أنتَ في الغالب لم تعد تعيش مثل تلك اللحظات بعدما كبرت، لم تعد للأشياء طعم أو معنى، كل شيء يمر دون أن يترك أثرًا.. قد تشاهد فيلمًا عظيمًا الآن فلا تذكر منه شيئًا بعد أيام، بينما لو وجدتَ بالصدفة فيلمًا تافهًا شاهدته في طفولتك قد تذرف الدموع وأنتَ تعيد مشاهدته وتستعيد المشاعر التي شعرتَ بها حينما شاهدته لأول مرة !.

هتفتُ مبهورًا :

هذا نفس ما يحدث لي ! كأنّك تغوص في أعماق نفسي يا سيدي !.

– هذا ما يحدث للجميع يا صاحبي.. والأمر في غاية البساطة : أنتَ في طفولتك لم تكن تحمل همًا، لم تكن لديك حسابات لأي شيء، لم تكن تفكّر نادمًا في الماضي ولم تكن قلقًا بخصوص المستقبل، فكنتَ تمتص روعة حاضرك لحظة بلحظة، كلّ ما تراه وتفعله تشعر بقوة الحياة فيه، تتشرب جماله وعنفوانه.. وحينما كبرتَ أصبحتَ قلقًا كعادة البشر حينما ينضجون فيشعرون بالخوف من الحياة، وإذا بك تفكّر طوال الوقت إما في الماضي أو في المستقبل.. أصبحتَ تعيش في لحظة مضت أو لحظة لم تأتِ بعد، بينما اللحظة الحالية تضيع واحدة تلو الأخرى.. في النهاية ستجد أنك لم تعش أصلاً ! ستصل نهاية حياتك لتكتشف أنك لم تعش سوى في طفولتك فقط، بينما بقية عمرك قضيته في أزمانٍ أخرى.

لذلك أعتقد أنك في رحلة عودتك من الإسكندرية عشتَ لحظة الحاضر بشكلٍ عفوي.. لم تجد شيئًا يلفت التباهك لتفكّر فيه، ولحسن الحظ لم تبدأ في التفكير فيما وقع لك في الماضي أو ما ينتظرك في المستقبل.. هذا هو سرّ انهماكك في الكتابة واستغراقك فيها، ولهذا خرجت قصّتك عظيمة ولمست قلوب من قرأوها ففازت بتلك الجائزة.

شعرتُ أن شعاعًا من الضوء ضرب عقلي :

تعني أنه لم يكن هناك داعٍ من الأساس لسفري الآن ؟!.

– لم أقل هذا.. لكن كان بإمكانك أن تعيش تلك الحالة في أي مكان، ليس بالضرورة بحجز نفسك في مقعدٍ في قطار.. بالعكس، أنتَ الآن قد لا تستطيع الوصول إلى تلك المعادلة لأن القطار مزدحم والكثير من الناس سيحاولون الجلوس بجوارك وسيخرجونك طوال الوقت من الاندماج في اللحظة.

توقف متردّدًا ثم أكمل :

وبهذه المناسبة، يبدو أنني أنا نفسي أشغلك عن الانهماك في اللحظة.. سألتزم الصمت في الساعة المتبقية على وصولنا إلى بني سويف ومجيء قريبك.

شعرتُ فجأة أنني سأستفيد من كلامه أكثر من صمته، فتجاهلتُ ما قاله وسألته :

نحن نتحدّث منذ فترة بينما لم أعرف اسم سيادتك بعد.

ابتسم ابتسامته العذبة التي تجعلني أشعر بالارتياح إليه، وغمغم :

أنا خالد.. ناديني خالد بدون أستاذ أو سيادتك !.

قلتُ له ضاحكًا :

أنا أيضًا اسمي خالد.. يبدو أننا لا نتشارك فقط في ملاعق السكر الخمس! اسمي خالد عبد الدايم.

بدا عليه التردّد لوهلة، ثم قال مبتسمًا بشحوب :

وأنا خالد محمد.. ناديني خالد فقط بدون ألقاب.

لم يكن باستطاعتي أن أنادي شخصًا في مثل سنه باسمه مجردًا، لذلك وطّنتُ العزم على أن أتجنب الإشارة إليه بالاسم.

كنتُ مبهورًا بما قاله لي، في لحظاتٍ قليلة كشف لي سرًا من أسرار الحياة.. سألته بخجل عن عمله، فأجابني مبتسمًا :

أنا مهندس، مهندس معماري.. هذا طبعًا مجال تخصّصي.. لكنّ ما أفعله فعلاً هو أنني أتأمّل الحياة !.

– أنا مهندس كمبيوتر، لكنّي فضلتُ الاتجاه للكتابة.

رمقني باهتمام :

الكتابة هي أيضًا وسيلة لتأمّل الحياة.

– وأنتَ يا سيدي، ما هي وسيلتك لتأمّل الحياة ؟.

بدت الحيرة على وجهه، وغمغم :

أنا أتأمّل الحياة.. لم أقصد معنىً مجازيًا.. أنا فعلاً أخصص وقتًا يوميًا للجلوس وحيدًا لممارسة التأمّل على الطريقة الشرقية.. حينها تنتابني إلهامات لم أتصور أن أصل إليها يومًا.. أنا ذاهب إلى أسوان خصيصًا لقضاء بعض الوقت متأملاً وسط مناظرها الطبيعية !.

لم أعلّق، بل ظللتُ أنظر إليه منتظرًا المزيد، فأكمل قائلاً :

أحيانًا وأنا في أعمق حالات التأمّل يأتيني خاطر بأن كل شيء نفعله في حياتنا يهدف إلى غاية أسمى منه، لكنّنا لا ندرك ذلك.. غاية واحدة فقط، نسعى جميعًا إليها لكن بطرق مختلفة.. هل ترى هذا القميص الذي

أرتديه؟.. اشتريته منذ بضعة أيام.. لكن لماذا اشتريته ؟.. لم يكن شراؤه هو غايتي، بل أن أظهر في مظهرٍ جيد أمام الآخرين.. وحتى هذا الأمر ليس هو غايتي من الأمر، لو فكّرتُ أكثر فسأجد أني أبحث عن نظرة الاحترام والتقدير في عيون الناس.. ونظرة التقدير تلك ستقودني إلى شيء أكبر منها، وهو الشعور أنني شخصٌ جيد ومقدّر ويستحق الحياة.. أنتَ مثلاً تكتب.. لماذا تكتب ؟.

فاجأني السؤال.. فكّرتُ قليلاً ثم أجبتُ :

أنا أكتب منذ كنتُ صغيرًا.. في البداية كنتُ أقرأ، ثم أحببتُ أن أقلّد ما أقرؤه.. كنتُ أحضر الدفاتر والكشاكيل وأنزع ورقها وأُقطّعه في حجمٍ صغير وأُلصقه سويًا ليصير لديّ كتيب ككتيبات الجيب التي كنّا نقرؤها في صغرنا.. رجل المستحيل وملف المستقبل والمغامرون الخمسة.. ثم أرسم رسمة بدائية للغلاف وأكتب اسمي مسبوقًا بحرف الدال كما كانوا يكتبون اسم د.نبيل فاروق على أغلفة رجل المستحيل.. د.خالد عبد الدايم !.

أعتقد أن هذا هو السبب لاتجاهي للكتابة؛ أني أحب هذا الأمر وأستمتع به.

استمع إليّ في صبر، ثم سألني :

إذن أنتَ تكتب لتحصل على المتعة.. لكن ما هو الشيء الذي ستصل إليه بعد أن تحصل على المتعة ؟.

– لا أدري.. ربما سأحصل على السعادة.. رغم أن المتعة والسعادة قد تكونان نفس الشيء !.

هزّ إصبعه نافيًا :

لا، المتعة والسعادة ليستا دائمًا نفس الشيء.. المقامر يشعر بمتعة كبيرة وهو يقامر بكل ما يملك، ويعود إلى طاولة القمار مرارًا وتكرارًا ظانًا أنها تحمل له السعادة.. لكنّها سعادة مؤقتة، مزيفة، قد تتلوها سنون من الندم.

إذن أنتَ تمتّع نفسك بالكتابة لتصل إلى السعادة.. بيني وبينك، البحث عن السعادة قد يكون القاسم المشترك لأغلب أفعال البشر.. البحث عن السعادة أو الأمان أو الانسجامية أو الاكتمال.. يجري الناس ذات اليمين وذات الشمال بحثًا عن الأرصدة في البنوك وشراء السيارات والبيوت الفخمة واليخوت محاولين إرضاء حاجة أشد عمقًا داخل نفوسهم، هم في الغالب لا يعرفونها.. ربما لو عرفوها لاكتشفوا أنهم كانوا يضيّعون أوقاتهم في البحث عن أنفسهم داخل الأشياء، في حين كان بإمكانهم العثور عليها بطرق أكثر يسرًا.. تمامًا كما كنتَ تفعل أنتَ حينما حاولتَ السفر بالقطار

في رحلة طويلة مرهقة وأنتَ لا تدرك أن ما تبحث عنه حقًا هو عيش اللحظة والخروج من أسر الزمن !.

سألته وقد أخذني الحديث تمامًا :

إذن أنا أكتب لأستمتع لأصل إلى السعادة ؟.. هل هذا هو الهدف من حياتي؟ الوصول إلى السعادة ؟.

– قد تكون السعادة بدورها وسيلة لغاية أسمى.. أخبرني أنتَ، ما هو الشيء الأكثر أهمية لديك من السعادة ؟ لو حصلتَ على كل السعادة الموجودة في الكون فما هو الشيء التالي ؟.

لابدّ أن نظرة حالمة ارتسمت في عينيّ وأنا أجيبه :

بعد السعادة ؟.. لا أدري، ربما هو السلام النفسي.. أعتقد أنني لو وصلتُ إلى السلام الداخلي وتصالحتُ مع نفسي فلن أرغب في شيءٍ آخر من الحياة!.

فرقع بإصبعيه وهتف :

الله !.. هذا أيضًا ما أفكّر فيه دائمًا.. السلام النفسي.. السؤال الذي يدور في ذهني دائمًا هو : هل هذا ممكن ؟ هل بإمكاني أن أعيش بشكل مستمر في سلامٍ نفسي دون منغصات ؟!.

هززتُ رأسي نافيًا في ثقة :

لا أظنّ.. لحظات السلام في حياتنا قليلة.

سرح بعينيه بعيدًا عنّي وغمغم بتأثّر :

سأخبرك عن لحظتي الكبرى.

كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، وكنّا في رمضان.. كان والدي قد اعتاد أن يأخذني وبعض أصدقائه إلى مسجد على أطراف مدينتنا لصلاة التراويح.. لابدّ أن المسجد كان يحمل اسمًا معينًا، لكنّي كنتُ أسميه مسجد الشيخ مروان على اسم إمامه.. كان رجلاً عذب الصوت، تسمع تلاوته فتذوب خشوعًا وتشعر أن القرآن يتنزل الآن لتوّه.. كان يطيل الصلاة، وكنتُ في العادة أتململ من إطالة الصلاة، لكن خلف الشيخ مروان كنتُ أتمنى أن تطول الصلاة قدر الإمكان.. وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان، الليلة الكبرى التي كنّا ننتظرها من السنة للسنة، أبدع الشيخ مروان في تلاوته كما لم يُبدع من قبل.. بكينا تأثّرًا ونحن نستمع إليه، انفصلنا عن الدنيا وشعرنا بتفاهة ما كنّا نفعله في الخارج قبيل أن

نخطو بأقدامنا متجاوزين عتبة المسجد، قبيل أن ينقلنا الشيخ مروان إلى عوالم أخرى حينما كبّر معلنًا دخوله في الصلاة ونحن خلفه.

في تلك الليلة وحينما انتهت الصلاة لم أشعر بشعور الأسف الذي اعتدته كل يوم، رغم أن الصلاة هذه الليلة كانت أروع من كل يوم، بل أروع من كل صلاة حضرتُها في حياتي.. شعرتُ أن روحي قد اغتسلت، أنني لستُ قلقًا تجاه أي شيء، كانت نفسي تتفجر بالسعادة دونما سبب، وكنتُ أشعر بالأمان.. فلتتفجر براكين الدنيا ولتضرب الزلازل الأرض ولترتفع الأمواج في كل مكان، فليس لديّ ما أقلق بشأنه.

خرجنا من المسجد ووقفتُ بجوار أبي ننتظر أن يلحق بنا بقية رفاقنا.

كان معنا ثلاثة أشخاص، عمو عوض الله صديق أبي الصدوق، وعمّو خليل قريبنا، وابنه سمير رفيقي في الدراسة.

لم أكن أحب سمير، كان يحب الظهور والمديح، ولم أكن أقل منه في ذلك.. كنّا نختلف ونتنافس ونتعارك ومع ذلك نظلّ أصدقاء.

اقترب منّا عمو عوض الله وسلّم علينا، فشعرتُ براحة شديدة تجتاحني وكأنّ روحي تآلفت مع روحه وتذكّرتُ الأخوة بينهما في عالمٍ لم نره بعد.. أو لم نعد نذكره.

وحينما رأيتُ عمو خليل وسمير يقتربان منّا أسرعتُ نحو سمير.. فوجئتُ بأني لا أحمل له سوى محبة خالصة، أتمنى له كل خير، أودّ لو يصفح عن الماضي ونبدأ صفحة جديدة معًا لا يوجد بها سوى الأخوة والود.. فوجئ الفتى بي أصافحه بحماس وأحتضنه بود.. ألجمته الدهشة وفي الغالب ظنّ أني أُشاكسه، لكنّي كنتُ أدرك أن إشارات الحب والسلام المتصاعدة من روحي أقوى من ألا تصله.. لذلك لم يلبث أن لان ووجدتُه يربّتُ على ظهري بود، ويغمغم متردّدًا :

سامحني.. إن كانت بعض تصرّفاتي تضايقك !.

رَددتُ عليه بودٍّ عميق :

بل سامحني أنتَ !.

كان جزءٌ من سعادتي ينبع من ظنّي أني سأظلّ هكذا دائمًا.. أنني وصلتُ إلى ما يسميه المتصوفة بالأُنس ويسميه البوذيون بالنيرفانا.. سأظلّ أشعر بالسلام والتصالح مع كل شيء طوال الوقت.. لكنّ هذه الحالة لم تستمر معي سوى دقائق بعد رحيلنا من أمام المسجد.. بل ربما نصف ساعة، أو أكثر قليلاً.

والسؤال الذي ظلّ يشغل بالي منذ ذلك الحين : هل بإمكاننا نحن البشر أن نعيش طوال الوقت في نفس الحالة الروحية الرائعة التي مررتُ بها في

تلك الدقائق القليلة ؟.. هل يمكننا أن نعيش السلام النفسي طوال الوقت؟!.

فوجئتُ بدمعتين تسيلان على خديه، فصمتُّ محرجًا، وصمتَ بدوره وقد سرح بصره إلى تلك اللحظة الاستثنائية.

طال الصمت ثم لم ألبث أن قلتُ :

لم أرَ في حياتي أحدًا وصل إلى تلك الحالة.. أعتقد أن الإجابة هي لا، لا يمكننا أن نعيش السلام النفسي طوال الوقت.. ربما بإمكاننا فقط أن نطيل من وقت وعدد اللحظات الاستثنائية التي تفيض فيها نفوسنا بالسلام.

لم يمدّ كفه ليمسح الدمعتين اللتين سالتا من عينيه، بل التفتَ إليّ وتأمّلني مليًّا ثم قال ببطء :

عرفتُ شخصًا ذات مرة وصل إلى هذه الدرجة.. كان هو الاستثناء الذي يقول بوضوح أن بإمكان المرء أن يحظى بالسلام الدائم بلا أي منغصات.. ستفاجأ لو عرفتَ أن اسمه خالد هو الآخر.. خالد محفوظ !.

من الغريب أن اسم خالد تكرر لثلاث مراتٍ حتى الآن، اسمي خالد واسمه خالد واسم الرجل الذي يتحدّث عنه خالد !.. هل الأمر مجرد مصادفة أم أنه اختلق الاسم ؟.

لكنه لم ينتبه إلى الشك الذي لابدّ أنه قد ارتسم في عينيّ، إذ إنه تابع بحماس:

خالد محفوظ هذا كان كاتبًا مثلك، لكنّه كان يختلف عنك في بعض الأشياء.

لم يُتوفَ والده فقط كما حدث معك، بل تُوفي والداه حينما كان في المرحلة الجامعية، ولم يكن...

انتبهتُ فجأة إلى ما قاله، فقاطعتُه بدهشة :

كيف عرفتَ أن والدي مُتوفى ؟.

ظهر عليه الارتباك، ويبدو أنه أدرك أنه ارتكب خطأً ما، إذ أسرع يقول :

أنا.. أنا لا أعرف.. أقصد.. شابٌ مثلك يسافر وحيدًا ويبدو عليه.. لا أدري.. أنا خمّنتُ فقط أن والدك مُتوفى !.

رمقتُه بشك وعدوانية وقد تبددت من رأسي كل مشاعر بهجة الحديث معه.

عاد يقول بإلحاح :

دعك من هذا الأمر الآن يا صاحبي، ولنعد لموضوعنا.. خالد الذي أحدّثك عنه كان كاتبًا مثلك، وكانت حياته سلسلة من المآسي إلى أن أصبح هو ذاته إجابة للسؤال القديم : هل بإمكان المرء أن يعيش بشكلٍ دائمٍ في سلامٍ نفسي متصل بلا منغصات ؟.

لو أحببتَ فبإمكاني أن أقصّ عليك قصّته.. ومن يدري، قد تنشرها في رواية ذات يوم !.

عقدتُ ذراعيّ وقلتُ له ببرود :

ولماذا لا تكتبها أنتَ ؟ ألا يعلمونكم في المباحث كيفية كتابة التقارير عن الأشخاص الذين تتبعونهم وتتجسسون عليهم ؟!.

رمقني لوهلة بدهشة ثم انفجر ضاحكًا، وقال بمرح :

لقد ذهبتَ بعيدًا بتفكيرك يا صديقي.. بالله عليك لماذا تدسّ عليك المباحث من يتبعك من القاهرة إلى أسوان وأنتَ مجرد كاتبٍ مغمور يحاول جاهدًا كتابة روايته الأولى ولا توجد لديه أي انتماءات سياسية ؟!.

- كيف عرفتَ أني لا أحمل أي انتماءات سياسية إن لم تكن عينًا للمباحث؟ أم أنك مندوب ثري عربي يرغب في كاتبٍ شاب يكتب قصّة حياته ولا يتقاضى الكثير من المال ؟!.

ضحك مجدّدًا :

تفسيرات خيالية تليق بعقلية كاتب !.

ثم عاد يقول بجدية :

لقد انزرع الشكّ بيننا للأسف.. لم أكن أتوقع حدوث هذا.. سأكون صريحًا معك.. نعم، أنا أعرفك جيدًا، لكن لا يمكنني الآن أن أفسّر لك السبب، لا وقت لديّ لذلك !.

هتفتُ باستنكار :

لكن لديك الوقت لتقص عليّ قصّة صديقك هذا ؟!.

– حينما أقصّ عليك قصّة خالد محفوظ ستفهم كل شيء !.

سألته بحدة :

ما أهمية تلك القصّة ؟ ولماذا لا تكتبها أنتَ ؟!.

هزّ رأسه وقال بغموض :

لم تكن مهمتي أن أكتب القصّة، مهمتي فقط أن أحكيها لمن يقدر على كتابتها ! كلٌ ميسّرٌ لما خلق له !.

هذه عبارة أبي المفضلة !.

فجأة ضرب البرق رأسي !.

أبي !.

انتبهتُ الآن إلى أن ملامح وجهه كانت مألوفة لي لأنه يشبه أبي كثيرًا. في الحقيقة كنتُ كأنني أجلس أمام أبي لو كان أبي وصل إلى سن الستين !.

هل ما أفكّر فيه صحيحًا ؟ رمقتُه بذهول وغمغمتُ رغمًا عني بصوتٍ خافت:

أبي !.

رمقني بدهشة في البداية، ثم انفجر ضاحكًا :

أدركُ أنني أُشبه والدك، لكنّني لستُ هو.. يمكنني قراءة أفكارك : أنتَ في الغالب تفكّر أنني والدك وقد جئتُ إلى هنا بآلة زمن.. لا، لستُ مسافرًا عبر الزمن، ولستُ والدك.. لقد ذهب عقلك بعيدًا.. لا تنسَ أن والدك لقي حتفه في حادث سيّارة منذ إحدى عشرة سنة، وكان في الخمسين من عمره.. ولو افترضنا أنه في عامٍ ما قبل موته استطاع أن يسافر عبر الزمن بطريقةٍ ما فلن يكون في الستين من عمره مثلي !.

كان ما يقوله صحيحًا، وهو ما زاد من غضبي وذهولي.. كيف عرف كل تلك المعلومات عني ؟ بل كيف عرف أصلاً أن ذهني ذهب إلى موضوع السفر عبر الزمن ؟.

سألته بغضبٍ وبصوتٍ مختنق :

من أنتَ وماذا تريد مني ؟!.

– سأكون صريحًا معك، والخيار لك.. دومًا ما يكون الخيار لنا، لكنّنا لا ندرك ذلك.. كان بإمكاني أن أتظاهر طوال الوقت أنني ذلك العجوز الذي جلس بجوارك صدفة ثم بدأ يتجاذب معك أطراف الحديث.. لكنّي كنتُ حينها سأخالف قانون حق الاختيار ولن تكون العواقب حميدة !.

سألته بدهشة :

عن ماذا تتحدّث ؟.

– أعتقد أن الأمور واضحة لك الآن.. أنا لم آتِ هنا مصادفة.. أتيتُ خصيصًا لأقابلك وأقصّ عليك قصّة خالد محفوظ وأطلب منك أن تكتبها!.

– أنتَ مجنونٌ بلا شك !.

– ربما يا صاحبي، من يدري.. من عاش حياةً كحياتي من السهل أن يجنّ بسهولة.. عمومًا هذه القصّة رويتها من قبل لأشخاصٍ آخرين مثلك.. بعضهم اقتنع بها، وبعضهم استسخفها.. بعضهم قرر كتابتها وفعل، وبعضهم قرر ولم يفعل.. بعضهم لم أعرف ماذا فعل بها.. لكنّي لا أشغل بالي كثيرًا بهذه الأمور.. أنا أقوم بما عليّ القيام به وكفى، فكلّ ميسّرٌ لما خُلق له، كما كان يقول والدك رحمه الله !.

لا تقاطعني الآن من فضلك.. أعرف أن عشرات الأسئلة تتفجر في رأسك، ستسألني من أنا وماذا أريد وما جدوى تلك القصّة ولماذا أنتَ بالذات.. سيعتقد جزءٌ منك أنني لستُ سوى مجنون مختل، وستشعر بالخوف مني، لكنّك لن تلبث أن تسأل نفسك : وأنّى لمجنونٍ أن يعرف عنّي كلّ ما يعرفه هذا الرجل ؟.. عشرات الأسئلة، لكن لن يمكنني أن أجيب على أيٍ منها الآن.. فلتكن الصفقة بيننا كالتالي : سأقصّ عليك القصّة وستستمع أنتَ إليها ثم تقرر في النهاية إن كنتَ ستكتبها أم لا.. وفي المقابل سأجيب أنا على أسئلتك بعد أن أنتهي من روايتها.

رمقته بذهول وغمغمتُ :

لابدّ أنك مجنون !.

– الخيار لك.. ما زال أمامنا أكثر من عشر ساعات حتى نصل إلى أسوان، وأنتَ لن تستطيع الكتابة بعد لقائك بي.. بإمكانك أن تطلب منّي ترك المقعد والرحيل لتعود إلى ما تكتبه، لكنّك – صدقني – لن تستطيع خط حرفٍ واحد.. ستقضي الساعات العشر القادمة وأنتَ تفكّر في ذلك الرجل الذي جلس بجوارك وكان كلامه ممتعًا شيّقًا في البداية ثم تحوّل فجأة إلى عرّافٍ مجنون لا تدري ماذا يريد منك.. ستحرقك الأسئلة ولن تصل إلى جواب.. لذلك فالأفضل لك أن ترضى بالاستماع لي لتحصل على إجابتك حينما أنتهي قبيل أن أرحل !.

رمقني منتظرًا إجابتي، لكنّي أكتفيتُ بالصمت.. صمت بدوره لحظات سمعته خلالها يهمس بآية الكرسي، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يحكي :

خالد محفوظ كان كاتبًا شابًا مثلك.. كان رأسه يمتلأ بالطموحات بخصوص مستقبله الأدبي.. سينشر روايته الأولى ثم يحصل على جائزة نوبل بعدها بعدة أشهر.. هكذا كان يتمنّى ويحلم.

قابلته في ظروفٍ خاصة لن أتطرق إليها.. حينما بدأ يقصّ عليّ قصّته كان متحيرًا؛ من أي نقطة يبدأ.

هل يبدأ من اليوم الذي تعرّض فيه والداه لحادث سيّارة تُوفيا خلاله ؟.

كان حينها على وشك الالتحاق بالجامعة، وذهب بعدها ليعيش مع خالته.. في الكليّة كان يفوز بمسابقات القصّة القصيرة، وهذا لفتَ انتباه زميلة من كليّة الآداب كانت تهوى الرسم، وأعجبها أن تتعرف على فنانٍ مثلها.. كانت هذه ليلى التي ستصير زوجته بعد فترة لا بأس بها.

لكنّه لم يلبث أن قرر أن تكون نقطة البدء بعد ذلك بعدة سنوات، ليلة حفل توقيع مجموعته القصصية الأولى، التي لم تعجب أحدًا سواه.
كان قد أكمل ثلاثين عامًا، وهي السنّ التي قرر فيها أن ينشر أول كتابٍ له.. خاف أن ينشر رواية فتفشل، ففكّر في نشر مجموعة قصصية.. أخبرني أن ميزة المجموعة القصصية أنها تمنح الكاتب عدة فرص.. لو لم يُعجب

القارئ بقصّة فستُعجبه أخرى.. بذلك يحصل على شيءٍ من النجاح لو لم يحصل على النجاح كلّه.

أعرف أنك الآن في الرابعة والعشرين من عمرك، كان خالد محفوظ وقتها يكبرك بست سنوات.. أراك الآن تكتب ناويًا نشر ما تكتبه، بعكس خالد محفوظ.. كان يكتب رواياته ثم يحتفظ بها لنفسه خشية أن ينشرها فتفشل.. أنتَ أفضل منه في هذه النقطة.

في ليلة حفل توقيع مجموعته القصصية الأولى تأنّق في ملبسه وهو يفكّر في عدد من سيحتفون به من النقّاد والكتّاب.

قال لي واصفًا ما حدث :

في تلك الليلة تألّقتُ في ملبسي وأنا أفكّر في عدد من سيحتفون بي من النقّاد والكتّاب، ووقفتُ أمام مكتبتي أرمق الكتب وأسماء مؤلفيها.. الليلة سينضم اسمي إليهم، سأصبح كاتبًا بشكلٍ رسمي، وسيتم وضع الكتاب الذي يحمل اسمي إلى جوار هذه الكتب التي تحمل أسماء ديستويفسكي ونجيب محفوظ وفيكتور هوجو.

امتلأت نفسي بالحبور. ترى هل سيكون عدد الحضور كبيرًا ؟ صوت خافت غمغم بداخلي : نعم، سأنجح، بل أنا نجحتُ بالفعل ! لكنّ صوتًا أكثر حدّة تعالى وغطى على كل الأصوات : من أنتَ ليهتم أحدٌ بحضور حفل توقيعك الأول ؟ أنتَ شخصٌ مجهول !.

وقعت عيناي على شهادة التخرج المزخرفة التي علقتها بجوار المكتبة.
خالد محفوظ – بكالوريوس حاسبات ومعلومات – تقدير مقبول.

كان رهاني في السنوات السبع التي تلت تخرجي قائمًا على أنني سأنجح في مجال الكتابة بعيدًا عن تخصصي. قلتُ لليلى : "أيهما تريدين لزوجك أن يكونه : مبرمج كمبيوتر غير مميز بتقدير مقبول ؟ أم كاتبًا كبيرًا تحوطه نظرات الانبهار والإكبار ؟".

واليوم.. اليوم سأجني ثمرة رهاني.

لمحتُ انعكاس وجهي على زجاج المكتبة، فامتلأت نفسي بالضيق. تأمّلتُ الصلع الخفيف في مقدمة رأسي. لو كنتُ على شيء من الوسامة لوفرتُ على نفسي الكثير من الجهد ولكان نجاحي سهلاً !.

يحبطني دائمًا أني لا أملك شيئاً تجاه الصلع، إنه كالفشل، قوة أكبر مني لا يمكنني التغلب عليها، بإمكاني دائمًا ممارسة الرياضة لأتخلص من وزني الزائد، لكنّ الصلع لا تصلح معه أي تمارين. لم أتحمس يومًا للانتظام في الرياضة، فحتى لو حصلتُ على جسدٍ رياضي فبماذا يفيدني هذا وملامحي عادية ؟.

صديقي سمير خليل استطاع أن يصنع شهرة سريعة في عالم الكتابة بوسامته وثقته من تأثير وجهه الحسن على الآخرين.

لو كان عاديّ الملامح مثلي لما التفتَ إليه الناشر حينما قدّم إليه روايته الأولى، ولما منحه النقاّد الذين طاف عليهم بها أي فرصة. نحن للأسف نميل لمنح الفرص لذوي الأشكال الحسنة لأننا نعتقد في قرارتنا أنهم يستحقون مادامت الحياة اعتقدت نفس الشيء ومنحتهم الوجه الحسن !.

لكنّ كل هذا سيتغير بالنسبة لي الليلة.. أو هذا ما أظنّه !.

كنتُ أنتظر أن تنتهي ليلى من ارتداء ملابسها، تشاغلتُ برمق عناوين الكتب، وتوقف نظري لوهلة أمام كتاب "الحكم العطائية" بشرح الشيخ مِتعِب غريب. الشيخ مِتعِب هو جد ليلى، العالم الأزهري الجليل الذي تفتخر ليلى دائمًا به رغم أنها لم تلقه قط لأنها وُلدت بعد وفاته.. كانت قد

أهدتني الكتاب في عيد ميلادي منذ عدة سنوات ولم أفتحه حتى الآن، ولا أعتقد أني سأفتحه قريبًا.

تجاوزته سريعًا إلى رواية البؤساء بمجلداتها الخمسة، النسخة الكاملة التي قام بترجمتها منير بعلبكي.

تناولتُ المجلد الأول وفتحته عشوائيًا، وأخذتُ أقرأ :

"فمن خلال الإحساس المريض الذي يميز الطبائع غير الكاملة، ومن خلال الذكاء المخمد، أحسّ إحساسًا غامضًا بأن عبئًا هائلاً يجثم فوقه. وفي ذلك الظلّ الشاحب القاتم حيث كان يزحف، وكلما أدار وجهه وحاول أن يرفع عينيه، كان يرى في ذعر يمازجه الغيظ ركامًا يتشكل ويتجمع ويصعّد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات راعبة، ركامًا مخيفًا من الأشياء، من القوانين، من الأحقاد، من الرجال، ومن الأعمال التي كانت خطوطها الكبرى تفر منه، والتي كان ثقلها يرعبه، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة".

"هل سنذهب ؟".

التفتُّ لأجد ليلى وقد ارتدت كالعادة الحجاب السبانيش الذي أنهاها دائمًا عن ارتدائه لأنه يظهر رقبتها وأذنيها وأطراف شعرها، وغمرت وجهها بالمساحيق التي أقول لها دائمًا إنها تجعلها كالبلياتشو !.

هتفتُ بها :

ما هذا ؟! أتودين إحراجي في حفل توقيعي ؟! ألم أنهك مرارًا وتكرارًا عن الخروج من البيت بهذا الشكل ؟!.

رمقتني ببرود وغمغمت :

سنناقش هذا حينما نعود، هيا بنا الآن كي لا نتأخر !.

في العادة كنتُ أنفجر في وجهها، وأهتف بها أنني لا أحبها أن تتزين بهذا الشكل المبالغ فيه كي لا تُلفت أنظار الرجال إليها، أنني لا أرضى لنفسي أن أرى أحدًا يرمقها ولو على سبيل الفضول.. أحيانًا كان يبلغ بي الغيظ مبلغ إهانتها، فأصارحها بأنها ليست جميلة كما تظنّ، وأنها تسعى بما تفعله للحصول على جمالٍ صناعي يلفتُ الأنظار بلا داعٍ.. أنني زوجها، وأنا فقط من يجب أن تتزين له وتُلفت نظره بالألوان التي تضعها على وجهها، لا الرجال الأغراب السائرون في الشوارع !.

لكنّي لم أرد إفساد حفل توقيعي، لذلك غمغمتُ بضيق :

هيّا بنا !.

أوقفتُ سيّارة أجرة، واختلفتُ مع السائق حول الأجر، فتركني وذهب. يجب أن أتأكد من المبلغ الذي سأدفعه قبل الركوب كي لا يستغلني السائق حينما نصل وجهتنا. أوقفتُ سيّارة أخرى وافق سائقها على المبلغ الذي عرضته، فركبتُ مع ليلى في الخلف.

– لو كانت لديك سيّارة لما اضطررنا في كل مرة نستقل فيها سيّارة أجرة إلى حرج التفاوض مع السائقين كما يفعل الرعاع والبخلاء !.

دائمًا تشعرني بأنها لا تقدّرني، لا تقيم وزنًا لرجولتي، دائمًا ترسل لي الرسائل التي تخبرني أنها تستقل بي مادمتُ لم أنجح بعد ولم أمتلك ما يكفي من المال.

رمقتُ ساعتي، المفروض أن حفل التوقيع قد بدأ منذ خمس دقائق، لكن لا بأس، دائمًا نجم الحفل يصل متأخرًا بعد وصول الجميع.

وصلنا إلى مكتبة "المدينة بوك ستور" التي تقع في وسط البلد، شقة واسعة على الطراز القديم ذي المساحات الواسعة، تمّ تحويلها إلى مكتبة بها قاعة للأنشطة الثقافية المختلفة كحفلات التوقيع.. مشروع مربح، لا أدري كيف تأتي هذه الأفكار العبقرية لبعض الناس، بينما لا تأتيني أنا سوى أفكار على غرار الزواج من ليلى !.

حينما ترجلنا من السيّارة فوجئنا بصبيين صغيرين يسرعان نحونا، فتعلق أحدهما بفستان ليلى والآخر ببنطلون بذلتي.. كانت رائحتهما كريهة، ووجههما تعلوه طبقة من التراب.

- والنبي يا عمو، والنبي يا طانط، لم نتناول عشاءنا بعد، نريد جنيهًا واحدًا لا غير !.

أزاحت ليلى باشمئزاز الصبي الذي تعلق بفستانها وأسرعت مبتعدة، بينما بحثتُ في جيبي بسرعة وأخرجتُ قطعة معدنية دسستها في يد الصبي الآخر لأتخلص منه، محاذرًا قدر الإمكان أن تلمس أصابعي يده القذرة، ثم هرولتُ للحاق بليلى.

- يجب أن يجدوا حلاً لمشكلة أطفال الشوارع هؤلاء !.

أمام باب المكتبة الخارجي كان عماد ابن خالتي ينتظرنا، وهتف ما أن رآني:

لماذا تأخرتما، نحن جميعًا ننتظركما بالداخل !.

أخذتُ ألتقط أنفاسي بصعوبة، الجميع في الداخل ؟ ترى كم عددهم ؟.

كنتُ قد أعلنتُ عن موعد ومكان حفل التوقيع في حسابيّ على الفيس بوك وتويتر. بالتأكيد رأى الإعلان مئات الكتّاب والنقاد المضافين لديّ هناك.

ناهيك عن رسائل البريد الإليكتروني التي أرسلتها للجمعيات الأدبية وكل أديب كبير استطعتُ الوصول إلى عنوانه.. فلابدّ أن كثيرين قد حضروا !.

خطوتُ أمام باب القاعة وتسمّرتُ في مكاني ! المقاعد ممتلئة عن آخرها، لدرجة أن بقية الحضور اضطروا للوقوف.. لمحتُ الأستاذ جمال الغيطاني جالسًا في الصف الأول بجوار الأستاذ صنع الله إبراهيم، وهما يتصفحان باهتمام نسخة من مجموعتي القصصية !.

غامت الدنيا أمام عينيّ وشعرتُ أنني سأسقط : لقد فعلتها !.

من الصف الثاني وقف صديقي سمير خليل الكاتب المعروف، وهتف مشيرًا نحوي :

ها قد جاء نجم حفلنا !.

التفتوا نحوي، وانطلقوا يصفقون بسعادة.. سمير خليل، جمال الغيطاني، صنع الله إبراهيم، والجميع.

– لماذا تأخرتما، نحن جميعًا ننتظركما بالداخل !.

أفقتُ على جملة عماد ابن خالتي، الذي كان ينتظرنا أمام باب المكتبة الخارجي.

- معذرة، المواصلات كانت مزدحمة.

اقتربتُ من باب القاعة وقلبي يخفق بعنف، وتسمّرتُ في مكاني !.

كانت خالتي تجلس في الصف الأول، وسمير خليل يجلس وحيدًا في الصف الثاني.. ولا أحد آخر !.

سألتُ بدهشة :

أين بقية الحضور ؟!.

نهض سمير ليصافحني بحماس ويحتضنني مهنئًا. زكمت أنفي رائحة عطر Boss الذي أصبح علامة مميزة له. قال ضاحكًا :

سيأتون، مازال الليل بطوله أمامنا !.

الليل بطوله ؟! مدة حفل التوقيع ساعتان، مضت منهما ساعة إلا ربع !.

كانت المقاعد الشاغرة متراصة في صفوف أمام طاولة وُضعت فوقها عدة نسخ من مجموعتي القصصية، وحولها مقعدان، المفروض أن أحدهما لي والآخر لمدير الحفل الذي لم يحضر بدوره !.

جلستُ على مقعدي وأنا أرمق ساعتي بحرج.

مضت بضع دقائق، ثم قال سمير كاسرًا الصمت :

بالمناسبة، كنتُ أتحدّث مع صديقنا يوسف هذا الصباح على الفيس بوك، وهو يرسل إليك تحياته وتهنئته بحفل التوقيع.

هززتُ رأسي واجمًا. يوسف هو صديقنا الثالث، سمير وأنا، من أيام الجامعة. منذ تخرجنا أخذ يسعى للسفر إلى أمريكا، ونجح منذ ثلاث سنوات، ومن حينها استقر هناك ولم يعد يتواصل معنا سوى من خلال الفيس بوك.

عاد سمير يقول وهو يضع قدمًا فوق قدم :

لم لا تقرأ علينا إحدى قصص المجموعة ؟.

رمقتُ القاعة بإحباط، وتمنيتُ لو ننتظر قليلاً لعلّ أحدًا يأتي.

كانت ليلى تجلس متبرمة في الصف الأول بجوار خالتي عفاف وابنها عماد.

تناولتُ نسخة من نسخ مجموعتي القصصية التي طبعتها على حسابي. لمحتُ ليلى ترمقني بضيق. ليتني أفقد بصري أو تنشق الأرض فتبلعني ولا أرى نظرة اللوم في عينيها، لا أرى القاعة الخالية من مؤشرات النجاح.

كانت ليلى منذ البداية معترضة على تضييع مدّخراتنا في الطباعة على حسابي، لكنّي أكدتُ لها أن المجموعة ستنجح نجاحًا لا مثيل له، وسيصبح اسمي على كل لسان.

"أحقًا تعتقد ذلك ؟ أنتَ لستَ علاء الدين ومجموعتك ليست المصباح السحري !".

وددتُ كثيرًا لو تدعمني، أن تخبرني أنها واثقة من نجاحي، حتى لو كانت كاذبة. كان هذا سيعني لي الكثير.

والآن القاعة خالية، وأنا لا أستطيع النظر في وجهها. كانت على حق.

"سترين. سيمتلئ حفل توقيع المجموعة بعشرات الكتّاب والصحفيين والأدباء.. سيبدأ عهدي حينها".

لكن لم يحضر سوى سمير خليل زميل الجامعة ورفيق الأحلام الأدبية. روايته الثالثة نفدت طبعتها الأولى منذ أيام حسبما سمعت. ربما لو كنتُ على شيء من الوسامة مثله للقيت مجموعتي القصصية الأولى بعض الاهتمام !.

عاد سمير يكرر :

اقرأ علينا إحدى قصص المجموعة.

كنتُ سأطلب منه الانتظار لعلّ أحدًا يحضر، لكنّ عينيّ التقتا بعينيّ ليلى الغاضبتين. كانت كعادتها تعبث بأصابعها بعصبية في نهاية خصلات شعرها التي ظهرت من تحت حجابها "السباليش"، الذي يجعلها أكثر إغراءً مما لو كانت بشعرها.

رمقتُ النسخة التي بين يديّ. طوفان – مجموعة قصصية – خالد محفوظ. كنتُ قد طلبتُ من مصمم الغلاف أن يضع اسمي بحجمٍ أكبر من اسم المجموعة كما لو كنتُ أحد كبار الكتّاب. القراء ينخدعون بمثل هذه الأشياء. "هذا كاتب واثق من نفسه، سأشتري كتابه". لكنّ سمير قال لي ساخرًا وهو يمسك بالنسخة التي أهديتها له فور خروج المجموعة من المطبعة: "سيرتبك القراء الآن ولن يعرفوا هل اسم المجموعة طوفان أم خالد محفوظ!".

أعرف أنه لا يتعمد النيل مني، وأن هذا هو أسلوبه، لكن كان عليه على الأقل أن ينتبه لكلامه ونبرة صوته أثناء حديثه معي، كان عليه أن يكون أكثر حرصًا على مشاعري، خصوصًا وأنه قد حقق نجاحًا أدبيًا كبيرًا، على العكس مني، رغم أني الأكثر موهبة.

فتحتُ الكتاب، وغمغمتُ :

سأقرأ عليكم القصّة التي تحمل عنوان المجموعة.

اسم القصّة : طوفان

*"اسم الكتاب "أنا والطوفان" .*

*تعلق الصغير برقبته بينما يقرؤه.*

*أزاحه عنه، فلم يكن مستعدًا للعب معه.*

*كان يحبه ويقاسمه طعامه وشرابه ويفضله على نفسه.. لكن في غير أوقات القراءة.*

*هجم عليه الصغير وخطف الكتاب من بين يديه، فغلت دماؤه وقفز يطارده.*

*زادته ضحكاته المشاكسة حنقًا، وامتلأت عروقه بالغل حينما لمح الصفحات وقد تكرمشت بين يديه.*

*هجم عليه مزمجرًا، فتوقف الصغير فزعًا حينما لمح الهول في عينيه.*

*أمسكه من عنقه ورفعه بغيظ وضرب به الحائط.*

*صرخ الصغير، فشعر أن هذا وحده لا يكفي.. يجب أن يتألم جزاء ما فعل.*

رفعه ثانية من رقبته وضربه في الجدار بكل قوته.. سمع صوتًا غريبًا، لكنّه لم يتوقف عن ضرب الجسد الصغير في الجدار.

تركه حينما شعر بانطفاء غضبه، لكنّه فوجئ به يسقط أرضًا.

ناداه فلم يردّ.

هزّه قلقًا.. لابدّ أنه يمازحه.. يُمثّل.

هزّه بعنف.. لا استجابة.

بدأ يفقد أعصابه.. ضربه بقدمه لينهض فلم ينهض.

هزّ رأسه فوجدها تتحرك بحرية في جميع الاتجاهات.. صرخ ذعرًا، وقفز خطوتين بعيدًا عن الجسد المسجى.

لطم وجهه وسقط على الأرض يبكي.

تذكّر عودة أمه القريبة فجزعت نفسه.. لو عرفت بما حدث، لو عرف أي شخص بما حدث، فستنتهي حياته.

لا، لن يؤذيه أحد.

مسح دموعه وأحضر كيس قمامة من المطبخ، ودون تفكير حشر الجسد الصغير فيه.

ملأ بقية الكيس ببعض القمامة، ثم حمله على ظهره وهمّ بفتح الباب، لكنّه سمع صوت أمه العائدة، فتراجع.

أسرع إلى غرفته، وبدون تفكير حشر الكيس بما فيه تحت فراشه، وسط صناديق الملابس الشتوية.

سألته أمه عن أخيه الصغير، فردّ عليها بصوتٍ مرتعش أنه لم يره من فترة.

قال لها إنه سيتطوع بالبحث عنه.. غاب متعمدًا، ثم عاد يخبرها أنه وجده في الشارع يلعب مع أقرانه.

حمل الكيس وأسرع يغادر البيت.

لو ارتجف، لو ارتبك، فسيضيع، لهذا لم يرتجف ولم يرتبك، وامتلأت نفسه بالثبات، فلم يعكس ظاهره ارتباك باطنه.

قابله صديق فرمقه بدهشة.. أسرع يخبره أنه سيلقي القمامة في المصرف القريب ثم يعود ليجلس معه.

مرّ به كثيرون فلم يُثر انتباههم.

*الجميع يلقون القمامة، وهو سيلقي القمامة ويعود سريعًا.*

*ألقى بالكيس في مياه المصرف، وتأمّلها تجرفه بعيدًا، بعيدًا.*

*عاد إلى البيت فسألته أمه عن أخيه الصغير.. لم يردّ.*

*أغلق باب غرفته عليه.*

*الآن بإمكانه كره نفسه والندم كما يشاء.*

*أمسك الكتاب، ثم انفجر في البكاء حتى احمرّت عيناه".*

رفعتُ عينيّ عن الكتاب، فوجدتهم يرمقونني واجمين وكأنّهم ينتظرون أن أكمل، فاضطررتُ أن أقول لهم :

انتهت القصّة.

لوهلة ساد الصمت، ثم صفقت خالتي بحماس، وتبعها عماد، بينما مطت ليلى شفتيها وهي تميل برأسها لترمق باب القاعة.

قال سمير :

لا بأس بها يا خالد. لكن ألا ترى معي أنها سوداوية بعض الشيء ؟.

– الكاتب يكتب ما يشعر به.

– تعني أنك ترى الحياة هكذا ؟ أخ يقتل أخاه بالخطأ ثم يتخلص من جثته كي لا يمسكوا به ؟!.

اغتصبتُ ابتسامة وأجبته متصنعًا المرح :

– ألن تفعل نفس الشيء لو كنتَ في مكانه ؟.

سيدّعي سمير الآن الأخلاق والمثل العليا، رغم أن سبب نجاح روايته الأولى كان مشاهد الجنس المباشرة التي حشاها بين كل صفحة وأخرى !.

– لا أظنّ. أنتَ حر طبعًا فيما تكتبه، والقصّة جيدة، لا يمكنني إنكار هذا. لكنّ منطقها يزعجني.

– ألأنها تواجهك بأعماق نفسك المُفزِعة ؟ لا أعنيك أنتَ طبعًا، أقصد الإنسان بشكلٍ عام.

هزّ سمير رأسه بحيرة وغمغم :

أنا أتكلم هنا عن الواقعية يا عزيزي. لو أن شخصًا مر حقيقة بما مر به بطل قصّتك فهل كان سيتصرّف بنفس الطريقة ؟ هل لديك رأي بهذا الخصوص يا مدام ليلى ؟.

شعرتُ كأنّ ليلى تفيق من شرودها، صمتت قليلاً وكأنّها تستجمع ذهنها على غير إرادتها، ثم تمتمت :

لا أدري. سأوفر أي آراءٍ لديّ حينما يكون هناك جمهور كافٍ لمناقشتها !.

ورمقتني بنظرة تأنيب جعلتني أتحاشى نظراتها وأنشغل برمق كتابي.

ضحك سمير وقال بمرح :

أنتِ لم تري عدد من حضروا حفل توقيعي الأول يا سيدتي. في الحقيقة لم يحضر سواي أنا والناشر. هذه هي الحال دائمًا مع الأعمال الأولى. لكن مع حفل توقيع الطبعة الثانية لم يكن هناك موضع لقدم.

ثم عاد يوجه كلامه إليّ :

ما قصدته يا صديقي أني شعرتُ في قصّتك هذه أن البطل تم إجباره على فعل ما فعله من قبل الكاتب !.

– تقصد أن "المخرج عايز كده" ؟!.

– شيء من هذا القبيل.

شعرتُ بالتوتر. ما الذي يريده سمير بالضبط ؟ أن يثبت أني لا أجيد الكتابة؟ ألا يكفيه أن أحدًا لم يحضر حفل توقيعي ؟ هل يريد تدميري تمامًا؟.

رددتُ بحدة :

أنتَ تبالغ. أنا أرى أن هناك من سيتصرّف بذات الكيفية في ظروف معينة. الحقيقة أننا كلنا نتصرّف تبعًا لمصلحتنا في مثل هذه المواقف.

– إنها نظرة شديدة القسوة للبشر يا خالد !.

ابتسمتُ بسخرية :

إنه مجرد موقف ظهرت فيه غريزة الإنسان بشكل تلقائي وتحكمت فيه. بطل القصّة لم يخطط لفعل أي شيء، هكذا جرت الأمور معه. الأقدار دفعته دفعًا نحو هذا السلوك.. أما لو كنتَ تريد قصّة تعبر فعلاً عن السواد داخل الإنسان، فإليك هذه.

قلبتُ صفحات المجموعة، وقلبي يخفق بقوة، حتى وصلتُ إلى بغيتي :

*اسم القصّة : خطأ*

*"لو كان أداؤه جيدًا بعد أسبوع فسيحصل على مبتغاه.*

ضغط بقدمه دواسة الوقود وانطلق.. شوارع الصباح الخالية.. نصائح المعلم بالتريث والتركيز.

زاد ثقل قدمه على دواسة الوقود، فازداد الهواء المرتطم بوجهه وانتعش. أعمدة الإنارة تمر بسرعة، وهو يرمق ما أمامه مفتوح العينين في متعة. لم يُهدِّئ سرعته ليعبر المنحنى، فأصدرت العجلات صريرًا ذكّره بذاك الذي يسمعه في أفلام المغامرات. أطلق صيحة انتصار فخورًا بنفسه. ثلاثة أيام أخرى من التدريب المنفرد وسيتلافى أخطاءه السابقة ويعطونه الرخصة. كاد يدهس قطةً حمقاء، لكنّها انتبهت في اللحظة الأخيرة و قفزت مبتعدةً عن طريقه. ليت للبشر نفس سرعة الاستجابة.

الطريق طويلٌ ممتدٌ أمامه إلى نهاية المدينة ثم تبدأ الصحراء. دهس بقدمه دواسة الوقود إلى نهايتها، وأخذ نفسًا عميقًا من الهواء المرتطم بوجهه، شاعرًا بقلبه يسقط بين قدميه.

السيّارة تنطلق كالصاروخ وسط العدم. سيحصل على الرخصة بالتأكيد. ظهر الرجل فجأة عابرًا الطريق فارتبك، ارتفعت قدمه بسرعة لتدهس دواسة أقصى اليسار، فقط ليتذكّر – وجسد الرجل يرتطم بالزجاج أمامه– أن دواسة الكابح في المنتصف.

دفن وجهه في عجلة القيادة برعب. لم يحدث شيء. لم يحدث شيء. كل شيء على ما يرام.

فتح باب السيّارة متردّدًا، ومشى برعب تجاه الجسد المسجى على الأرض على بعد أمتارٍ من سيارته. طالعته النظرة الجامدة في الوجه الدامي الذي يرمق السماء. نظرة متجمدة من الدهشة.

صمت، هدوء، مواء القطة من بعيد. لم يره أحد. لم يره أحد.

شعر بغضب. الوقت مبكر جدًا، وما كان يجب أن يتواجد هذا خارج بيته الآن.

انفجر في البكاء بغيظ. مصيبة حصلت بسبب خطأ إنسان.

لن يعطوه الرخصة. لن يعطوه الرخصة.

رمق ما حوله فوجد مدينةً نائمة لا تريد من يزعجها. لم يره أحد.

جذب الجسد وجرّه على الأرض، ثم فتح باب السيّارة الخلفي وكوّمه على الأريكة. لم يره أحد.

انطلق بالسيّارة خارج البلدة، منتبهًا لمكان كل دواسة. تعمق في الصحراء قدر استطاعته.

مات واحد، ولا داعي لأن يقع الثاني في المشاكل، خاصةً وأنهم لن يعطوه الرخصة حينها.

وبعد أن أزال بقع الدم من مقدمة السيّارة وأريكتها، تركها لابن عمه السمكري ليقوم معها باللازم. طمأنه هذا إلى أنها ستكون مستعدة لاختبار القيادة النهائي بعد أسبوع.

عاد إلى بيته سريعًا ليغسل بقعة الدم عن كتف قميصه. الأحمق لم يكتف بما فعله، فمد كفه الدامية المتسخة لتتعلق بكتفه، بينما كان يجر الجثة في الصحراء. ضربة بسيطة أعادت الأمور لنصابها. كان سيموت على أية حال، فإصابته بالغة.

فليغفر له الله تواجده خارج بيته في ذلك الوقت، وعدم انتباهه أثناء عبور الطريق. ساعات الفجر الأولى ليست مبررًا كي يعبر الطريق بهذا الاستهتار، ولو ظلّ في بيته لما أصابه مكروه، ذلك الأحمق!.

ثلاثة أيام أخرى من التدريب المنفرد وسيتجاوز أخطاءه ويعطونه الرخصة.

وحينها سيصبح متمكنًا أكثر ويتلافى أخطاء الآخرين".

أغلقتُ الكتاب ورمقتهم بتشفي:

انتهت القصّة !.

لم يصفق أحد هذه المرة، وتنحنح سمير ثم قال :

خالد ! أنتَ لا تعتقد فعلاً أن شخصًا عاديًا مثلي ومثلك، لم يرتكب من قبل جريمة؛ يمكنه أن يصبح قاتلاً فجأة ويتصرّف بتلك التلقائية دون أي شعور بالذنب.. أنتَ فقط تتعمد صدم القارئ !.

في الكليّة كنتُ أحصل على المركز الأول في مسابقة القصّة القصيرة السنوية، بينما كان سمير يحصل على المركز الخامس ! صاحب المركز الخامس يعتقد الآن أنه الأنجح والأكثر شهرة لأن وسامته لفتت الأنظار إليه في حفلات التوقيع وجعلت الفتيات يتهافتن لنيل نظرة منه، بينما الفتيان يتناقلون رواياته فيما بينهم بحثًا عن مشاهد الجنس الرخيصة بداخلها !.

– وما المشكلة في أن يصدم الكاتب قارئه ؟! ألا تفعل أنتَ نفس الشيء حين تحشو رواياتك بمشاهد الجنس الرخيصة ؟!.

سرّني أن هجومي المباغت أربك سمير، الذي شُده لوهلة، ثم لم يلبث أن هتف:

مشاهد الجنس في رواياتي لها غرض، أنا لا أضعها هكذا اعتباطًا، هناك مبرر درامي لها، كما أنني...

– وأنا أيضًا لديّ مبرر درامي كي أجعل أبطالي يتصرّفون هكذا، أنا أمسك بمشعل وأحاول استكشاف أعماق النفس الإنسانية، أحاول أن أعرّيها من تأنق الحضارة والمدنية وأظهرها على حقيقتها البدائية، أنا وأمثالي نلعب دور الطبيب النفسي لقرّائنا، نبرز لهم أسوأ ما فيهم، أسوأ ما في البشر، بينما أنتَ وأمثالك لا تلعبون دورًا أكثر من دور شريط البورنو !.

نطقتُ كلمتي الأخيرة بحدة رغمًا عني، خرجت مني وكأنّي أشتمه، فهبّ واقفًا وهتف غير مصدق :

خالد ! انتبه لما تقوله، أنتَ تتعمد إهانتي بينما أنا الوحيد الذي حضر حفل توقيعك !.

لم أستطع السيطرة على أعصابي أكثر من هذا. الوغد يعايرني بأن أحدًا لم يحضر حفل توقيعي !.

– بالطبع، من سيحضر حفل توقيع أديبٍ لا يملك شيئًا سوى الموهبة ؟ أديب قبيح الشكل يعرّي حقيقة القارئ في قصصه ؟ فليقرأوا مشاهد الجنس في روايات سمير خليل أفضل لهم !.

– أنا.. أنتَ، لست.. الأمر ليس عني.. أنا كنتُ أحاول فقط أن أناقش أعمالك كي لا يظلّ حفل توقيعك خاويًا على عروشه !.

خاويًا على عروشه ؟! حتى جمله تقليدية مستعملة، لكن ماذا يتوقع المرء من كاتبٍ فاشلٍ مثل سمير خليل ؟!.

بعد كل ما أنفقته على الطباعة، بعد أن كتبتُ على الفيس بوك وتويتر معلنًا عن مكان وزمان حفل التوقيع، بعد كل الرسائل الإليكترونية التي أرسلتها للكتّاب والنّقاد والجمعيات الأدبية؛ تجاهلني الجميع ! الجميع أرادوا أن يثبتوا لي أن ليلى كانت على حق حينما اتهمتني بأنني فاشل يركض وراء سراب، كانت على حق حينما قالت لي بالأمس إنها سيئة الحظ لأنها أبتليت بالزواج بي أنا بالذات، كانت على حق حينما سخرت من كلامي حول تحقيق أعلى المبيعات في الوطن العربي بأكلمه. والآن يأتي الأستاذ سمير خليل الذكي الوسيم الذي يجيد تسويق نفسه ويعرف كيف يثير انتباه القرّاء والنقّاد بكتاباته الهزيلة؛ يجيء ليحاول بكل خبث أن يحطمني ويوحي لي بأني لا أجيد الكتابة.. لا !.

ألقيتُ بالنسخة التي كنتُ أقرأ منها على الأرض، وصرختُ فيه :

ربما لو كنتُ وسيمًا مثلك لاهتمّ بي النقّاد والقرّاء وشعروا أنني أستحق بعض الاحتفاء ! ربما لو كنتُ على شيء من الوقاحة والفجاجة وجعلتُ أبطالي يخلعون ثيابهم ووصفتُ للقرّاء ما سيفعلونه بعدها؛ لحصلتُ على بعض الاهتمام وامتلأ حفل توقيعي بالمعجبين !.

وقف سمير والغضب يملأ ملامحه :

يبدو أنني ما كان يجب أن آتي !.

– لكن خمّن ماذا يا أستاذي، أيها الكاتب الناجح الشهير : أنا كاتب شريف أنأى بنفسي عن الابتذال !.

غادر سمير القاعة دون كلمة.. ولدهشتي الشديدة لم أشعر بأي راحة بعد الانتصار الذي حققته.. كانت رغبة جامحة قد تملكتني بأن أصارح سمير بحقيقته، أن أجعله يدرك أنه سيء، أنه في الحقيقة فاشل، أنه ليس كما يظنّ. لكنّي بعد كل ما قلته لم أشعر بأي راحة. عدتُ أجلس في مقعدي مُربدّ الوجه. كانت خالتي ترمقني بجزع، بينما ليلى تجزّ على أسنانها بغضب. قلتُ لهما بإعياء مشيرًا إلى باب القاعة :

لقد حصل على النجاح الذي كنتُ أستحقه ! أنا أعظم منه موهبة، في الجامعة كنتُ أفوز بالمركز الأول في مسابقات القصّة، بينما يحصل هو بالكاد على المركز الخامس !.

نهضت ليلى بحنق وغمغمت :

سأعود إلى البيت !.

وغادرت المكان دون أن تنتظرني أو حتى تسلّم على خالتي.

انتبهتُ فجأة !

كان سمير يقول لي بدهشة :

خالد ! انتبه لما تقوله، أنتَ تتعمد إهانتي بينما أنا الوحيد الذي حضر حفل توقيعك !.

رمقته بدهشة، وهززتُ راسي لأنفض عنها الشرود، وغمغمتُ بإحباط :

معذرة يا سمير، لم أقصد إهانتك.

ونهضتُ واقفًا ببطء وأنا أغمغم :

شكرًا لك على كل حال على حضورك، شكرًا لكِ يا خالتي.. هيا لنرحل يا ليلى.

لحق بي عند باب القاعة ووضع يده على كتفي وغمغم متعاطفًا :

لا تتضايق ! المشوار مازال أمامك طويلاً، والنجاح سيأتي لا محالة لأنك كاتبٌ موهوب !.

نعم، كاتب كل بضاعته هي الموهبة فقط. ليست الوسامة ولا العلاقات المتعددة ولا الكتابات المبتذلة !.

شكرته وغادرتُ المكتبة، أريد الابتعاد قدر الإمكان عن المكان الذي شهد فشلي. أخذتُ أول ميكروباص قابلني دون أن أنتظر ليلى.

التفتُّ إلى الشخص الجالس بجواري وسألته فجأة بغيظ :

ماذا كان العالم سيخسر لو أن الأمور سارت معي كما يجب ؟!.

قاطعته عند هذه الجزئية قائلاً :

اسمع، أنا أعرف أنك تقصّ عليّ قصّة حياتك.. لكن اعذرني ! لم أجد فيها حتى الآن أي شيء مميز لتكون القصّة التي تحمل إجابة سؤال : هل بإمكاننا الحصول على السلام النفسي بشكلٍ دائم ؟! أنتَ تضيّع وقتك ووقتي !.

ابتسم وردّ بهدوء :

أؤكد لك أنها ليست قصّة حياتي، هذه قصّة حياة خالد محفوظ.

هتفتُ بحدة، حتى أن بعض الشباب الواقفين بين الممرات التفتوا إلينا بدهشة:

أيًّا ما كانت ! إنها قصّة عادية عن شخصٍ محبط يكره نفسه ويخجل من شكله وجسده، يغار على زوجته وكأنّه يشعر أنه سيفقدها لصالح أحد الرجال الأفضل منه لو أنها فقط تزينت قليلاً ولفتت انتباه أحدهم، يظنّ أن الحياة ليست عادلة معه لأنه ليس ناجحًا كالآخرين !.

قال لي مبتسمًا :

هذا صحيح تمامًا.. إنها قصّة عادية حصلت لكثيرين، ربما نكون عشناها في بعض مراحل حياتنا.. لو سألعب دور الطبيب النفسي وأحاول تحليل شخصية صديقنا خالد وقتها، فسأقول لك من واقع معرفتي به إنه كان في الغالب يشعر في أعمق أعماقه أنه لا يستحق النجاح، أنه لو نجح فسيشعر بالذنب لأنه لم يقدّم أضحية كافية لينال نجاحه.. أكاد أجزم أنه كان يفكّر هكذا.. ألا يأتيك أحيانًا صوتٌ خافت يسألك بإحباط : من أنتَ لتنجح ؟ ماذا فعلتَ لتستحق الحياة الطيبة ؟ أنتَ أقل من أن تكون ! كيف تحصل على المال وتتمتع به وهناك غيرك في العالم يعانون ؟.

خالد كان شخصًا عاديًا كما تقول.. ومن معرفتي به أعتقد أنه لم يكن مستعدًا للنجاح وقتها.. في أعمق أعماقه، في تلك المستويات التي لا يدري هو نفسه عنها، كان يتمنى تأجيل النجاح.. ربما ظنّ أن النجاح يعني المزيد من المسؤوليات التي لن يكون مستعدًا لها.. لذلك كان يتمنى النجاح ويؤكد لمن حوله أنه سينجح لكنّ تصرّفاته كانت تقود إلى عكس ذلك، في الغالب دون أن يشعر أو ينتبه.

كان هناك اثنان خالد، أحدهما يحاول صعود الجبل طوال الليل، والآخر يقف منتظرًا عند القمة، وحينما يجد الأول قد اقترب مع خيوط الفجر الأولى يركله بقدمه ليتدحرج إلى القاع، ثم يبدأ في التسلق من جديد.. إنها

قصّة عادية من ممارسة التدمير الذاتي دون وعي.. كما رأيت، هو لم يبذل جهدًا كبيرًا في الترويج لمجموعته القصصية الأولى.. اكتفى بالإعلان عن حفل توقيعه في مواقع التواصل الاجتماعي، وأرسل بضع رسائل إليكترونية إلى أشخاصٍ لا يعرفهم، وفي الغالب لم يقرأوها، أو قرأوها ولم يهتموا بها.. أكاد أجزم أنه في قرارته لم يتوقع حضور أحد، ولم يخيب أحدٌ ظنّه.

لكنّ ما يجعل قصّة خالد قصّة تستحق الحكي أن أحدًا منّا لم يمتلك الشجاعة التي امتلكها للوصول بالتدمير الذاتي لحياته إلى منتهاه.. نحن دائمًا ما ندور في دوائر مفرغة، نبتعد ونقترب من النجاح دون أن نحسم قرارنا.. نشعر أننا لا نستحق الحب، فتفشل قصصنا العاطفية، ثم ما نلبث أن نبدأ من جديد لأننا نسأل أنفسنا في كل مرة : ولم لا ؟ قد تكون هذه هي المرة الناجحة !.

وحده خالد محفوظ الذي امتلك الشجاعة ليكسر تلك الدائرة الملعونة ويصل بتجربته إلى أقصى نهاياتها.

على سبيل المثال؛ في تلك الليلة – ليلة حفل التوقيع – كان في طريقه ليحرم نفسه من شيء آخر بخلاف النجاح : الحب !.

كان عقله اللا واعي يتأهب لافتعال شيءٍ ما لطرد ليلى زوجته من حياته، لأنه كان يشعر أنه لا يستحقها.

في البداية رحل غاضبًا دون أن ينتظرها، ثم عاد إلى البيت وجلس في الصالة دون أن يبدّل ملابسه وهو يفكّر في الإهانة التي لحقت به حينما لم يحضر أحدٌ حفل توقيعه سوى صديقه اللدود سمير خليل، الذي ربما حضر فقط ليشمتَ في فشله !.

ولقد قال لي واصفًا تلك اللحظات :

توقعتُ أن تلحق بي ليلى بعد عدة دقائق، بالتأكيد ستقوم خالتي بتوصيلها، لذلك قضيتُ الساعة الأولى أُحضّر ما سأقوله لها مبررًا فشل حفل التوقيع الذي يشي بفشل المجموعة القصصية التي استثمرتُ فيها مدّخراتنا.

سأكون فظًا جدًا، عنيفًا جدًا، لو اتهمتني بإضاعة مدّخراتنا.. سأصارحها بأنها لا تؤمن بي ولا تستحق أن تكون زوجتي التي من المفترض بها أن تدعمني وتقف بجواري.

لكن حينما مرت ساعة أخرى دون أن تعود بدأتُ أقلق !.

كنتُ أجلس في الصالة وأنا مازلتُ مرتديًا البذلة حينما فُتح الباب ودخلت ليلى.

كنتُ أغلي من الغضب في انتظارها، قضيتُ الوقت أتخيل ما سأفعله بها، سأهتف بها ما أن تدخل :

لقد نهيتُك مرارًا وتكرارًا عن المبالغة في زينتك، لكنّكِ لا تقيمين لي وزنًا ! كل الرسائل التي تصلني منك تقول إنني ليست لي كلمة مطاعة عندك، أنتِ تستمتعين بإشعاري بالعجز عن السيطرة عليك !.

وبالتأكيد سترمقني ببرود كعادتها في مثل هذه المواقف، لكنّي أعرف أنها تتحصن بالبرود لتخفي خلفه خوفها من انفعالي. وكالعادة ستقول لي :

أحقًا تظنّ ذلك ؟!.

دائمًا ما تثير هذه الجملة غيظي وحنقي وتجعلني أنفجر في وجهها أكثر :

أحقًا تظنّ ذلك ؟! أحقًا تعتقد ذلك ؟! أليست لديك غير هذه الجملة ؟ أنا أتلظى غضبًا أمامك وأتكلم وأتكلم وأتكلم، وكل ردّك عليّ هو أحقًا تظنّ ذلك ؟!.

فتنفخ من فمها بضيق، وتتوقف عن لف نهايات خصل شعرها حول إصبعها، وتجزّ على أسنانها كعادتها حين تغضب، هاتفةً بي :

أنتَ تبالغ في ردود أفعالك وتفسر الأمور على هواك ! كل الفتيات يرتدين كما أرتدي ويضعن المكياج كما أضع ! أنا أفعل ما أفعله لأبدو جميلة لا لكي أُشعرك بأنك عاجز أو ليست لديك كلمة مطاعة عندي، إلى آخر كلامك العجيب هذا ! أنتَ مُعقّد !.

– أنا لستُ مُعقّدًا يا هانم ! أنا فقط زوج ينتظر من زوجته أن تشعره أنه رجلها، أنها تهتم به وتمتنع عن فعل ما يضايقه، لا أن تبحث عن كل ما يضايقه وتفعله بالذات !.

– أنا لا أفعل شيئًا يضايقك ! أنتَ فقط من تتضايق من الأشياء التي اعتدتُ أنا على فعلها !.

دائمًا ما ينفجر جنون غضبي حينما أجدها ترفض مجرد الاعتراف بخطئها، تحاول أن تظهرني في مظهر الثور الهائج الذي يختلق الأمور ليغضب، فأصرخ بها :

تقصدين أنني مجنون ؟! فلنتكلم بصراحة، فلنتكلم بصراحة ! أنتِ تشعرين أنكِ تورطتِ بالزواج بي ! حينما تعرّفتِ عليّ في الجامعة بهرك موضوع الأديب الذي يحصل على المركز الأول في مسابقات الجامعة، شعرتِ أنني مميز وسيكون لي مستقبل باهر في الكتابة كما كنتُ أردّد على مسامعك دومًا، والآن بعد زواجكِ بي اكتشفتِ أنني لا أملك المال الكافي لأجعلك تعيشين في الوضع الذي تتمنين العيش فيه ! اكتشفتِ أن المشوار مازال أمامي طويلاً في مجال الكتابة لأصل للمكانة التي أحلم بها.. وأنتِ غير مستعدة للصبر لأنكِ لا تحبينني كما ظننتُ أنا وكما ظننتِ أنتِ نفسك.. تريدين كل شيءٍ جاهزًا، كل شيءٍ بسرعة !.

فتنتقل عدوى الغضب الجنوني إليها، فتخرج عن برودها وتصرخ فيّ بدورها:

بل أنتَ الذي خدعتني ! أنا لا أستحق ما نحن فيه ! حين تُوفي أبي وأنا صغيرة رأيتُ كيف تعبت أمي وشقت كي توفر لي ولأخوتي أقل قدر ممكن من متطلبات الحياة، ظللنا نعاني وننتظر الفرج.. كنتُ أنتظر أن أتزوج لأحصل من زوجي على الأمان الذي فقدته بفقدان أبي، كي أشعر معه أنني لن أعاني كما عانت أمي وكما عانينا معها.. وتزوجتك، فماذا حدث ؟!.. مازلتُ أعيش في تلك المعاناة، أنتَ لا تعمل، تكتفي بالمبالغ القليلة التي تحصل عليها حينما تُوفّق في نشر مقالٍ هنا أو هناك، أو تقوم ببعض أعمال المراجعة اللغوية.. ترفض العمل كمبرمج كمبيوتر كما يُفترض بك أن تكون،

تهرب من الانخراط في وظيفة تدرّ علينا دخلاً ثابتًا.. لماذا ؟!.. "لأنني لا أريد شيئًا يجعلني أحيد عن حلمي في الكتابة" – "سأصبح مشهورًا قريبًا"– "ستحقق كتبي أعلى المبيعات وسيأتيني منها دخلٌ ثابت" !.. أتدري ؟! أنتَ أصلاً لستَ مؤمنًا بنفسك ! لا تبذل جهدًا في تسويق كتاباتك.. "أنا لستُ وسيمًا مثل فلان أو علان لينشروا لي" – "مازال المشوار أمامي طويلاً".. بالطبع سيظلّ المشوار أمامك طويلاً مادمتَ لا تبذل جهدًا في أخذ الخطوة الأولى فيه !.

ثم تنفجر في البكاء وهي تنهنه :

أخوتي وبنات خالتي تزوجن زيجات ممتازة، والآن هنّ يخرجن مع أزواجهنّ بانتظام، يرتادون المطاعم الفخمة ويذهبون إلى النوادي ويتعرفون بالناس، بينما أخشى أنا لقائهنّ كي لا ينظرن إلى حالهنّ وحالي ويشفقن عليّ أو يشمتن بي !.. أنا الأجمل بينهنّ لكنّني الأقل حظًا !.

حينها أشعر بخناجر صغيرة تنغرز في صدري، وأتمنى لو أفقد بصري أو تنشق الأرض فتبتلعني ولا أرى نظرة الاتهام في عينيها.. أنا أشعرها بالعار ! أشعرها أنها تورطت بزواجها مني !.

ثم أشفق عليها فأحتويها بين ذراعيّ وأؤكد لها أن كل هذا سيتغير، وأنها ستفخر بي قريبًا، وأحاول مسح دموعها، فيختلط في كفي الماء بسواد

الكحل. وتنتهي المعركة وكلانا يشعر بأن الآخر مدينٌ له، فقط لتبدأ من جديد عند أول فرصة قادمة !.

كنتُ أتوقع أن يتكرر هذا السيناريو في هذه الليلة حينما انفتح الباب ودخلت ليلى.

– مازال الوقت مبكرًا يا هانم ! لماذا عدتِ مبكرة ؟!.

رمقتني بغيظ وهتفت بي :

أتجرؤ على الكلام ؟! في البداية تنفق كل مدّخراتنا على طباعة كتابك الذي لم يهتم به أحد، ثم تتركني وحدي في حفل التوقيع الذي لم يحضره أحد وترحل دون أن تترك معي نقودًا ! ولولا شهامة سمير لما عرفتُ كيف سأعود!.

نهضتُ من مكاني وهتفتُ بذهول :

سمير أوصلك ؟ ركبتِ معه السيّارة وحدكما ؟!.

رمقتني ببرود وغمغمت :

لأن زوجي الشهم تركني وحدي !.

هتفتُ غير مصدق :

كان بإمكانك العودة مع خالتي وابنها عماد، كانت معهما سيّارة !.

– خالتك كانت ستذهب لزيارة محل الستائر السخيف الذي تزوره دائمًا، وعرض عليّ سمير أن يوصلني فوافقتُ !.

كان الأمر أكبر من أن أستطيع استيعابه. تركت رجلاً غريبًا يوصلها، وترى الأمر عاديًا ؟!.

صرختُ بها :

كيف تسمحين لنفسك أيتها الزوجة الفاضلة بأن يوصلك شخصٌ غريب ؟ كيف تطاوعك نفسك على ركوب السيّارة معه وحدكما ؟ ألم تفكّري فيما سيقوله الجيران حينما يرونك تغادرين سيّارة شخصٍ غريب ؟!.

أجابتني ببرود :

سيتساءلون : لماذا تركها زوجها الفظّ الأناني وحدها وغادر دون أن يفكّر فيما ستفعله هي ! بدلاً من ثورتك هذه كان عليك الاتصال بسمير لتشكره على ذوقه ولطفه !.

لم أدرِ ماذا أفعل أو أقول.. تملكتني رغبة جامحة في أن أشعرها أنني غاضب، أنه لا يوجد أي عذر في العالم لتترك رجلاً غريبًا يوصلها بسيارته ثم تقف بعدها بصفاقة أمامي لتضع الخطأ عليّ.. أمسكتُ بمزهرية وقذفتها نحو الحائط بكل ما أملك من قوة، فتهشمت وتساقطت قِطعًا على الأرض.

صرخت بفزع وغطت أذنيها وهي ترمق القطع المهشمة بذهول، ثم رمقتني بذعر وهتفت :

أنت مجنون، مجنون !.

جذبتها من حجابها السبانيش وأنا أصرخ :

نعم أنا مجنون، حينما تتعامل زوجتي معي بهذه اللامبالاة وتتخذ من عدم قدرتي على أن أوفر لها الحياة المرفهة التي تصبو إليها؛ عذرًا لارتكاب أمور لا يُقرّها المجتمع وتجرح كرامة زوجها؛ فحينها نعم، أصير أنا مجنونًا !.

أخذت تحاول الانفلات مني، وهي تصرخ باكية :

إياك أن تؤذيني، إياك، أنتَ مجنون، مجنون !.

لم أكن أدري ماذا عليّ أن أفعل بعدها، أردتُ فقط أن أرعبها لتخرج عن برودها المستفز، لتدرك أن الأمر ليس بسيطًا كما تحاول تصويره، وأنه ليس خطئي !.

– لو لمستني بسوء فسأسجنك !.

هتفتُ بها جازًّا على أسناني :

ولماذا تأخرتِ في العودة كل هذا الوقت ؟ هل نسي سمير عنوان بيتنا فظلّ يدور بسيارته الفارهة في الشوارع إلى أن استطاع الوصول إلى هنا ؟ أم أنه وجد أعصابك مرهقة فعرض عليك الذهاب للجلوس في كازينو ما حتى تهدئي ؟.

ودفعتها بحنق نحو الأريكة، فسقطت فوقها، ووقفتُ أمامها بغضب :

أين كنتِ طوال هذا الوقت ؟!.

انفجرت في البكاء، وهي تردّد من بين دموعها :

هبطتُ إلى الكافيتريا التي في أسفل المكتبة لأستريح قليلاً وأخفف من توتري وضيقي بعد فشل حفل التوقيع.. كنتُ أتوقع أنك ستعود لتأخذني،

لكنّك لم تأتِ.. لحق بي سمير بعدها وحاول التخفيف عنّي، ثم أوصلني إلى البيت !.

اتسعت عيناي في ذهول :

أي أنكما جلستما جلسة رومانسية في الكافيتريا وتبادلتما الحديث !.

لم تردّ عليّ، فأخذتُ أصرخ وأنا أشير إليها متهمًا :

أنتِ معجبة به، أليس كذلك ؟.. هو الجانب الآخر مني، الأديب الناجح الشهير الذي كنتِ تعتقدين أنكِ ستجدينه معي وتفتخرين به أمام أهلك ومعارفك، المال الكثير الذي كان سيتيح لك ارتياد المطاعم والنوادي والتفاخر أمام صديقاتك.. الوسامة والثقة بالنفس اللتان لا أملكهما، أليس كذلك، أليس كذلك ؟!.

كنتُ أصرخ وأنا أرتجف، وفوجئتُ بها بلا كلمة تنهض مسرعة إلى غرفة النوم فتغلق الباب على نفسها.

انهرتُ على أحد المقاعد ودفنتُ وجهي بين كفيّ وأخذتُ أغمغم جازًّا على أسناني بغيظ :

لماذا.. لستُ.. ناجحًا ؟ ماذا.. سيخسر العالم.. لو أنني.. حصلتُ على.. بعض الحظ الحسن.. مثل سميييييييير ؟!.

تمنيتُ لو يكون كل هذا مجرد كابوس سأستيقظ منه فجأة، أن يظهر جنّي مصباح علاء الدين فينقلني إلى زمانٍ ومكانٍ آخرين فلا أجد نفسي في هذا الموقف، أو أفقد بصري فجأة فلا أضطر لرؤية ما أنا فيه.

أو تخرج ليلى من الغرفة فتقترب مني وتربتُ على ظهري وتحتضنني.. تخبرني بأنها تؤمن بي، أنها واثقة من أنني سأنجح وسأكون أشهر وأعظم وأفضل من سمير، أنها ليست معجبة به، أنها تحبني وتثق أنني سأرفع رأسها أمام معارفها.

انفتح الباب، وخرجت ليلى.. أسرعتُ أمسح دموعي كي لا تراها.

كانت قد خلعت ملابس الخروج، وانسال شعرها الناعم على ظهرها. كنتُ دائمًا أردّد لها أن أجمل ما فيها عيناها، لكنّني كنتُ أدرك أنني كاذب. أجمل ما فيها هو شعرها الناعم الشبيه بشلالٍ عذب.

اقتربت مني بتردّد وغمغمت :

أريد أن أخبرك شيئًا.

حبستُ أنفاسي، ماذا ستقول بعد كل ما قيل الليلة والليالي التي سبقتها ؟.

– أنا أحبك، أنتِ أفضل شيءٍ حدث لي، لا تتضايق من تصرّفاتي معك، أنا فقط أشعر أنني لا أستحقك، أنا أؤمن بك وأؤمن أنك ستصبح عظيمًا وشهيرًا وغنيًا.. أنا لا يهمني المال، كل ما أريده هو أن أجد الأمان بين ذراعيك.. أعتذر عن سماحي لسمير بتوصيلي، أعتذر عن كل شيء فعلته وأنا أعرف أنه سيضايقك أو يجرحك.. فلنبدأ صفحة جديدة سويًا، صفحة أكون فيها عاملاً إيجابيًا في تقدمك، وليس عائقًا في طريقك !.

فتحتُ لها ذراعيّ فاندست بينهما.. احتضنتها بقوة وأخذتُ أهتف بها :

سامحيني، سامحيني.

– أريد أن أخبرك شيئًا.

انتبهت، وهززتُ رأسي لأفيق من شرودي.

كانت تقف أمام باب غرفة النوم ترمقني شذرًا وهي مازالت ترتدي ملابس الخروج.. حاولتُ أن أبتسم لها وأعتذر عن كل ما حدث، لكنها أسرعت تقول :

أنا أرغب في الطلاق !.

لكنّنا لم نتطلق، لأن الحادث وقع بعد أيامٍ قليلة.

هناك من يؤمنون بالصدفة، أن كل شيء يقع في الكون بشكل عشوائي بلا ترتيب. لكنّي في تلك الأيام كنتُ أختلف مع هؤلاء، كنتُ أعتقد أن كل شيء يقع في الكون مرتب بشكل دقيق بحيث يؤدي إلى تعاسة الإنسان، كل شيء الغرض النهائي منه السخرية من فشل الإنسان وعجزه وعدم قدرته على إنجاز شيء. لا عجب أن يهوه في التوراة كان يشعر دائمًا بالحنق والغيرة من الإنسان، وحينما وجد أن بابل مدينة قوية ذات حضارة نزل على الفور وبلبل ألسنة أهلها !.

لكنّ ما كان يغيظني فعلاً أن هذا الكلام لا ينطبق على بعض البشر. سمير خليل مثلاً نجح بكل بساطة، لم يتعب ولم يلقَ أي صعوبات، من المرة الأولى التي ذهب فيها إلى ناشره وجد فرصة للنشر، ثم انفتحت أمامه كل الأبواب. لماذا لا يحدث هذا معي ؟ لماذا أذهب إلى حفل توقيعي فلا أجد سوى سمير خليل واقفًا مبتسمًا مني بسخرية، وكل شيء فيه، ابتسامته وملابسه وتسريحة شعره ورائحة عطره، كلها تشع بالطزاجة كأنّه خرج لتوه

من المصنع، بينما أنا الممتلئ القبيح الذي يحرز الصلع يوميًا انتصاراتٍ جديدة في مقدمة رأسه، أقف بائسًا أتمنى شيئًا من النجاح ولا أجد ؟!.

حينما كنتُ أتابع برنامج من سيربح المليون كنتُ أسخر من بلاهة الأسئلة. السؤال الحقيقي الذي سيحصل من يجيب عليه على المليون هو : لماذا الحياة معطاءة مع البعض وغير عادلة مع الآخرين ؟!.

لماذا يحصل سمير خليل على كل شيء بينما خالد محفوظ لا يحصل على شيء؟! لماذا يلبلب يهوه حياة خالد محفوظ ويربتُ بحنو على حياة سمير خليل؟! لماذا يتعرض خالد محفوظ للإهانات في منزل أهل ليلى رغم أنه لم يفعل شيئًا ليستحق هذا ؟!.

كانت ليلى قد ذهبت لتقيم في بيت أهلها طالبة الطلاق، وكنتُ قد ذهبتُ في ليلة الحادث لأسترضيها وأحاول التفاهم مع أهلها.

قال لي عمها وهو يرمقني من أعلى لأسفل واضعًا ساقًا فوق ساق :

اسمعني جيدًا يا خالد، أنتَ تعلم أنك مثل ابني، ووضعك هذا لا يرضي أحدًا.

–كل شيء قابل للتحسن يا عمّو، ووضعي ليس سيئًا لهذه الدرجة !.

– ليس سيئًا لهذه الدرجة ؟ أنتَ لا تعمل يا خالد، ليتك كنتَ تبحث عن عمل ولا تجد، بل أنتَ ترفض العمل أصلاً، تتركنا نسعى ونبحث لك عن عمل مناسب، ثم تتعامل مع كل تلك الوظائف بتكبرٍ وتعالٍ وكأنّها ليست من مستواك.. تتكلم طوال الوقت عن أنك ستصبح كذا وستكون كذا، وكلنا سنفخر بك وسيعرفنا الناس من خلالك.. كلام، كلام، كلام، ولا شيء على أرض الواقع !.

شعرتُ بالخجل والتضاؤل. من الصعب عليّ أن أُوضع في موضع الدفاع عن نفسي، أن أخبر الآخرين بأنني أعتقد أنني شخصٌ مميز، مستقبلي مبهر وحياتي مغامرة غير عادية. لا يوجد لديّ إثبات على ذلك، وفي الغالب سأقابل بالسخرية نظرًا لوضعي الحالي. توماس أديسون كان معلموه في المدرسة يرونه غبيًا لا يصلح لشيء. لو قال لهم حينها أنه سيصبح من أهم المخترعين في تاريخ البشرية، وسيضيء لهم حياتهم حرفيًا، لضحكوا منه بالتأكيد، ولقذفوه بسخريتهم.

– اعرف أن كلامي قد يبدو لك غريبًا يا عمّو، لكن.. أؤكد لك أن مستقبلي سيكون مشرقًا بأكثر مما نتخيل جميعًا. كتابي الأولى طُبع بالفعل وهو الآن في الأسواق، وأعتقد أن نسخه ستنفد خلال أسابيع، وسأطبع منه طبعات أخرى وأخرى، وسأنشر كتبًا جديدة، وعائد هذه الكتب سيكفل لي ولليلى حياة كريمة، كما أنني...

قاطعني الرجل بحدة :

هل تمزح يا خالد ؟! حفل توقيعك لم يحضره أحد ماعدا ليلى وخالتك ! هل تجد هذا مؤشرًا على أن الطبعة الأولى ستنفد خلال أسابيع ؟!.

شعرتُ بنفسي أتضاءل أكثر وأكثر، شعرتُ بالمرارة، وكرهتُ ليلى لأنها وضعتني في هذا الموقف وهي تعرف جيدًا مقدار حساسيتي.

– هذا الأمر معتاد مع أغلب الكتّاب يا عمّو.. حينما ينشرون كتابهم الأول في الغالب لا يلفت الأنظار في البداية، لكنّه سرعان ما ينجح نجاحًا مذهلاً.. رواية الخيميائي لباولو كويليو لم تلقَ نجاحًا يُذكر حينما نشرها لأول مرة، لكن بعد سنين قليلة بيعت منها ملايين النسخ وتُرجمت لعشرات اللغات !.

ضرب الرجل كفًا بكف، وقال :

لا أصدق ما تتحدّث عنه ! هل أنتَ في وعيك يا بني ؟ هل تريد أن تقنعني أنك من الكتابة وحدها ستفتح بيتك وتنفق على ابنة أخي ؟!

حاولتُ أن أملأ صوتي بالحماس وأنا أقول :

هذا الأمر ليس بمستبعد يا عمّو، دان براون بيعت من رواياته ملايين النسخ.. لو كان يكسب من النسخة الواحدة جنيهًا واحدًا لكان الآن مليونيرًا.. وستيفن كينج يُقال إنه يكسب سنويًا خمسين مليون دولار من مبيعات كتبه، وأنا لا أستبعد أن أصبح بدوري مثل...

- كفى من فضلك، كفى !.

هتف بي بغضب، فتوقفتُ عن الكلام وابتلعتُ ريقي. هي معركة خاسرة على كل حال. اعتدل في مجلسه وقد ارتسمت على محياه علائم الجدية والخطورة :

فلنكن صرحاء، أنتَ شخص كسول لا يُعتمد عليه، شخص يرفض إصلاح حياته، وينتظر في مكانه أن يأتيه الحظ والنصيب.. دعني أخبرك عن خبرة يا خالد أن الحظ والنصيب لا يأتيان للجالسين في أماكنهم، يجب أن تسعى وتبحث وتحاول، تفشل وتنجح، حتى تصل إلى وجهتك !.

- لكن يا عمّو، أنا سوف...

- بصراحة شديدة أنتَ خدعتنا !.. حينما تقدمتَ لخطبة ليلى كنّا نظنّك قادرًا على رعايتها والإنفاق عليها.. كنّا نظنّ أن لديك مستقبلاً مثل بقية الشباب الذين لديهم نفس مؤهلاتك العلمية والعائلية.. لكنّك للأسف...

شعرتُ بالدنيا تدور بي، ليت هذا يكون كابوسًا أستيقظ منه وأظلّ أبكي بمرارة في فراشي. لم أتوقع أن يخاطبني أحدهم هكذا في يوم من الأيام. كنتُ أتمنى أن يأتي اليوم الذي يتّصل فيه عمّها بي ليطلب مني بخجل أن أحضر إلى بيتهم لأن بعض معارفهم يزورونهم، ولم يصدّقوا أن خالد محفوظ ذات نفسه هو زوج ابنتهم. "يظنّونني أخدعهم يا خالد، أرجوك تعال هنا لنريهم أنك بالفعل نسيبنا، تعال لترفع رأسنا أمامهم ونفخر بك". لكن بدلاً من ذلك جلستُ أمامه في تلك الليلة ليوبخني ويصارحني بأني فاشل لا أمل فيه.

شعرتُ برغبة قوية في الهرب ومغادرة هذا المشهد، أن تنشق الأرض وتبتلعني، أن أمتلك الشجاعة لأرفع أصابعي إلى عينيّ فأفتعلهما ولا أضطر لرؤية وجه عمّ ليلى المتجهم وهو يوجه لي الإهانات. لكنّي بدلاً من ذلك قاطعته قبل أن يكمل، وقلتُ له بصوتٍ مرتجف محاولاً ألا أفقد السيطرة على نفسي فأبكي :

خلاص يا عمّو، لا داعٍ لكل هذا الكلام.. أنا تحتُ أمركم في أي شيء.. لو كانت ليلى ترغب فعلاً في الطلاق فأنا تحتُ أمركم.. بعد إذنك !.

وأسرعتُ لأغادر الشقة دون أن أنتظر ردّه.

– انتظر يا خالد !.

مررتُ في طريقي بحماتي التي كانت قادمة إلينا بأكواب الشاي. فتحتُ باب الشقة بصعوبة، كنتُ أسمع خلفي أصواتًا تخاطبني بأشياء ما لكنّي لم أستطع تمييز شيء. كانت العبرات تتزاحم في طريقها إلى عينيّ.

كدتُ أتعثّر على السلم، ووجدتُ منطقة شبه مظلمة بين طابقين، فوقفتُ عندها مستندًا إلى الجدار وانفجرتُ في البكاء.

كيف تضعني ليلى في مثل هذا الموقف ؟ هي تعرف مدى حساسيتي وأنني لن أتحمل أن يخاطبني أحدهم كما فعل عمّها معي منذ قليل. أنا كسول وفاشل ولا رجاء منّي ويجب أن أطلقها لأني خدعتهم ؟!.

ضربتُ رأسي في الجدار مرتين وأنا أجزّ على أسناني، رمقتُ السقف وغمغمتُ بألم وغيظ :

لماذا ؟! لماذا تفعل بي هذا ؟!.

مسحتُ دموعي وغادرتُ البناية وأنا أغلي من الغضب. ليتني أموتُ الآن، ليت سيّارة تصدمني فأموت، لتندم ليلى وأهلها على ما فعلوه بي، ليتني أفقد بصري فلا أضطر لرؤية الوجوه القبيحة المتجعدة التي تحاول إهانتي بتعبيراتها الصامتة. سيظلّ الندم والشعور بالذنب ينهشانهم بقية عمرهم، كان لديهم شاب عبقري وموهوب، لو صبروا عليه قليلاً، لو منحوه الفرصة، لصار ملء الأبصار والأسماع، لملأهم الفخر وهم يجلسون أمام شاشة

التلفاز يشاهدونه وهو يستلم قلادة النيل من رئيس الجمهورية على الإنجازات التي سينجزها. لكنّهم فضلوا اعتبار أنه خدعهم وغرر بهم، أنه كسول وفاشل ولا فائدة مرجوة منه، والآن سيموت وسيندمون هم لبقية عمرهم على الجريمة التي ارتكبوها، هم الذين قتلوه، هم الذين ذبحوه بكل قسوة !.

اللعنة على ليلى وأهلها وكل غباء البشرية !.

ارتطمتُ بأحدهم فتوقفتُ وهتفتُ بغلّ :

انتبه أثناء سيرك أيها الغبي !.

رمقني الفتى بدهشة، لابدّ أن منظري أزعجه، فغمغم متلعثمًا أنه معذرة وأسرع مبتعدًا.

جبان !.

ليته توقف وتعارك معي، ليته كان يحمل في جيبه مطواة يخرجها ويغرزها في أحشائي، لكنّه كان جبانًا !.

استقللتُ أول ميكروباص صادفني، لم يكن هناك راكب سواي، وكان السائق يضع أغنية صاخبة لمطرب شعبي لا أعرف اسمه.

"المرار مالي حياتي.. ترابت ترابت تو

وكل مكان طافح زحمة.. ترابت ترابت تا

يا ناس تعبت من عذابي.. ترابت ترابت تو

وكل حاجة بقت وحشة.. ترابت ترابت تا"

لمست الكلمات على بدائيتها شيئًا داخلي، لكنّ الصوت كان نشازًا، مع كثيرٍ من الطبل والدق والعواء.. شعرتُ أن طبلتيّ أذنيّ تتمزقان.

- اخفض الصوت يا أسطى !.

رمقني السائق في المرآة باستخفاف، وقال بصوت بالكاد استطعتُ سماعه:

لكنّ الأغنية حلوة يا كابتن !.

دفعتُ إليه بأجرة الركوب وأنا أقول بغلّ :

لم أطلب منك إغلاق الأغنية، طلبتُ خفض الصوت فقط !.

رمق الجنيه الذي أعطيته له، وقلبه بين يديه باستهجان، ثم أعاده إليّ :

هذا الجنيه لا يصلح.. قديم جدًا !.

كان الجنيه بالفعل باليًا، لكنّي لم أكن في مزاجٍ مناسب للرضوخ له، فهتفتُ به بغضب وأنا أدفع يده :

ستأخذ هذا الجنيه وستخفض صوت الأغنية، وإلا...

جاء ردّ فعله مبالغًا فيه وغير متوقع.. أوقف الميكروباص بفرملة حادّة وهبط منه بحدّة، ودار حول مقدمته وهو يرغي ويزبد، ثم فتح الباب المجاور لي هاتفًا :

أنتَ تعتقد أنك أحسن مني ومن حقك أن تأمرني ؟!.. انزل يا كابتن، لن أوصلك.. غور أنتَ وجنيهك !.

وقذف الجنيه في وجهي !.

اشتعلتُ غضبًا. لن يستخفّ بي والد ليلى وهذا السائق في نفس الليلة !.

قفزتُ من الميكروباص لأقف أمامه، وهتفتُ به :

ماذا تعني بأنك لن توصلني ؟.. ما رأيك في أنك ستوصلني رغمًا عنك ؟!.

ضرب الرجل وجهه بكفّيه وهو يصرخ :

يا فتّاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. أنا انهيتُ ورديتي وكنتُ في طريقي إلى المستشفى لزيارة ابني، وقلتُ أكسب فيك ثوابًا وأوصلك في طريقي.. لا تجبرني على ارتكاب جريمة في آخر اليوم !.

صرختُ فيه بدوري :

أنتَ شخص قليل التهذيب، وستدفع ثمن قلة أدبك !.

– أنا قليل التهذيب ؟!.

انتبهتُ حينها إلى أن حركاته وطريقة كلامه غير طبيعية. في الغالب هو تحت تأثير مخدرٍ ما. تحرك بعنف ففتح الباب المجاور للسائق وتناول شيئًا ما من تحت المقعد ورفعه في وجهي. كانت ماسورة حديدية !.

– أنا سأريك من هو قليل التهذيب يا روح أمك !.

فجأة شعرتُ بخوفٍ طاغٍ يغزوني. تلاشى كل غضبي ورغبتي في خوض أي معركة أتأذى فيها لتندم ليلى وأهلها، وامتلأت نفسي بالذعر. هذا الرجل غير طبيعي، والمنطقة التي أوقف فيها الميكروباص مظلمة خالية، ولا أحد حولنا، والماسورة في يده ستؤذيني بشدة لو استخدمها ضدي. لا أريد أن أموت الآن !.

تراجعتُ وأنا أغمغم :

انتظر لحظة، يمكننا أن...

لكنه طوّح الماسورة فجأة تجاه وجهي، فشعرتُ بألمٍ هائل في عظام خدي وسقطتُ على الأرض. يجب أن أفرّ، يجب أن أفرّ.

تحاملتُ على نفسي وحاولتُ الزحف مبتعدًا، والألم يغمرني.

"المرار مالي حياتي.. ترابت ترابت تو"

– أين تذهب يا روح أمك ؟!.

لمحتُ ظلاً يمتد على الأرض أمامي. يدًا تمسك جسمًا أسطوانيًا ترتفع، ثم تهبط على ظِلِّ رأسي بقوة.

"وكل حاجة بقت وحشة.. ترابت ترابت تا"

تفجر الألم في مؤخرة رأسي، فسقطتُ تمامًا. ومع الضربة الثانية غامت الدنيا أمام عينيّ وغمرني السواد.

لم أكن أعرف في تلك اللحظة أن السواد سيغمرني طويلاً بعدها.

فتحتُ عينيّ فوجدتُ ظلامًا، فشعرتُ بالدهشة.

كان الألم حارقًا في وجهي ومؤخرة رأسي. رفعتُ يدي لأتحسس مواضع الألم فلمست أصابعي الضمادات. كان هناك أشخاصٌ حولي.

سمعتُ صوت عماد ابن خالتي يهتف بالفعال :

لقد استيقظ يا أمي.

وسمعتُ صوت خالتي تهتف بفرح :

أسرع وأحضر الدكتور.

همستُ بدهشة :

أين أنا ؟!.

خرج صوتي متحشرجًا، فسعلتُ عدة مرات، ثم عدتُ أسأل :

ولماذا نحن في غرفة مظلمة ؟!.

حاولتُ رفع رأسي والنهوض من الفراش لكنّ الآلام اندلعت في مؤخرة رأسي، فعدتُ أرقد كما كنت.

سمعتُ صوت خطوات تقترب، وقال لي أحدهم بصوتٍ واثق :

حمدًا لله على سلامتك يا أستاذ خالد، بسيطة بإذن الله.

عدتُ أسأل :

أين أنا ؟ من أنتَ ؟.

– أنتَ في المستشفى، وأنا دكتور أنور، الطبيب الذي ضمّد جراحك.

هممتُ أن أسألهم عن الظلام، لكنّ خالتي أسرعت تخبرني أن بعض أولاد الحلال وجدوني أمس أنزف ملقىً على الطريق، فحملوني إلى المستشفى. وجدوا هاتفي المحمول في جيبي، وكان آخر رقمٍ اتصلت به هو رقم عماد. اتصلوا به وأخبروه أنني مصاب في مستشفى الوفاء بالمهندسين.

– لم نتوقع أن تستيقظ سريعًا هكذا. مازلنا ننوي إجراء أشعة على رأسك لنتأكد أنه لا توجد أضرار. الإصابة في مؤخرة رأسك كانت بالغة، لقد نجوت بمعجزة !.

لكن ما كل هذا الظلام ؟ هل هناك إصابة في عينيّ ؟ لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن مركز الإبصار يقع في مؤخرة الدماغ. في نفس المنطقة التي تلقيتُ فيها الضربات !.

سألتني خالتي بلهفة :

ماذا جرى لك ؟ ألم تكن عند أهل ليلى تحاول استرضاءهم كما أخبرتَ عماد بالأمس ؟!.

رفعتُ يدًا مرتجفة وتحسستُ عينيّ. لا توجد ضمادات.

ربما الكهرباء مقطوعة في المستشفى في تلك اللحظة.. أو أن هناك مشكلة ما في عينيّ بسبب الإجهاد.

كنتُ أشعر بالخوف من أن أعيد السؤال مرة أخرى، شيء ما في صدري كان منقبضًا، وصوت في عقلي كان يهتف : أنتَ لن ترى مرة أخرى !.

- معذرة، لكن.. منذ فتحتُ عينيّ وأنا لا أرى سوى الظلام.. هل الغرفة مظلمة أم أن هذا عَرَضٌ مؤقت من أعراض إصابتي ؟.

شعرتُ بحركة مرتبكة في الغرفة، وتغيّر صوت الطبيب فأصبح مرتبكًا :

ألا ترانا ؟! لاحظتُ منذ البداية أنك لا تنظر تجاه أصواتنا، وظننتُ هذا بسبب الإجهاد.

شهقت خالتي بجزع، وسمعتُ صوت خطوات الطبيب يهرول مبتعدًا، بينما أخذ عماد يهتف مرتبكًا :

خالد، خالد، انظر إلى يدي.. هل ترى يدي وهي تتحرك أمام عينيك ؟!.

لم يتغير شكل السواد أمامي، ووجدتُ نفسي أهتف مذهولاً :

ماذا جرى لي ؟ ماذا جرى لي يا خالتي ؟!.

أحاطتني خالتي بذراعيها، وهالني أنها انفجرت في البكاء. هل وصل الموضوع لدرجة البكاء ؟!.

وجدتُ نفسي أهتف بها بهستيريا :

لا تقلقي، لا تقلقي، لا تقلقي.. لا يوجد شيء.. سيقوم الدكتور باللازم.. لابدّ أن شيئًا ما تحرك من مكانه بسبب الضربة على مؤخرة رأسي، وهم سيعيدونه، لا تقلقي، لا تقلقي !.

سمعتُ الكثير من الخطوات تقترب مني، وأحاطت بي الأصوات. امتدت الأصابع تفحص موضع الإصابة في مؤخرة رأسي، وتفتح حدقة عيني.

– لا توجد استجابة من بؤبؤ العين !.

– هذا غريب، الضربة لم تقترب من مركز الرؤية في الدماغ !.

– وحتى لو فعلت، لم تكن بالقوة الكافية لتسبب أي ضرر !.

شعرتُ فجأة بالهلع، هؤلاء القوم يكذبون ليخلوا مسؤوليتهم، لابدّ أن الضربة أصابت مركز الرؤية وجعلتني أعمى !.

أريد أن أرى الضوء والألوان ووجوه الناس مرة أخرى، ولو لدقيقة واحدة.. لا أريد كل هذا الظلام الذي يحيط بي.. أنا أختنق !.

أخذتُ أصرخ محاولاً النهوض من الفراش :

أريد أن أرى، أريد أن أرى، دعوني أرى !.

امتدّت أكثر من يد تحاول إعادتي إلى الفراش، لكنّني أزحتها وأنا أصرخ فيهم:

أنتم تخدعونني ! أنا سليم، لم يحصل لي شيء.. إنها مجرد ضربة بسيطة على مؤخرة رأسي، اللعنة عليكم جميعًا !.

– لكن.. نحن لم ندّعي أن الضربة سببت...

وضعتُ قدميّ على الأرض، فمادت بي الدنيا وكدتُ أسقط لولا أن امتدت إليّ عدة أيدٍ تسندني، واختلطت في رأسي الأصوات التي تتوجه إليّ بالحديث. أزحتُ الأيدي عني وأسرعتُ إلى الأمام فاردًا ذراعيّ أمامي متلمسًا طريقي. يجب أن أصل إلى زر الإضاءة، سأكشف لهم حقيقة خدعتهم الغبية. أخذتُ أسير حتى لمست يديّ الجدار، فأخذتُ أتحسسه بلهفة، وصوت نشيج خالتي يصلني. لمس كفي زر الإضاءة فأخذتُ أضغطه بجنون مرارًا وتكرارًا دون أن يحدث شيء. يجب أن يضيء النور الغرفة الآن، يجب !.

في النهاية سقطتُ على الأرض وانفجرتُ في البكاء :

أنا سليم، لم يحدث لي شيء أيها الأوغاد.. لا أحد يفقد بصره من ضربة بسيطة على الرأس !.

سمعتُ صوت عماد يخبرني أني سأكون بخير، وامتدتْ يداه نحوي تحاولان مساعدتي على الوقوف، فأزحتهما بغضب، واستندتُ على الجدار لأنهض.

لماذا يحدث لي هذا ؟ لماذا ركبتُ في ذلك الميكروباص بالذات ؟ لماذا استفزّ كلامي السائق ودفعه لضربي ؟ لماذا لم أعد أرى ؟!.

أخذتُ أضرب رأسي في الحائط بقوة وأنا أصرخ :

لماذا تفعل بي هذا يا رب ؟ ما الذي فعلته لتجعلني هكذا ؟ خذ مني ما تشاء وأعد إليّ بصري، لا يمكنني الحياة في هذا الظلام، اللعنة على كل شيء !.

شعرتُ بجلبة حولي، وامتدت أكثر من يد تجذبني لتعيدني إلى الفراش، بينما شعرتُ ببلل على جبهتي، وسمعتُ صوت الدكتور أنور يهتف :

إنه ينزف !.

وضعوني في الفراش، وشعرتُ بوخز إبرة في ذراعي ثم تسلل الخدر إلى جسدي ولم أعد أشعر بشيء.

أخذوني وأجروا لي أكثر من أشعة. سمعتُ الطبيب يقول :

مركز الرؤية سليم ولا يوجد به أي ضرر.. لو كنتَ لا ترى الآن يا سيدي فالأمر في الغالب يرجع لعوامل نفسية لا عضوية.. ربما هي صدمة ستزول بعد يوم أو يومين.. وفي كل الأحوال أنصح بمراجعة العيادة النفسية.

هراء ! لستُ مجنونًا لأرى ظلامًا حولي بلا سبب. سمعته يملي على عماد عنوان طبيبٍ نفسي يعرفه ليأخذني إليه. ضحكتُ أمامهما بمرارة، وصارحتهما بأنني أعرف أنني لن أرى مرة أخرى !.

قاطعتُ العجوز عند هذه الجزئية :

ألا ترى أن القصّة بدأت تتخذ أبعادًا درامية أكثر من اللازم ؟.

توقف وسألني باهتمام :

ماذا تقصد ؟.

– أعني أنه من غير المنطقي أن يصاب خالد بكل تلك المصائب مرة واحدة، تفشل مجموعته القصصية وتتركه زوجته ويصاب بالعمى.. حتى في الروايات والأفلام القديمة، حين كانوا يحاولون حشد أكبر كمية من المآسي أمام عينيّ القارئ أو المشاهد؛ لم يكونوا يبالغون لهذه الدرجة !.

قال لي مبتسمًا :

نعم، أفهمك.. في الأدب يقولون إن الصدفة قد تكون مقبولة في عالم الواقع لكنّها ليست كذلك في عالم الخيال.. في الواقع قد يتعثّر الشرير في قشرة موز فيسقط وتنكسر رقبته، فيتخلص الناس من شره.. لكنّ نهاية

كهذه لن تكون مقبولة في قصّة أو رواية.. يجب أن يقتنع القارئ بالأسباب التي أدّت إلى نهاية الشرير.. من وجهة النظر هذه أتفق معك في أن الحوادث تكالبت على صديقنا خالد بشكلٍ مثيرٍ للريبة.. لكن دعني أسألك سؤالاً : ألم تلحظ من قبل أشخاصًا بعينهم تحدث لهم مشاكل معينة بشكل متكرر ؟ كلما دخل أحدهم في مشروع يخسر نقوده، أو كلما دخل في علاقة يتمّ استغلاله.. أشخاص يتعرضون للسرقة أكثر من مرة، تصيبهم الأمراض أكثر من غيرهم، يتعثّرون في المعوّقات مع كل خطوة يخطونها ؟.

— إممممممم.. أعتقد أنني رأيتُ مثل هؤلاء.

— بل نحن أنفسنا تصيبنا مثل هذه الأمور في فترات معينة من حياتنا.. شئنا أم أبينا فهناك أشخاص يلعبون دور المغناطيس تجاه الأحداث، سواءً كانت إيجابية أم سلبية.. فعلى الجانب الآخر أيضًا هناك أشخاص يتعثّرون طوال الوقت في الخيرات، أولئك الذين نطلق عليهم اعتباطًا ذوي الحظ الحسن!.

الأمور لا تتكرر بهذا الشكل من نفسها، الحياة لا تضطّهد أو تحابي أحدًا.. لماذا لا نفكّر في أن من تتكرر معهم هذه الأمور، سواءً بالخير أو الشر، هم أنفسهم السبب فيما يصيبهم ؟.

سألته باستهجان :

كيف أكون السبب في وقوع أحداثٍ أصابتني دون أن يكون لي يدٌ فيها ؟.

- لأنك أنتَ المسؤول عما تؤمن به، أنتَ المسؤول عن الصورة الذهنية التي تعتقدها عن نفسك في أعمق أعماقك.. لو أنك ترى نفسك فاشلاً فلا تندهش حينما تفشل فعلاً في كل مشاريعك.. إذا كنتَ تشعر في أعماقك بالخوف ستتحول حياتك تدريجيًا لعدم الأمان.. ستبدأ الحوادث التي تثبتُ لك أن العالم مكانٌ غير آمن في الانهيال عليك.. سيزداد يقينك حينها بصدق حدسك، فتنهال عليك المزيد من تلك الحوادث، وهكذا.. في الحياة نظام يعمل على تعزيز قناعاتنا الداخلية طوال الوقت، وعقلك الباطن هو الخادم المخلص لهذا النظام.. إن وجدك مقتنعًا بأنك فاشل فسيعمل طوال الوقت على تعزيز قناعتك تلك، سيجعلك تتلعثم في الكلام أمام الناس وأنتَ تلقي محاضراتك، ستسقط على الأرض وتلتوي قدمك قبل ذهابك إلى لقاء عمل قد يؤدي إلى ترقيتك، ستشعر بالضيق والنفور في عملك حتى ينتهي بك الأمر مطرودًا أو مستقيلاً.. سيثبتُ لك أنك على حق مهما كلفه الأمر.

وما حدث مع صديقنا خالد أنه هو بنفسه من قام بتوجيه الضربات لوجهه ثم أخذ يبكي من ظلم الحياة له.. تذكّر أنه هو من فسّر غضب زوجته مما اعتبرته تضييعًا لمدّخراتهما بأنها تميل لصديقه، وصارحها بذلك فطلبت الطلاق.. هو الذي أخذ يحدّث عمّها عن مشاريع غير جادة فاستفزّ الرجل لإهانته.. هو من تحفّز للعراك مع سائق الميكروباص واستفزّه ودفعه لضربه،

وهو المسؤول عن العمى الذي أصابه. كل ما وقع لخالد لم يكن مجرد صدفة، هو من قاد نفسه إليه دون وعيٍ منه !.

عدتُ أسأله بإصرار :

لكن لو كان الأمر يعتمد على معتقدات المرء والصورة التي رسمها لحياته في أعماقه؛ فخالد كان يرى نفسه أديبًا كبيرًا موهوبًا ومجموعته القصصية ستنجح فور صدورها، لكنّ ذلك لم يحدث !.

– هناك فرق بين ما يقوله المرء بلسانه ويظنّ أنه يؤمن به، وبين ما يعتقده حقيقة في أعماقه.. خالد كان يائسًا، لم يكن يؤمن بنجاحه كما يدّعي.. كان يرى حياته غير مستقرة ويتشبث بأمل أنه سينجح نجاحًا مفاجئًا ينتشله مما هو فيه.. فما حدث أن حياته زاد عدم استقرارها، تمامًا كما كان يراها.

بالنسبة لموهبته، فهو بالفعل كان يرى نفسه موهوبًا، لذلك كان يكتب قصصه بشكلٍ رائع، لكنّه لم يصدّق أن الناس ستتقبّله وأن مجموعته ستنجح، وهو ما حدث فعلاً وأدّى إلى مزيدٍ من سخطه : كيف يكون موهوبًا ولا يتقبّله الناس ؟.

لو آمن فعلاً بنجاحه لتصرّف بشكلٍ آخر.. كان لن يكتفي بمراسلة الأدباء والنقّاد من خلال البريد الإليكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت.. كان سيذهب إليهم واحدًا واحدًا ويهديهم نسخًا من مجموعته

ويدعوهم وجهًا لوجه لحضور حفل توقيعه.. ولن يفتَّ في عزمه أن حفل توقيعه الأول لم يأته أحد.. كان سيقول لنفسه إن هذه هي البداية فقط، وعليه بذل المزيد من الجهد.. لم يكن سيتكبر عن الاستعانة بعلاقات صديقه سمير.

ولماذا نذهب بعيدًا ؟.

أعرف خالد محفوظ آخر في مكانٍ ما اتفق مع صديقه سمير خليل على مساعدته في الترويج لمجموعته القصصية. كان الأول يدور على الجرائد والمجلات فيمنحهم نسخًا منها، بينما الثاني يذهب بنفسه إلى الكتّاب والنقّاد الذين يعرفهم بشكلٍ شخصي ويهديهم نسخًا من المجموعة ويطلب منهم ولو قراءة قصّة واحدة منها والحكم عليها.. وبعد عدة أسابيع من الطواف على النّقاد وكبار الكتّاب نجح الاثنان في اقتناص مقالتين عن المجموعة كتبهما اثنان من النقّاد، أحدهما في أخبار الأدب والثاني في الأهرام، وبدأ الناس ينتبهون إلى المجموعة ويسألون عنها، وبدأت المكتبات الكبرى تطلبها لتعرضها بين كتبها.

سألته بدهشة :

ماذا تقصد بخالد محفوظ آخر ؟.. هل هناك أكثر من خالد محفوظ ؟.

ابتسم بغموض وأجابني :

دعك من هذه النقطة يا صديقي وضعها على حساب الأمور التي قد نتحدّث عنها فيما بعد.. المهم الآن أن صديقنا خالد دخل في مرحلة جديدة من حياته.. شجاعته - التي حدّثتك عنها سابقًا - في الوصول بتدميره لذاته إلى منتهاه أدّت به إلى الرقود فوق فراش مستشفى خاص في المهندسين لا يرى حوله سوى الظلام.. طبعًا تكفّل ابن خالته عماد بدفع كل المصاريف، وخالد لم يلبث هناك سوى يومين على كل حال.

ولقد قال لي واصفًا ما حدث :

جاء ضابط شرطة ليحقق معي، فحكيتُ له ما حدث وأخبرته أنني لم أجد وقتًا لأخذ أرقام الميكروباص ولا يمكنني وصف شكل السائق بدقة.. طلب مني أن أمرّ عليهم في القسم حينما أتحسن ليعرضوا أمامي سائقي الميكروباصات الذين يعملون على ذلك الخط لعلي أتعرف على صوت أحدهم.. قلتُ لنفسي بسخرية : وهل سيعيد لي ذلك بصري ؟!.

**ظللتُ** عدة أيام كلما استيقظتُ أفاجأ حينما أفتح عينيّ فلا أجد حولي سوى الظلام، ثم أتذكّر أنني صرتُ لا أرى !.

كان الظلام الذي يحيط بي يفزعني. يفزعني أنني حينما أفتح عينيّ على اتساعهما لا أرى سوى الظلام في كل مكان، كأنّني انتقلتُ إلى عالمٍ لم يعرف يومًا الكهرباء ولا الشموع المضيئة. قضيتُ الأيام الأولى أشعر بالرعب والضياع لعدم قدرتي على تحديد الاتجاهات والأبعاد، كأنّني سقطتُ في هُوة لا أدرك قرارها، أو أسبح في بحرٍ لا أعرف عمقه، وكانت خالتي تستيقظ ليلاً على صوت بكائي، أو تفزع حينما تجدني فجأة أستنشق الهواء بعنف وكأنّني أختنق. كنتُ أشعر أنني أغرق في البحر المظلم.

في الأيام الأولى كنتُ أحاول الحركة بعصبية دون الاعتماد على غيري لأنني- قلتُ لنفسي بحنق - لستُ بحاجة لأحد. كنتُ أسير بشكلٍ مضطرب وأنا ألوّح بيديّ أمامي محاولاً تحسس طريقي، فأصطدم بالأشياء وأسقط على الأرض.

كنتُ أفتقد رؤية الأشياء، وكان صدري يغلي بالغضب. ألا يكفي فشل مجموعتي القصصية وطلب ليلى للطلاق ؟ ألا تكفي كل إخفاقاتي كي أصبح أيضًا أعمى ؟.

كان الظلام يفزعني، وكانت تفزعني أكثر فكرة أنني سأضطر للاعتماد على غيري طوال حياتي. ماذا سيحدث لو فقدتُ خالتي وعماد ؟ ماذا لو ماتا، أو تغيّرا ونبذاني ؟ ماذا سيحصل لو شعرا يومًا تجاهي بالملل ؟ أنني عبءٌ عليهما، أنهما قاما معي بالواجب وما عاد بإمكانهما تحمّلي ؟ كل هذا كان يُشعل بداخلي السخط لأنني انتهيتُ إلى هذه الحال. كنتُ أرفع رأسي إلى أعلى وأصرخ بحنق :

لماذا ؟ لماذا ؟! أريد فقط أن أعرف لماذا فعلتَ بي هذا ؟!.

ثم أشعر بيديّ خالتي تحيطان بي، تحتضنني بقوة وهي تغمغم بتأثّر :

لا تقل هذا يا ولدي، استغفر الله.

وتصرّ على أن أردّد أن "قدر الله وما شاء فعل"، فأردّد مع إلحاحها العبارة بلساني بينما قلبي يغلي من الحنق !.

خرجتُ من المستشفى بعد أيام إلى منزل خالتي الذي لم يكن غريبًا عليّ.

قضيتُ جزءًا من حياتي فيه بعد وفاة والديّ في حادث السيّارة. كان البيت مكونًا من ثلاث غرف، واحدة لخالتي وزوجها، والثانية لعماد، والثالثة كانت غرفة الضيوف التي جعلوها غرفتي.

قضيتُ فترة دراستي الجامعية هناك، في تلك الشقة الجميلة في شارع المبتديان، ولم أغادرها إلا إلى شقتي الأخرى بعد أن تزوجتُ ليلى. كانت خالتي وزوجها يعتبرانني ابنهما الثاني بعد عماد، الذي كان يصغرني بأربع سنوات. كنتُ أشعر بامتنانٍ دائمٍ لخالتي على الأمان الذي منحته لي في الفترة التي تلت وفاة والديّ، بسببها لم أشعر أنني غريب في الدنيا، ومن أجل ذلك كانت العلاقة قوية بيني وبينها هي وابنها، كانا أسرتي.

كان زوج خالتي قد تُوفي منذ عدة سنوات بعد صراعٍ غير طويل مع المرض، تاركًا خلفه شركة سياحة أصبح عماد يتولى إدارتها. كانت تُدرّ دخلاً لا بأس به، وكانت خالتي تمدني بجزءٍ من هذا الدخل سرًّا طوال السنين الماضية لأستطيع الإنفاق على بيتي، ولولا هذا لاضطررتُ لقبول أي عمل لا يتناسب مع إمكانياتي. لم أكن لأقبل بمساعدة خالتي لولا نيتي بأن أردّ لها كل ما أعطته لي وأكثر حينما يأتيني دخل مناسب من كتاباتي.

في اليوم التالي لعودتي من المستشفى فوجئتُ بعماد يخبرني بأنه زار طبيبًا نفسيًا واستشاره بخصوص حالتي، وأخبره الطبيب أنني في الغالب أخشى

رؤية شيءٍ ما في حياتي، لذلك التهز عقلي الباطن حادث الاعتداء عليّ ليكون مبررًا لأفقد بصري !.

ثرتُ وهجتُ ومجتُ وتحركتُ بعنف فسقطتُ على الأرض، وأنا أصرخ بعماد :

قلتُ لكم مرارًا وتكرارًا أنا لستُ مجنونًا ! أنا فقدتُ بصري لأن ذلك الوغد ضربني على رأسي، لستُ فاشلاً لدرجة أن أفقد بصري لأهرب من فشلي.. أنتم كلكم أغبياء، أغبيااااااااء !..

واضطر عماد لاستدعاء جارنا الطبيب، الذي أعطاني حقنة مهدئة نمتُ بعدها. ومن يومها لم يفاتحني عماد ولا خالتي بخصوص الذهاب للطبيب النفسي.

كانت خالتي تقوم بشؤوني وتساعدني في كل كبيرة وصغيرة، تمسك بمعصمي وتقودني برفق تجاه الحمّام، وتظلّ واقفة أمام الباب تنتظرني بقلق، ثم تعيدني بنفس الطريقة إلى مجلسي في الصالة أمام التلفاز. كنتُ أجلس أمام التلفاز بالساعات أستمع إلى صوت الأفلام والمسلسلات والبرامج الحوارية. وحينما ينتهي برنامج أو مسلسل، كانت خالتي تسرع من المطبخ دون أن أناديها وتغير لي القناة إلى أن تجد قناة تعرض شيئًا يستحق متابعة

صوته فتتركه لي. وحينما يعود عماد من شركته كان يشترك معها في العناية بي.

كان يقول لي بعطف :

أنا تحت أمرك.. هل تودّ أن أقرأ لك شيئًا معينًا ؟ أفتح لك صفحة معينة على الإنترنت وأخبرك بمحتواها ؟ هل تودّ أن تكتب شيئًا ؟ أملني إياه وسأدوّنه لك !.

كانا يتعاملان معي بعطفٍ وحنانٍ مبالغٍ فيهما، وكنتُ أشعر بالامتنان أحيانًا، وبالغيظ والضيق أحيانًا أخرى، لكنّي كنتُ أتعامل معهما بعصبية ونفاد صبر في كل الأحيان، خصوصًا مع الأخطاء التي كانا يرتكبانها غير متعمدين.

ذات مرة عاد عماد من عمله، فدخل الحمّام ليغتسل، وظللتُ أنا في مكاني المعتاد في الصالة أمام التلفاز، ثم فجأة أتاني صوته بجواري يهتف بي بمرح :

هل تريدني أن أقرأ لك شيئًا الليلة يا بطل ؟.

فزعتُ وقفزتُ من مكاني، كنتُ شاردًا فلم أنتبه لخطواته حينما اقترب مني. هتفتُ بانزعاج :

لا تكلّمني فجأة هكذا.. حينما تقترب منّي اظهر أي شيء يدلّني على ذلك.. تنحنح، أو نادني بصوتٍ منخفض.. لكن لا تهتف بجواري فجأة هكذا !.

أما خالتي فقد سمعتها تقول ذات مرة :

هل تريد أن تأكل شيئًا ؟.

وكنتُ أجلس مع عماد أمام التلفاز، فظننتها توجه كلامها إليه لأنه عاد لتوه من عمله، لكنّها عادت تكرر :

أقول لك : هل تريد أن تأكل شيئًا ؟.

فطنتُ عندها أنها تحدّثني أنا، فقلتُ لها بضيق :

يا خالتي ! كيف سأعرف أنك توجهين حديثك إليّ ؟ نادني باسمي حينما تفعلين !.

فأخذت تعتذر لي للدرجة أني شعرتُ بالذنب لأني كلمتها بهذه الطريقة.

أسوأ أوقات يومي كانت أوقات الطعام، كنت أرفض الجلوس معهما على نفس المائدة بعد تجربة أو اثنتين اكتشفت خلالهما أني سأُسقط الكثير من الطعام على نفسي وما حولي وأنا أحاول استكشاف ما وُضع أمامي

والوصول به إلى فمي، رغم حرصي.. حاولت خالتي أن تضع على صدري منشفة صغيرة لتحمي ملابسي، لكنّي رفضت بإباء.. وفي النهاية أصبحتُ أتناول طعامي وحدي في غرفتي، ثم تأتي خالتي لتُنظّف ما سقط من بقايا الطعام وتعطيني ملابس جديدة إن كانت ملابسي لم تعد تصلح للارتداء دون غسيل.

لم أكن أستعيد الرؤية إلا حينما أنام، حينها كنتُ أحلم وأرى الأشياء من جديد. كنتُ أرى شقتي وليلى وكتبي وأصدقائي وسمير خليل، لكنّي لم أكن أذكر شيئًا من ذلك حينما أستيقظ. فقط شعور مبهم بأني مررتُ بأحداثٍ ما مع هؤلاء في أحلامي.

بعد عودتي من المستشفى بأسبوعين سمعتُ خالتي تقول لي :

سأخرج مع ابنة جارتنا لنشتري بعض الستائر وعماد سيوصلنا.. ما رأيك أن تأتي معنا لتغيّر الجو ؟.

– لا أود لقاء أحد يا خالتي.. لا أحب أن تراني هذه الجارة وأنا في هذه الحالة !.

هتفت بجزع :

أي حالة ؟ أنتَ لستَ أول ولا آخر من يصاب في حادث.. ما أصابك ليس عيبًا يا بني.. ثم إن هذه الفتاة في غاية اللطف ولن يضايقك منها شيء.. اسمها أمل، وهي طالبة في كليّة الآداب.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها بوجود أمل. ومع إلحاح خالتي وافقتُ. ربما يكون من المفيد لي الخروج من البيت واستنشاق بعض الهواء النّقي.

قال لي عماد :

هل أحضر لك نظارة الشمس السوداء لترتديها أثناء خروجنا ؟.

شعرتُ بالإهانة من كلامه، فقلتُ له بضيق :

أنتَ تريد الالتزام بالصورة النمطية للعميان ! نظارة سوداء ونظرة شاخصة إلى السماء، أليس كذلك ؟! لا يا سيدي الفاضل، أنا لستُ دميتك التي تُلبسها ما تشاء !.

غمغم بحيرة :

لم أقصد ذلك يا خالد، النظارة السوداء تكون أحيانًا إشارة بليغة للناس إلى كونك كفيفًا، بدلاً من أن نضطر في كل لحظة إلى شرح ذلك لهم !.

شعرتُ بالضيق حينما وصفني بالكفيف، لكنّي لم أملك شيئًا أمام منطقه السليم، ومنعني كبريائي من الاعتراف بذلك فصمتّ.

رنّ جرس الباب، وسمعتُ خطوات خالتي تسرع لفتحه، ثم سمعتها تقول مُرحّبة :

مرحبًا يا أمل، تفضلي، تفضلي.

من الغريب أن المرة الأولى التي التقيتُ فيها أمل لم أستطع رؤيتها !.

سمعتُ خطواتها المترددة تتحرك في الصالة مقتربة منا، ثم صوت خالتي يقول:

هذا خالد ابن أختي، سيأتي معنا هو وعماد.

اختلطت عليّ أصوات خطوات خالتي وخطوات أمل، فلم أستطع تمييز مكانها في الصالة، فهمستُ لعماد محاولاً ألا يصل صوتي لها :

أين هي ؟.

أجابني ببساطة :

إنها هناك !.

شعرتُ بالغيظ ووددتُ لو أضرب رأسه في الحائط، لكنّي تمالكتُ نفسي وهمستُ له :

وجّهني تجاهها.

أدارني من كتفي قليلاً باتجاه اليسار، فابتسمتُ وأنا أنظر أمامي، ومددتُ يدي للأمام وأنا أغمغم :

تشرفتُ بلقائك يا آنسة.

ظلّت يدي ممدودة في الفراغ لثانيتين قبل أن تسرع هي بالتقاطها وهي تغمغم بارتباك :

أنا التي.. الشرف لي يا فندم.

قالت لها خالتي :

خالد مؤلف مشهور يا أمل، نُشرت له مؤخرًا مجموعة قصصية في غاية الروعة !.

غمغمت أمل بصوتٍ محايد :

شيء رائع.. أتمنى لو أقرؤها.

– سيسرني أن أهديك نسخة، لكن للأسف لا توجد لديّ نسخٌ هنا، كلها في بيتي الآخر.. سأحضر لك واحدة حينما أذهب إلى هناك.

حاولتُ شحن صوتي بالثقة واللامبالاة كي لا تشعر بأني ضعيف أمام ما أنا فيه.

قادني عماد ممسكًا بمرفقي. كنتُ أشعر بالحرج أن تراني أمل على هذه الصورة، ثم قلتُ لنفسي بلامبالاة : وما المشكلة ؟ هي تعرف أنني أعمى على أية حال !.

كان عماد يجذبني بقوة، ضايقني هذا فنزعتُ ذراعي من يده وهتفتُ به بغيظ:

أنتَ لا تسحبني بل تجرّني ! أنا لستُ حمارًا لتفعل بي هذا !.

أسرع عماد يعتذر :

معذرة يا خالد، لم أنتبه.. سأسحبك برفق.. لو ضايقك أي شيء أخبرني على الفور.

وصلنا إلى درج السلم، فأخذ عماد يسير بي ببطء، وهو يحذّرني :

انتبه، الدرجة الأولى أمامك، سأوجّهك لترفع قدمك عند كل درجة.

هتفتُ به بعصبية :

أين سور السلم ؟ ضع يدي على السور وسأقوم بالباقي.. أنا لستُ أبله !.

وضع يدي على السور فتشبثتُ به بيديّ الاثنين، وأخذتُ أتحسس طريقي مستندًا عليه، هابطًا درجة تلو الأخرى. شعرتُ بعماد يسير بجواري محاولاً تلقفي لو تعثّرتُ وسقطتُ !.

كل هذا كان يحرجني أمام أمل، وتمنيتُ لو تركناها تهبط هي وخالتي أولاً كي لا تراني في هذا الوضع.

حينما وصلنا إلى الشارع عاد عماد يمسك بمعصمي، وهو يقول لي هامسًا:

سأساعدك على الصعود إلى السيّارة، لكن من فضلك كفّ عن الصراخ فيّ وكأنّي طفل صغير لا يجيد عمله !.

فقلتُ له محذّرًا :

ضع يدي فقط على مقدمة السيّارة وسأصعد إليها وحدي، أنا لستُ قادمًا من كوكبٍ آخر يا عماد !.

أمسكتُ بمقدمة السيّارة وتحركتُ حولها وأنا أتحسسها بإحدى يديّ، حتى وصلت يدي إلى مقبض الباب المجاور للسائق، ففتحته ودلفتُ إلى السيّارة محاذرًا أن يصطدم رأسي بسقفها.

هتفت خالتي بانبهار من المقعد الخلفي، الذي كانت تجلس فيه بجوار أمل:

رائع يا خالد، لا أصدق أنك قمت بكل هذا وحدك !.

رددتُ عليها بنفاد صبر :

خالتي ! لم أقم بمعجزة هنا، الأمر بسيط.. أنا لستُ عاجزًا لهذه الدرجة التي تتخيلينها، توقفي من فضلك عن التعامل معي كأنّي طفل أبله !.

صمتت محرجة.

مررنا على كافيتريا في طريقنا إلى محل الستائر، فاقترح عماد أن نجلس فيها قليلاً كنوع من الترفيه عني.

لم أكن مهتمًا بنوع ما سأطلبه بقدر اهتمامي بنظرة أمل لي والفكرة التي ستأخذها عني. طلبتُ عصير برتقال رغم أني لا أحبه.

لم تمض دقائق على جلوسنا حتى فوجئتُ بصوتٍ يهتف :

أمل ! يالها من صدفة سعيدة !.

أسرعت أمل تعرّفنا على سامي ابن عمها، الذي مد يده يصافحنا، وفوجئتُ به يتجاوزني لأنه في الغالب فطن إلى أني أعمى !.

شعرتُ بالألم. حاولتُ أن أمنطق الأمر وقلتُ لنفسي مواسيًا : غالبًا هو لا يريد إحراج نفسه مع شخص كفيف لن يستقبل يده بسهولة إذا مدّها إليه مصافحًا. أو ربما ظنّ أني لا أهتم بأن يصافحني أحد. أو ربما تساءل بغيظ: ما الذي أخرج هذا الأعمى من بيته ؟!.

معاملة خالتي وعماد المبالغة في اللطف أنستني قسوة العالم الخارجي.

جاء الجرسون حاملاً الطلبات، وسمعتُ خالتي تقول لي :

خذ عصيرك يا خالد.

مددتُ يدي تجاه صوتها فلمستُ كوب العصير الذي كانت ترفعه تجاهي. قبضتُ عليه بيدي بحرص كي لا أُسقطه. لم أنتبه إلى أنه ممتلئ عن آخره، وحينما رفعته وأملته تجاه شفتيّ إذا ببعض العصير يندلق على صدري، فانتطرتُ كالملسوع وسقط الكوب من يدي على الأرض متهشمًا.

أخذتُ أعتذر بارتباك، ثم غمغمتُ :

أنا.. أنا آسف.. أنا.. أنا راحل، سأغادر هذا المكان.

ودرتُ حول نفسي متجهًا بارتباك لما حسبته طريق الخروج، فاصطدمتُ بأحد المقاعد وكدتُ أسقط مع الجالس فوقه على الأرض.

أسرع عماد يمسك بي ويسندني، ثم تركني لخالتي وعاد ليدفع الحساب للجرسون.

أخذوني إلى السيّارة، وعدنا دون أن نكمل مشوار الستائر.

حينما وصلنا البيت أسرعت خالتي تنزع عنّي القميص الذي تلوث بالعصير لتنظفه.

رن جرس الباب، فقلتُ لخالتي بضيق :

لا أريد أن أرى هذه الفتاة مرة أخرى، لن أتحمّل لقاءها بعد أن رأتني في هذا الموقف السخيف.

أسرع عماد ليفتح الباب، وسمعتُ صوت خطوات ملهوفة تركض باتجاهي، ففزعتُ في البداية، ثم ازداد فزعي حينما فوجئتُ بجسدٍ ضئيل يهجم عليّ ويضمّني إليه بقوة، وسمعتُ صوت ليلى الباكي يهتف بي :

أنا آسفة، أنا آسفة.. لم أعرف بما حدث سوى صباح اليوم.. اتصلتُ بهاتفك لأرى أين اختفيتَ فردّت عليّ خالتك وأخبرتني بكل شيء.. أنا آسفة يا حبيبي، يجب أن تعود معي إلى البيت الآن !.

ظلّت تبكي طويلاً بجواري. وسمعتُ خطوات خالتي وعماد يبتعدان تاركين إيانا وحدنا. كانت تتكلم بهستيريا :

أنا آسفة، لم أكن أعلم.. ما الذي حدث ؟ لماذا آذيتَ نفسك ؟ أرجوك سامحني.

أدهشني أني شعرتُ بمزيجٍ من الفرحة والغضب في نفس الوقت لأنها أدركت أنها أخطأت في حقي، وأنها السبب فيما حدث لي. هتفتُ بها بحنق :

ما الذي جاء بك يا مدام ليلى ؟ هل عرفتِ أنني صرتُ أعمى لا أرى فجئتِ لتشمتي بي ؟.

هتفت غير مصدقة :

ماذا تقول ؟ أجننتَ ؟.. أنا لستُ...

شعرتُ برغبة شيطانية في أن أجرحها، في أن أجعل الذنب يقتلها.

– هل يسعدك أنتِ وعمّك أنني فقدتُ بصري وأصبحتُ عاجزًا ؟.

– أنا.. أنا، لم.. أنا...

لم أكن أرغب في سماع شيءٍ منها، كنتُ أود فقط أن أتحدّث وأتحدّث وأتحدّث.

– أنتِ من دفع بي إلى هذا المصير، أنتِ تركتِ عمّك يجرحني ويحطمني.. كل ذنبي أنني أحببتك، لكنّك مادية، تريدين فقط أن تعيشي في وضع اجتماعي تتباهين به أمام الآخرين.. كنتِ تعرفين أنني لن أتحمل كلمات عمّك القاسية، ومع ذلك أصررتِ على الطلاق وغادرتِ البيت وتركتِ عمّك يكلمني بتلك الطريقة.. والآن ما رأيك فيما أصابني ؟.. هل أنتِ سعيدة ؟.

كانت تنشج بالبكاء وقد دفنت وجهها في صدري.

– أرجوك.. أرجوك، لا تقسُ عليّ.. لو كنتُ فقط أعلم، لو كنتُ.. لما تركتك لحظة واحدة، أنا لا أريد لك السوء.. أنا لا...

اقتربت خالتي من مجلسنا، وسمعتُها تغمغم متردّدة :

لا تقسُ على زوجتك يا خالد، أنتما ليس لكما أحدٌ سوى بعضكما !.

كفكفت ليلى دموعها وقالت لخالتي :

خالد سيعود معي إلى البيت يا طانط، أنا الأولى بالوقوف بجواره في هذه المحنة.. سنبدأ سويًا صفحة جديدة.

مانعت خالتي قليلاً في البداية، ثم لم تلبث أن لانت أمام إصرار ليلى، بينما شعرتُ أنا بالإنهاك بعد الفجاري، فصمتُّ ولم أبد اعتراضًا.

أوصلنا عماد إلى بيتنا، وتركنا بعد أن وعد بأن يمر علينا من وقتٍ لآخر ليحضر لنا طلبات البيت التي تطلبها ليلى.

استندتُ على كتف ليلى التي قادتني وسط الشقة. سألتُها :

إلى أين تأخذينني ؟.

– إلى غرفة النوم.

– لا.. ضعيني في الصالة أمام التلفاز.. هذا أفضل.

فوجئتُ بها تحضر لي جهاز الكمبيوتر من المكتبة وتتركه بجواري في الصالة.

– حتى لا تشعر بأنك ينقصك شيء !.

فتحت الجهاز وأدارت لي المقاطع الكوميدية التي تعرف أنني أحبها.

- سأكون في المطبخ.. لقد تركناه في حالة مزرية.. لو احتجتَ شيئًا نادني.

أخذتُ أستمع باستمتاع إلى المواقف الكوميدية بين فؤاد المهندس وعبدالمنعم مدبولي في ساعة لقلبك، وحينما كان أحد المقاطع ينتهي كانت ليلى تسرع وحدها من المطبخ دون أن أناديها لتدير لي مقطعًا جديدًا أو أغنية تعرف أنني أحبها. لم أنبهها إلى أن بإمكانها وضع كل المقاطع في قائمة تعمل وحدها بحيث ينتهي مقطع فيبدأ المقطع التالي له تلقائيًا. أردتُ أن تأتي كل بضع دقائق من المطبخ لتعتني بي.

شعرتُ بالامتنان لها، ووجدتُ نفسي قد نسيتُ كل ما وقع بيننا، والحالة التي صرتُ إليها. مددتُ كفي فأمسكتُ بذراعها قبل أن تبتعد وهمستُ لها:

أحبك !.

أحاطت وجهي بكفيّها وقبلت جبهتي وهي تغمغم :

وأنا أيضًا !.. لا تخشَ شيئًا، أنا هنا بجوارك دائمًا !.

لشدّ ما تغيرت !.

أصبحت تتعامل معي بحرصٍ ولطف، وكأنّها تمسك قطعة كريستال تخشى أن تسقط منها فتنكسر.

كنتُ في البداية أطلب منها بحذر أن تُجهّز لي كوبًا من الشاي أو النسكافيه. في الماضي كانت تتأفف وتعترض، وتطلب مني أن أصنع لنفسي ما أريد لأنها مشغولة. كانت تخبرني بحدة أنها ليست خادمة عندي. لكنّها بعد إصابتي أصبحت ترحب كثيرًا بعمل أي شيء لي.

استمتعتُ كثيرًا بأن أطلب شيئًا فأجدها تحضره دون اعتراض، لدرجة أنني أصبحتُ أطلب منها أن تصنع لي أشياء لستُ في حاجة إليها، فقط لأستمتع بطاعتها لي ورغبتها في خدمتي.

كنتُ أعرف أنها تشعر بالذنب تجاهي، وتتصرّف وكأنّها ممثلة تؤدي دورًا دراميًا، وكأنّها عروس النيل التي يجب تقديمها أُضحية للنهر العظيم كي لا يغضب ويرحل، قدرها أن تضحي بنفسها من أجل رخاء شعبها، تعرف أن كل من حولها يدركون ذلك وينظرون لها نظرة إكبار واحترام. لعلها تتخيل قريباتها وزميلات دراستها وهنّ يرمقنها غير مصدقات ولسان حالهنّ يقول : "يالك من إنسانة عظيمة رائعة، لقد حُرمتِ من المال والرخاء الذي نعيش فيه لكنّك تجاوزتينا بتضحيتك العظيمة ووقوفك جوار زوجك الكفيف، أنتِ الأروع والأعظم !".

عزمتُ على استغلالها لأقصى درجة مادامت راضية بدورها، ومادامت هي المسؤولة بشكلٍ غير مباشر عمّا أصابني !.

أصبحت كل مهمتي في الحياة أن أرفع صوتي مناديًا "ليلى، أحضري لي كذا"– "ليلى، اصنعي لي كذا" – "ليلى، خذيني إلى المكان الفلاني".

كنتُ أشعر أحيانًا أنها تتأفف أو تتضايق، لكنّها كانت تكتم ذلك في قلبها كي لا تخرج عن مسار الدور الدرامي الذي رسمته لنفسها.

كانت تحب الرسم، وتلجأ إليه خصوصًا حينما تتوتر وتكون على غير ما يرام. كانت قد برعت فيه في صغرها، وأشاد معلموها بلوحاتها، وفازت في الكليّة بجائزتين أو ثلاث في بعض المسابقات، لكنّها لم تحاول أن تأخذ موهبتها لخطوة أعلى.

بعد زواجنا صارحتني أنها تفكّر في إقامة معرض للوحاتها، فسخّفتُ من الفكرة وصارحتها بأن رسوماتها لا ترقى لدرجة الاحتراف. لكنّي كنتُ أنوي بيني وبين نفسي أن أقيم لها معرضًا بعد أن تنجح كتاباتي وأُصبح مشهورًا. لم أكن أريدها أن تعرض لوحاتها قبل ذلك لأنها لو نجحت فسيُبرز نجاحها فشلي وتأخري !.

وفي تلك الفترة التي كانت تعتني بي فيها أصبحت ترسم بشكلٍ مكثف !.

كنتُ في قرارتي أقدّر الحالة النفسية التي هي في الغالب تمر بها. وضع حياتنا غير المستقر ووضعي الجديد الذي زاد الطين بلّة، لكنّي كنتُ أعتبرها المسؤولة الأولى عما أصابني، ومن حقي أن أطلب تعويضًا !.

ويبدو أن ذهنها تفتق عن فكرة تُشغلني عنها قليلاً لتتفرغ أكثر لرسوماتها. كانت تخرج أحيانًا لتبتاع لنا بعض ما نحتاج إليه، وذات مرة عادت فوضعت بين يديّ سماعة كمبيوتر وميكروفون، وقالت لي بحماس :

فكّرتُ أنه سيسعدك لو استطعتَ الدردشة صوتيًا مع أصدقائك على الإنترنت !.

كانت فكرة لا بأس بها، خصوصًا وأني كنتُ بحاجة بالفعل للحديث مع أحد.

قامت بجميع الإجراءات لي، أوصلت السماعة والميكروفون بالكمبيوتر وتأكّدت من أنهما يعملان، ثم أدخلتني إلى الإنترنت.

– هناك بعض أصدقائك متواجدون أون لاين على الماسنجر.. ماجد وعلاء وعماد ابن خالتك.

طلبتُ منها أن تفتح الدردشة الصوتيّة مع عماد. لم يكن لديه ميكروفون ليتحدّث معي، فأخذتُ أوجّه له الكلام صوتيًّا، ويرد هو عليّ كتابة، وليلى تقرأ لي ما يكتبه.

لكنّي كنتُ بحاجة للحديث مع أشخاص لا أعرفهم لأكون أكثر حرية معهم بعيدًا عن القيود الاجتماعية. بحثت لي ليلى على الإلترنت حتى وجدت غرفة دردشة تتيح الدردشة الصوتيّة، ثم تركتني أتعامل مع المتواجدين.

– مرحبًا، هل يسمعني أحد ؟ اسمي خالد، وأنا لا أرى !.

اصبحتُ أقضي يوميًا ما لا يقل عن عشر ساعات أدردش مع المتواجدين في تلك الغرفة. أستيقظ من النوم فأطلب من ليلى أن تفتح لي صفحة غرفة الدردشة الصوتيّة، وأضع السماعات حول أذنيّ وأقرب الميكروفون من فمي، وأبدأ الحديث مع أصدقائي الجدد.

أغلبهم كانوا يستخدمون أسماءً مستعارة، كانت ليلى في بداية كل مرة تخبرني بأسماء المتواجدين أون لاين، ثم تتركني أتعامل معهم ولا تأتيني سوى من آنٍ لآخر لتحضر لي مشروبًا أو طعامًا.

أغلب الأولاد لم يصدّقوا أني كفيف، وبعضهم تحفظ في التعامل معي. كانوا يظنونني أدّعي ذلك لأكسب تعاطف الفتيات وأقيم علاقاتٍ معهنّ.

أما الفتيات فصدقنني على الفور وتعاملن معي باعتباري قدّيسًا، وأخذن يتصعبن عليّ وعلى حالي.

أسعدني كل هذا الجو فأخذتُ أنسحب من الحياة الحقيقية إلى الحياة الافتراضية شيئًا فشيئًا، لدرجة أنني ذات يوم قضيتُ خمس عشرة ساعة أدردش مع الفتيات وأصف لهنّ معاناتي وصعوبة حياتي.

– طيب ألا يوجد أمل في أن تستعيد بصرك ذات يوم ؟.

– لا أمل على الإطلاق، أنا أعيش في الظلام وسأظلّ كذلك إلى أن أموت.

– يا لها من عيشة صعبة، لا يمكنني تخيل حجم المعاناة التي تعيش فيها.

– ليتني أموت لأتخلص من وضعي كعاجز يعتمد على الآخرين !.

– إياك أن تقول هذا، رزقك الله طول العمر.

وكانت نفسي تمتلئ بالسعادة حينما يتغير صوت الفتاة التي تحدّثني وأشعر أنها على وشك البكاء !.

أما الفتيان فكانوا يهتمون أكثر بسؤالي عن كيفية تعايشي مع وضعي، إما على سبيل الفضول أو محاولة لتصيد أي خطأ يُثبت أني أتظاهر بالعمى.

- هل حواسك الأخرى أصبحت أقوى من المعتاد كما يقولون ؟.

- ليس كما تظنّ.. كل ما في الأمر أنني لم أعد أرى فأصبحتُ أركّز أكثر على سمعي وحاسة اللمس لديّ.. لو أنك أغمضتَ عينيك لعدة ساعات وركزتَ على سمعك ستجد أنه أصبح أقوى.. هو لم يصبح أقوى في الحقيقة، أنتَ فقط لاحظته أكثر من ذي قبل !.

- وهل أصبحت ذاكرتك قوية ؟.

- لم ألحظ أي تطورٍ فيها !.

- وهل تحفظ القرآن كله ؟.

- أحفظ قصار السور التي حفظتها في طفولتي !.

ذات يوم رنّ جرس الباب فتوقعتُ أنه عماد ابن خالتي. كان يمر علينا من آنٍ لآخر ليطمئن عليّ ويسأل ليلى إن كنا بحاجة إلى شيء.

لكنه لم يكن عماد، كان سمير خليل !.

وصلتني رائحة عطره الـ Boss، قبل أن يصلني هو فيحتضنني وهو يهتف بانفعال :

ألف لا بأس عليك يا أعزّ الأصدقاء، المؤمن دائمًا مصاب.

ربتُّ على كتفه بتردّد، وفكّرتُ في أن أتعامل معه ببرود، لكنّي وجدتُ أني سأكون سخيفًا.

– لاحظتُ غيابك طوال الشهر الماضي عن الفيس بوك، وظننتك مبتعدًا بسبب ما حدث في حفل التوقيع.. لكن حينما أخبرتني ليلى بالأمر لم أصدّق، كدتُ والله أبكي.. لكن لا بأس، ستُشفى وتعود كما كنتَ وأفضل بإذن الله !.

ليلى أخبرته ؟! أين ومتى ؟!.

عادت ليلى من المطبخ، وسمعتها تقول له :

تفضل الشاي.

– لو احتجتما أي شيء يا مدام ليلى فلا تتردّدي في إخباري.. خالد أكثر من أخي كما تعرفين.

لم أتجاوب معه في الكلام، وظللتُ جالسًا في مكاني مُربدّ الوجه، وفطن هو فيما يبدو لضيقي، فلمّا فرغت من جعبته كلمات المجاملة نهض قائلاً :

لن أثقل عليك أكثر من هذا يا صديقي.. سأمر بك من آنٍ لآخر لأطمئن عليك. المؤمن دائمًا مصاب، وأنتَ ستشفى بإذن الله.

وعانقني مرة أخرى ثم سمعتُ صوت خطواته تبتعد تتبعه ليلى لتفتح له الباب.

شعرتُ بنار تتلظى في صدري !.

ما الذي بينه وليلى ؟ أنا لا أستطيع أن أرى، لا يمكنني رؤية وجهيهما لأرى إن كان بينهما شيء أم لا.

حينما عادت ليلى سألتُها بحنق :

هل بينك وبين سمير خليل أي اتصال ؟.

– على الإطلاق ! أنا حتى ليس معي رقم هاتفه.. لماذا سأتصل به ؟!.

قلتُ جاذًا على أسناني :

إذن كيف ومتى عرف منك بما أصابني ؟!.

قالت بلهجة محايدة :

لا شيء.. كنتُ قد ذهبتُ أمس إلى مكتبة "المدينة" لأرى إن كانت مجموعتك القصصية مازالت معروضة لديهم أم نفدت النسخ، والتقيته بالصدفة هناك.. طبعًا سألني عنك وعن أحوالك، فأخبرتُه.. تأثّر كثيرًا وصمم على أن يأتي لزيارتك.

– ولماذا لم تخبريني حينها ؟.

– نسيتُ.. لم يكن الأمر مهمًا لأتذكّر إخبارك به !.

صعد الدم إلى رأسي، فصرختُ بها :

لم يكن الأمر مهمًا ؟! أن تلتقي بالرجل الذي كدنا نتطلق بسببه وتتحدّثي معه، والله أعلم ماذا حدث أيضًا، ربما دعاك لتناول شيءٍ ما في الكافيتريا كما حدث في المرة السابقة، وربما أوصلك بسيارته إلى البيت، وتقولين لي أنك لم تتذكّري إخباري ؟!.

هتفت بغضب :

خالد ! أجننت ؟! لم يحدث شيءٌ مما تقول ! قلتُ لك إنني التقيته في المكتبة بالصدفة وهو من بدأني بالكلام، ولم يدم الحديث لأكثر من دقيقة واحدة !.. أرجوك لا داعٍ لتكرار العراك حول سمير خليل مرة أخرى في ظروفنا هذه .

كظمتُ غيظي ولم أردّ عليها. لابدّ أنها الآن تشد نهايات شعرها بعصبية وتلفها حول إصبعها.

دائمًا سمير خليل، في كل مرة سمير خليل. ليته يموت لأرتاح منه، كان المفروض أن يصاب هو لا أنا !.

نهضتُ لأذهب إلى غرفة النوم، حاولت مساعدتي فأزحتُها بغلظة.

– أستطيع الاعتماد على نفسي.

تحسستُ طريقي إلى غرفة النوم، أخذتُ أتلمس الجدار حتى وجدتُ فجوة أدركتُ أنها باب الغرفة.. عبرتُ الفجوة بثقة فإذا بي أصطدم بشيءٍ ما. سقطتُ على الأرض متألمًا.

كان باب غرفة النوم نصف مفتوح، وظننته أنا مفتوحًا. أسرعت ليلى نحوي لتساعدني، فأخذتُ أصرخ بها :

اللعنة ! كيف تتركين أحد الأبواب مواربًا وهناك كفيف في المنزل ؟ أي شخص يملك عقلاً يدرك أنه يجب أن تُترك الأبواب إمّا مفتوحة تمامًا أو مغلقة تمامًا ليتمكن من هو مثلي من التعامل معها !.

أخذت تعتذر، فأزحتُها بعيدًا عنّي وأنا أستند على الأرض لأنهض.

- أنتِ تهملين في واجباتك نحوي ! تتسببين في إصابتي بالعمى ثم تهملين في العناية بي ! امرأة غيرك كانت ستجعل من نفسها خادمة لزوجها طوال العمر، علّها تعوضه عما فعلته به، وهيهات أن تفعل !.

ويبدو أنها بُهتت من كلامي، إذ إنها سألتني بذهول :

ماذا.. ماذا فعلتُ بك ؟!.

أغاظتني سذاجة السؤال، فهتفتُ بها بحنق :

ألا تعرفين ماذا فعلتِ بي ؟ لو لم تتركي البيت وتطلبي الطلاق، لو لم أضطر للذهاب إلى بيتكم ولقاء عمّك الذي جرح شعوري وحاول تحطيمي، لما نزلتُ من بيتكم وأنا لا أرى ما أمامي.. لما ركبتُ مع ذلك السائق الذي اعتدى عليّ فيما بعد وأفقدني بصري !.

سمعتُها تقول بصوتٍ مرتجف :

لا أصدق أنك مازلتَ كما أنتَ لم تتغير.. دائمًا الآخرون هم المسؤولون عمّا أنتَ فيه، لكن أنتَ ؟!.. أنتَ الملاك البريء الذي لا يخطئ ! لماذا وضعنا المعيشي سيء ؟ لأن الحياة لم تمنحك الفرصة لنشر أعمالك ! لماذا حينما نشرتَ أعمالك لم تلق نجاحًا ؟ لأن النقاد أوغاد لا يهتمون بأصحاب المواهب ! لماذا فقدتَ بصرك ؟ لأني أنا طلبتُ الطلاق وعمّي

أهانك !.. لدي سؤال أنتظر إجابته بجنون منذ تزوجتك : ما الشيء الذي أنتَ مسؤولٌ عنه في حياتك مادام الآخرون هم من يفعلون لك وبك كل شيء ؟!.

أفزعني انها خرجت من دور المضحيّة المستكينة وعادت تهاجمني كما في السابق، فهتفتُ بها :

رائع ! ممتاز ! زوجتي التي من المفترض بها أن تقف بجواري حينما فقدتُ بصري إذا بها تهاجمني ! ما رأيك في إحضار عصا المكنسة وإبراحي ضربًا بها؟ لن أستطيع صدّ ضرباتك ولن أستطيع مهاجمتك، هيا افعلي وأخرجي غلك وغضبك لعلّ نفسك تهدأ قليلاً !.

هتفت بلهجة باكية :

مللتُ من أسلوبك هذا ! تحاول إلقاء اللائمة عليّ بأي طريقة ! أنا لم أفكّر أبدًا في ضربك أو إيذائك.. أنتَ من تحوّر الكلام لتضع الخطأ عليّ !.

هتفتُ بها :

بل أنتِ من تحاولين جعلي أنسى موضوع سمير خليل ! سبحان الله، دونًا عن جميع أصدقائي تختارينهُ هو بالذات لتلتقي به صدفة !.

انفجرت في وجهي :

اسمع يا خالد، أنا لا أريد جرح شعورك، لكن يجب أن يخبرك أحدهم بهذا.. منذ عدنا إلى البيت وأنتَ تلقي باللائمة على كل شيء إلا نفسك.. طيب، فلنقل إنك غير ملوم على أي شيء.. ماذا بعد ؟ هل ستظلّ بقية عمرك جالسًا على الأريكة في الصالة تتحدّث مع أصدقائك على الإنترنت؟ أنتَ حتى لم تفكّر في الاستفادة من وضعك هذا، كنتُ أظنّك ستستغل حالتك في الكتابة، ستكتب رواية عظيمة عن شخصٍ أصبح كفيفًا، وتنقل مشاعرك وحالتك إلى الورق.. أضعف الإيمان كان أن تبدأ في الاعتماد على نفسك، لأني لن أدوم لك إلى الأبد وسأموت يومًا ما ! هل فكّرتَ مثلاً في عدّ الخطوات من مجلسك في الصالة إلى الحمّام، كي يمكنك الذهاب إليه وحدك بدلاً من الاعتماد عليّ في كل مرة ؟ هل فكّرتَ في حفظ أماكن برطمانات السكر والشاي والنسكافيه وبراد الشاي ليمكنك أن تصنع لنفسك أي مشروب ترغب فيه حينما لا أكون في المنزل ؟ يخيل إليّ أحيانًا أنك مستمتع بوضعك.. أنك وجدتَ من يخدمك في كل صغيرة وكبيرة، وأن أحدًا لن يلومك على عدم العمل والإنفاق على البيت ! أنا تعبتُ، تعبتُ جدًا !.

وسقطت على الأرض تبكي.

ألجمني كلامها ولم أجد ما أردّ به. اقتربتُ بتردّد من مصدر صوت بكائها، تحسستُ رأسها، ثم أخذتُ أربّتُ على كتفها مواسيًا.

لم أستطع الا أقاطع العجوز قائلاً بتأثر :

لم أتوقع أن تكون ليلى بهذا الوفاء والإخلاص لزوجها.. الأزمات فعلاً تُظهر المعدن الحقيقي للإنسان.. كان يجب أن تكون هذه القصّة قصّتها هي !.

قال لي بهدوء :

هل قرأتَ رواية تاييس لأناتول فرانس ؟ في هذه الرواية كان هناك راهب تقي وعاهرة، بعد لقائهما أصبح التقي فاجرًا وأصبحت العاهرة قدّيسة.. كل إنسان بداخله بذرة الخير وبذرة الشر، أيٌّ منهما قد يظهر وينمو في أي لحظة إذا أراد المرء ذلك، فلا تستغرب أن ترى العظمة فجأة في أي إنسان.

سألته بحيرة :

لكنّ خالد هذا.. لم أجد في موقفه أي بذرة للعظمة، ولا أفهم حتى الآن لماذا تكون قصّته بهذه الأهمية لتحتجزني في هذا المقعد طوال ساعات لتقصها عليّ !.

ردّ عليّ بتؤدة :

لا تستعجل، وتذكّر رواية تاييس، التغيرات الكبرى في حياة الإنسان قد تظهر في أي لحظة.. ربما هي فقط تنتظر مبررًا ما لتظهر.. وبيني وبينك؛ أنا لم أعد أذكر كيف كان موقف ليلى بالضبط.. أعتقد أن ليلى التي تحدّثنا عنها في البداية أصرّت على الطلاق ثم تزوجت من سمير خليل أو جارها القديم أو ابن خالتها.. أعتقد أنها تزوجت من الثلاثة في رواياتٍ مختلفة.. أما ليلى التي جاءت لتقف بجوار خالد في محنته ففي الغالب كانت ليلى أخرى غير الأولى!.

– ماذا تقصد ؟ هل هناك أكثر من ليلى في حياة خالد محفوظ ؟.

– لا لا لا، هناك ليلى واحدة في حياة خالد، لكن يبدو أن الأمور اختلطت عليّ بين ليلى هذه وليلى أخرى !.

– أنتَ تسخر مني بلا شك !.

– أبدًا يا صديقي، أنتَ فقط الذي لا تؤمن سوى باحتمالٍ واحدٍ للحياة.. للحياة ملايين الملايين من الاحتمالات.. نحن فقط من لا نرى سوى احتمالاً واحدًا.. أنا رأيتُ كثيرًا من الاحتمالات، لا أقول معظمها، لذلك تختلط عليّ الذكريات أحيانًا !.

– ماذا تقصد بملايين الاحتمالات ؟.

مطّ شفتيه وغمغم :

الأمر ليس بحاجة لذكاء.. في حياتنا ملايين الاختيارات التي لو تغيّر أحدها فستتغير حياتنا بالكامل.. أنتَ مثلاً، لو لم يلق والدك مصرعه في حادث السيّارة ذاك كيف كان شكل حياتك سيكون ؟ لو أنك لم تدخل كليّة الحاسبات والمعلومات ودخلتَ بدلاً منها كليّة الطب ؟ لو أنك لم تتناول الشهر الماضي سمكًا مشويًا في بيت خالتك وأكلتَ لحمًا بالبصل ؟ لو لم يلتق والداك من الأساس ؟ لو لم يلتق جداك ولم يولد أبوك ؟ لو فكّرتَ قليلاً فستجد أن خط حياتك هو احتمال واحد بين ملايين الاحتمالات المختلفة.. ربما ملايين هو وصف قليل بالنظر إلى الاحتمالات الأخرى التي يصنعها من حولك والتي في الغالب تؤثّر في حياتك.. لو لم ينهزم المغول في عين جالوت؟ لو لم يصل هتلر للحكم في ألمانيا ؟ لو لم يتوصّل آينشتاين للنظرية النسبية ؟ لو لم يكن هناك والت ديزني ؟ لو لم يتم تفجير برجي مركز التجارة العالمي بنيويورك ؟ يمكنني أن أضع مليارات المليارات من هذه الأسئلة على مدار التاريخ المعروف !.

قلتُ له بحيرة :

كل هذه أمور في علم الغيب.. الله وحده من يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون !.

– صحيح، لكن ما أدراك أن هذا "الذي لم يكن" لم يحدث فعلاً في مكانٍ ما؟ من يدري، ربما كل احتمالات الحياة تحدث كلها متزامنة في ذات الوقت ! ربما لحظات حياتنا كلها تحدث متزامنة في ذات الوقت، لكننا لا ندرك ذلك!.

عمومًا دعك من هذا الآن ولنعد لما كنا فيه.. يبدو أن كلام ليلى أثّر في صديقنا خالد، إذ إنه بدأ يتخذ بعض الإجراءات ليثبتَ لها أنه ليس سيئًا كما تظنّ.. ولقد قال لي واصفًا ما حدث :

قررتُ أن أفتح صفحة جديدة مع ليلى، سأثبتُ لها أنني تغيرتُ وأنني شخصٌ جديد يسعى للنجاح.. فكّرتُ طوال الليل في فكرة قصّة قصيرة أعود بها إلى عالم الكتابة، وبدأت خيوطها تتشكل في ذهني.

جلست ليلى بجواري أمام الكمبيوتر، وقلتُ لها بسعادة :

العنوان : "الأميرة والضفدع"

سمعتُ صوت تكتكة أصابعها على لوحة المفاتيح.

- اكتبي :

*"لم تكن أميرةً حقًا، لكنّها كانت تتشبه بالأميرات وتتصرّف كالأميرات وتحب أن يناديها الناس كالأميرات.*

*أغلب ساعات يومها كانت تقضيها أمام المرآة تتأمّل وجهها بافتتان.*

*لم تكن جميلةً جدًا، لكنّها كانت تتشبه بالجميلات وتتصرّف كالجميلات وتحب أن يرمقها الناس كالجميلات.*

*كانت تشرد طويلاً أمام جدّتها وهي تقص عليها قصص الأميرة الجميلة وأميرها المغوار.*

*تتخيل نفسها الأميرة، وتتمثل أمامها الأمير المغوار. أيقنت أنه سيأتيها يومًا ليحملها على الحصان الأبيض إياه.*

*وحينما رأت الضفدع ذات يوم بجوار البركة تذكّرت حكاية الجدة عن الأمير الضفدع.*

*قالت لنفسها : هذا هو أميري المغوار" .*

قاطعتني ليلى ببرود :

توقف قليلاً حتى أكتب ما سبق.. لستُ سريعة في الكتابة على الكمبيوتر كما تعلم !.

كنتُ قد استيقظتُ في الصباح فوجدتُها تتعامل معي ببرود. عرفتُ أنها تجلس في منتصف الصالة أمام حامل اللوحات ترسم كعادتها. حينما كنتُ أطلب منها شيئًا كانت تؤديه لي بلا كلمة، وكأنّها تقوم بواجبها وكفى.

شعرتُ برغبة شديدة في استعادة اهتمامها وعطفها حتى لو قدمتُ تنازلات. يجب أن أجعلها تشعر أنني أفضل مما تظنّ.

بعد تفكير طويل تنحنحتُ في منتصف النهار، وقلتُ لها :

أتعرفين ؟ فكّرتُ في كلامك بخصوص عودتي للكتابة ووجدتُ أنك على حق.. كان يجب عليّ أن أبدأ في الكتابة منذ فترة طويلة.. لديّ الآن قصّة أعتقد أنها جيدة، هل يمكنك مساعدتي في كتابتها ؟.

توقف صوت ضربات فرشاتها على اللوحة وساد الصمت للحظات، ثم سألتني :

أُساعدك كيف ؟.

تذكّرتُ كلمات عماد ابن خالتي لي : "هل تود أن تكتب شيئًا ؟ أملني إياه وسأدوّنه لك !".

– بأن تكتبي القصّة على الكمبيوتر بينما أمليها عليك.

غمغمت بكلمات غير مفهومة وكأنّها تعلن تبرمها. لوهلة خشيتُ أن ترفض فأفقد فرصتي في استعادة عطفها وشعورها بالذنب تجاهي، لكنّها لم تلبث أن نهضت وجلست جواري على الكمبيوتر، فبدأتُ أمليها.

– انتهيتُ من الكتابة.. ماذا بعد "قالت لنفسها : هذا هو أميري المغوار".

– سأتكلم ببطء حتى يمكنك مجاراتي.. اكتبي :

"حملته معها إلى البيت ووضعته في غرفتها وأطعمته. سيتحوّل ذات يوم إلى أمير.

حينما كان ينقنق بفمه كانت تزجره وتقول له غاضبة : لا تتصرّف كالضفادع. أنتَ أمير مسخوط. تصرّف كما يليق بالأمراء.

و كان الضفدع يردّ عليها : لكنّ هذا صوتي.

فتأمره بكبرياء : غيّره. لن يمكنك الزواج بي لو ظللتَ ضفدعًا. الأفضل لك أن تعود أميرًا بأسرع ما يمكن، وإلا سأتزوج غيرك.

أحبّها الضفدع وأخذ يفكّر : كيف بإمكانه التحوّل إلى أمير كي يرضيها ؟.

سأل صديقته السحلية فقالت له : أعرف الأمراء، وأنتَ لستَ مثلهم. ربما عليك أن تكون أطول قليلاً.

أخذ الضفدع يشبّ على قدميه، لعله يصبح أطول ليعجب الأميرة.

لكنّها حينما رأته صرخت به : أنتَ لستَ طويلاً. لن تصبح أبدًا أميرًا !.

وبكت كثيرًا أمام مرآتها الأثيرة.

قالت السحلية : لونك أخضر، والأمراء ليسوا خضرًا. ربما لو غيّرتَ لونك قليلاً.

انتهز فرصة تزيّن الأميرة أمام مرآتها، فقفز في وعاء ألوانها، وخرج لها أحمر اللون.

صرخت الأميرة فزعة : أنتَ مهرج أحمق. لن تصبح أبدًا أميرًا !.

شعر بالإهانة وهرب من البيت.

مرّ به مجموعة من الأطفال الأشقياء. في العادة كان يتجنّبهم ويختبئ بين الحشائش إلى أن يرحلوا، لكنّه في هذه المرة ظهر أمامهم وهتف بهم : لن أصبح أبدًا أميرًا !.

أشار إليه أكبر الصبية وهتف :

انظروا ! ضفدع ينقنق !.

أحاط به الأطفال وأمسكوا به وأخذوا يتقاذفونه فيما بينهم. أحضر أحدهم عوديّ ثقاب وغرسهما فجأة في عينيه، صرخ الضفدع :

عينيّ ! لن أستطيع أن أرى ثانية ولن تعجب الأميرة بي !.

*تركه الأولاد بعد أن ملّوا من اللعب به.*

*لم يستطع العودة إلى البيت، فظلّ في مكانه إلى أن مرّت به صديقته السحلية.. رأت حاله فقالت له :*

*صديقتك الأميرة هي من فعلت بك هذا بإهمالها لك وعدم قبولها لك كما أنتَ ! أنتَ الآن لن ترى ثانية وهي السبب فيما وقع لك !.*

*قال لها بحزن :*

*أنا لست... ".*

قاطعتني ليلى هاتفة بشراسة :

ما هذا الذي تمليه عليّ ؟ أسنعود مرة أخرى إلى ذلك الحديث الغبي عن كوني المسؤولة عما أصابك ؟.

قلتُ لها بتردّد :

أنا لم أقل إنك...

- أنا لستُ غبية ! ولستُ مذنبة في حقك ! أنتَ السبب في كل ما أصابك، وأنا كل ما فعلته أنني تركتك في وقتٍ كان يجب أن أكون فيه

بجوارك.. وقد عدتُ واعتنيتُ بك وقمتُ بواجبي، لكنّك لا تقدّر شيئًا من ذلك !.

أفزعني كلامها. كنتُ أتوقع أنها بعد أن تسمع القصّة ستشعر بالذنب تجاهي من جديد، ولم أتوقع ردّة فعلها العنيفة هذه.

تركتني وغابت في غرفة النوم قليلاً، ثم عادت لتقول لي ببرود :

سأخرج لأتمشّى قليلاً.. هل تريد شيئًا قبل خروجي ؟.

قدّرتُ أنني لو سألتُها إلى أين ستذهب فستنفجر في وجهي مرة أخرى، فقلتُ لها بخجل :

أريدك أن تدخليني إلى غرفة الدردشة الصوتيّة.

فعلت بحركات عصبية، ثم تركتني وغادرت الشقة.

لم يكن هناك في غرفة الدردشة سوى سمر، وهي فتاة من المتعاطفات معي.

قلتُ لها بحزن :

أعتقد أننا سننفصل زوجتي وأنا !.

- لماذا يا خالد ؟ ماذا حدث ؟.

قلتُ لها بألم :

أنتِ تعرفين أن زوجتي هي السبب الأول فيما حدث لي، ربما هي المسؤولة عن فقداني لبصري أكثر من سائق الميكروباص الذي اعتدى عليّ.. طوال عمرها كانت تتعمد إهانتي والتقليل من شأني.. لم تقف بجواري قط، لم تحاول الصبر والتحمّل إلى أن أحقق النجاح الأدبي الذي أصبو إليه. تركت البيت وطلبت الطلاق، وجعلت عمّها يعاملني بقسوة ويشتمني.. يخبرني بأني فاشل وكسول ولن أنجح مهما فعلت.. غادرتُ بيتهم في تلك الليلة المشؤومة وأنا لا أكاد أرى أمامي، وكاد ذلك السائق يقتلني.. وحينما عادت إليّ ظننتُ أنها أدركت خطأها وستحاول التكفير عنه، لكن هيهات ! أخلاقها الشرسة مازالت كما هي حتى وأنا أعمى لا حول لي ولا قوة ! منذ قليل طلبتُ أن تساعدني في كتابة قصّة جديدة لي، فإذا بها تفترض أني أحاول النيل منها من خلال القصّة.. هل رأيتِ بارانويا مثل هذه ؟.

- ربما الأفضل يا خالد أن تنفصلا، وتجد أخرى تقدّرك حق قدرك !.

- لا يا سمر، من ستقبل الزواج بشخصٍ كفيفٍ مثلي ؟ ليلى رغم سوء أخلاقها وحدة طباعها وتكبّرها فهي على الأقل تساعدني في حياتي الجديدة على مضض، ثم إنها...

فوجئتُ بالسماعات يتمّ انتزاعها من فوق رأسي، وصوت ليلى يصرخ بي :

لا فائدة منك، لا فائدة.. أتُحدّث الفتيات على الإنترنت عنّي بهذا الشكل؟! مستحيل، أنتَ لن تتغير أبدًا، ستظلّ وغدًا كما أنتَ !.

أخذتُ أرمق الاتجاه الذي يأتيني منه صوتها مذعورًا. لابدّ أنها عادت لأنها نسيت شيئًا ما، ولم أسمعها بسبب السماعات على أذنيّ واستغراقي في الحديث مع سمر.

- ليلى، سأشرح لك ما حدث.. إنني...

أخذت تصرخ بهستيريا :

تشرح ماذا ؟! أنتَ مريض نفسيًا ! لا فائدة منك، لا فائدة منك، لم تُقدّر صبري على الحياة معك وأنتَ عاطل لا تعمل وتتصور نفسك كاتبًا ذا شأن، بينما أنتَ تافه لا قيمة لك، لم تُقدّر وقوفي بجوارك بعد إصابتك التي تسببتَ فيها لنفسك بعراكك مع سائقي الميكروباصات، وتحاول التعريض بي في قصصك، والآن تُكلّم الغرباء على الإنترنت عنّي بهذا الشكل ؟ أهذه فكرتك عني ؟!.

- لا، ليس الأمر كما تظنّين، أنا فقط أحاول الحصول على تعاطفهم.. الأمر كأنّني أكتب قصّة جديدة أحاول الحصول من خلالها على إعجاب الـ...

- لا فائدة تُرجى منك، لن يمكننا الاستمرار هكذا، أنا لن أستطيع، لن أستطيع !.

وسمعتُ صوتها وهي تركض باتجاه باب الشقة وتغلقه خلفها بعنف.

كما حدث بالأمس، استغلّت بعض أخطائي لتقلب المائدة فوق رأسي وتظهرني في صورة المذنب، بينما هي الملاك البريء الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه !.

مرّت الساعات وأنا أتحدّث مع سمر وريهام وخلود اللتين انضمتا إلينا في المحادثة. أخذتُ أشرح لهنّ ما أعاني منه، كيف تجعل ليلى حياتي أصعب وأصعب.

الغريب أنني مهما تحدّثتُ معهن عن معاناتي، ومهما تلقّيتُ من تعاطفهن معي ونصائحنّ بخصوص إصلاح حياتي وإخراج ليلى المتكبرة منها؛ لم أكن أشعر بأي تعزية، بالعكس كنتُ أشعر بالحزن والتعاسة أكثر.

لم أكن أعرف كم الساعة حينما سمعتُ صوت باب الشقة يُفتح، لقد عادت ليلى.

شممتُ رائحة عطر Boss، فعرفتُ أن سمير خليل معها. لم تكن الرائحة نافذة كعادته، بل كانت خفيفة باهتة، لكنّ أنفي التقطتها.

غمغمتُ بضيق :

هل جاءت بك يا سمير لتصلح بيننا ؟.

سمعتُ ليلى تقول بدهشة وبصوتٍ خُيّل إليّ أنه يرتعش :

سمير ؟! سمير لم يأتِ معي !.

كانت قد اقتربت من مجلسي، وأصبحت رائحة الـ Boss أكثر وضوحًا الآن.

هفتُ بها بارتياع :

لماذا إذن رائحة عطره تنبعث منك ؟!.

– خالد ! أنا...

فجأة شعرتُ بالأعمدة التي تحمل السماء من حولي تنهار دفعة واحدة، غلت رأسي بالغضب، وتمنيتُ لو أموت على الفور. دفعتُ جهاز الكمبيوتر بعنف، وسمعتُ صوته يسقط على الأرض، ووقفتُ أصرخ :

لقد خنتيني معه، أنتِ خنتيني معه ! رائحة عطره تغطي جسدك، أيتها السافلة !.

قاطعتُ العجوز لأسأله بذعر :

هل.. هل خانته ليلى فعلاً ؟.

قلب كفيه وأجابني بحياد :

لا أدري.. خالد نفسه لم يدرِ حقيقة ما حدث.. لكن ليس بالضرورة أنها خانته.. في الغالب هي طلبت لقاء سمير لتفضفض معه.. لابدّ أنهما التقيا صدفة أكثر من مرة في مكتبة المدينة، وربما في إحدى المرات أصرّ على أن تحصل على رقمه لتتصل به إذا احتاجت هي أو خالد أي شيء.. أظنّ أنها في تلك الليلة غادرت المنزل وهي تشعر بالاختناق.. اتّصلت بسمير وطلبت لقاءه، التقيا في إحدى الكافيتريات وأخذت تقصّ على مسامعه كل آلامها وإحباطاتها التي أصابتها بسبب صديقه.. لابدّ أنه كان متعاطفًا معها.. ليس بالضرورة أن يكون قد أقام معها علاقة في تلك الليلة، ربما تكون أجهشت بالبكاء فقام إليها واحتضنها ليهدّئها، فعلق عطره بها.. الشيء الوحيد المؤكد أنهما في تلك الليلة بدأت تنمو بينهما مشاعرٌ أكبر من التعاطف، حسبما دلّت تطورات الأحداث فيما بعد.

- وخالد.. كيف كان وقع الأمر عليه ؟.

- كانت تلك الليلة فارقة في حياة صديقنا خالد.. قال لي واصفًا ما حدث حينها :

كنتُ أشعر بها تقف أمامي صامتة لا تقول شيئًا.. شعرتُ بتوترها وقلقها، لكنّها ظلّت صامتة.. تمنيتُ لو تتكلم فتقول أي شيء !.

هالني أنها لم تنفِ الاتهام حينما وجهتُه لها، لو كانت اتّهمتني بالجنون كعادتها وصرخت بي أنني مخطئ وأن كلامي هذا إهانة لها وأنها ستطلب الطلاق، لهوّن ذلك عليّ بعض الشيء. لكنّها تلقّت اتهامي بصمت.

– لماذا لا تردّين عليّ ؟ ماذا حدث بينك وسمير ؟.

ومددتُ يدي بحنق محاولاً الوصول إلى عنقها، لكنّها ابتعدت عني، وأسرعت إلى غرفة النوم فأغلقتها عليها.

تحسستُ طريقي إلى أن وصلتُ إلى باب غرفة النوم، فوقفتُ أمامه أصرخ :

أنتِ انتهزتِ العراك بيننا لتذهبي إليه ليواسيك.. اعتبرتِ أن ما بيننا انتهى وأنه لا مشكلة في أن تتمادي مع سمير، وربما اتفقتما على الزواج بعد انتهاء إجراءات الطلاق بيننا.. أليس كذلك ؟! أليس هذا ما حدث أيتها الحقيرة الخائنة ؟!.

ثم أخذتُ أحاول فتح الباب عنوة، ولما لم أستطع شعرتُ بالعجز والذّل. انفجرتُ في البكاء رغمًا عني، وأخذتُ أضرب الباب بقبضتيّ وأنا أهتف متوسلاً :

طيّب أخبريني فقط.. هل احتضنك فقط فعلقت رائحته بملابسك أم وقع ما هو أكثر ؟ هل خنتيني يا ليلى ؟ هل خنتيني ؟!.

حاولتُ العودة إلى الصالة فتعثّرتُ وسقطتُ على الأرض، ولم أجد من يساعدني على النهوض فجلستُ في مكاني أبكي.

بعد قليل سمعتُ باب الغرفة يُفتح وصوتُ ليلى يقول :

كلّ ما بيننا انتهى يا خالد، سيتصل عمّي بابن خالتك للاتفاق على إجراءات الطلاق.. أتمنى أن يتمّ كل شيء بهدوء وإلا سأضطر للجوء إلى المحكمة.

أخذتُ أصرخ وسط دموعي :

لماذا يا ليلى ؟ لماذا تتخلين عنّي وأنا في هذا الوضع ؟.

ردّت ببرود :

نحن لم نعد نصلح لبعضنا.. أعتقد أن خالتك ستعتني بك أفضل مني، وسيمكنها التعامل مع نفسيتك الغريبة تلك !.

– ولكن.. أنا لا أُصدّق ما أنا فيه.. لماذا حياتي تحوّلت إلى مسلسل درامي سخيف تنهال فيه المصائب تلو المصائب على رأسي ؟ لقد فقدتُ كل شيء.. كل شيء.. ومع ذلك مازالت السماء مستمرة في توجيه الضربات تلو الضربات إلى رأسي.. أنا لا أريد أن...

هتفت ليلى بغيظ :

أتعتقد حقًا أنك بطل من أبطال الإغريق الذين تضطهدهم الآلهة طوال الوقت ؟ استيقظ يا خالد مما أنتَ فيه، الحياة لا تضطهدك لثأرٍ بينك وبينها!.

وأسرعت مبتعدة وكأنّها تفرّ من المجذوم، وسمعتُ صوت باب الشقة يُغلق خلفها.

ظللتُ جالسًا على الأرض لا أبدي حراكًا. تمنيتُ لو أن بإمكاني البقاء هكذا إلى الأبد.

تمنيتُ لو أمحو نصف الساعة الأخيرة من ذاكرتي إلى الأبد، أن أمحو ليلى نفسها، ليتني ما عرفتها، ليتني ما عرفتُ أي فتاة، كيف يمكن للمرء أن يسلّم مشاعره لأي فتاة وهي في الغالب ستخونه في النهاية ؟.

هناك مرارة تملأ صدري، أشعر بعلقم يبدأ من بداية حلقي وينتهي عند نهاية صدري. بدأت يداي ترتعشان. ملأتني فجأة رغبة عارمة في الانتقام، نفس الرغبة التي انتابتني وأنا أهبط درجات سلّم منزل أهل ليلى. يجب أن أنتقم من نفسي ومنهم. سأجعل ليلى تندم على ما فعلته، كلّ من يعرفني سيندم على أنه لم يهتمّ بي بما فيه الكفاية، على أنه خانني، على أنه لم يضع مشاعري قبل أي شيء آخر في حياته.

نهضتُ من على الأرض. تحسستُ طريقي إلى المكتبة. تعثّرتُ أولاً بطاولة الصالون، ثم اصطدمتُ بالتلفاز ثم بالجدار. سقطتُ مرة أو مرتين، لكنّي كنتُ مصمّمًا على الوصول إلى المكتبة. تحسستُ الكتب بلهفة حتى لمس كفي المجلد الأول، أعرفه جيدًا، لا يوجد في المكتبة كتاب في نفس الحجم والسمك سواه. هو وإخوته الأربعة الآخرون. التقطتُ المجلد الأول ووضعته فوق يدي، ثم وضعتُ بقية المجلدات فوقه. رواية البؤساء لفيكتور هوجو. حملتهم وأخذتُ أمشي بحذر وحرص كي لا أصطدم بشيء. اصطدمتُ ركبتي بالمنضدة الموضوعة في منتصف الصالة، فوضعتُ الكتب فوقها، في المنتصف تمامًا، فوق بعضها. تركتُ الطاولة وسرتُ بحذر بمحاذاتها إلى أن اصطدمت قدمي بشاشة الكمبيوتر الملقاة على الأرض. جثوتُ على قدميّ وبحثتُ بيديّ حتى لمستُ الـ Case. انتزعتُ كابل الكهرباء الغليظ وحررتُ طرفيه من خلفية الكمبيوتر ومشترك الكهرباء. حملته معي وعدتُ إلى المجلدات المصفوفة فوق المنضدة. صعدتُ فوقها

بحرص ثم اعتليتُ المجلدات وشببتُ على قدميّ ورفعتُ طرف الكابل لأعلى بحذر، فاصطدمت يدي بالنجفة التي أعرف أنها هناك في الأعلى. ربطتُ طرف الكابل حول النجفة جيدًا، ثم شددتُه لأتأكد من ثباتها. أحطتُ طرفه الآخر حول عنقي وربطتُه جيدًا. الكابل قصير الآن ولو أزحتُ الكتب التي تحت قدميّ فسيتدلى جسدي في الفراغ !.

سيندم الجميع، سيكون انتقامي منهم شنيعًا. ستشعر ليلى بالذنب لبقية عمرها !.

لن أتردّد، لو تردّدتُ سأتراجع. لم يعد هناك ما يستحق العيش من أجله، النور انطفأ من حياتي، وليلى خانتني، وكتابي فشل، وسمير خليل نجح في كل ما فشلتُ فيه، حتى في الحصول على قلب زوجتي وجسدها !.

قفزة واحدة في المجهول وينتهي كل شيء، لا تردّد بعد الآن. ركلتُ المجلدات تحتي بقدمي فطارت ووجدتُ جسدي يهوي في الفراغ، أحاط الكابل بعنقي أكثر فشعرتُ بالاختناق، وتحركت النجفة بعنف وكأنّها ستسقط.

شعرتُ بالذعر، وحاولتُ رفع يديّ لأنتزع الكابل من حول رقبتي، لكنّ يديّ لم تستجيبا.

فجأة رأيتُ ليلى أمامي، كانت ترمقني باحتقار، وغمغمت باستهزاء :

لن أشفق عليك أبدًا بعد الآن !.

وظهر سمير من الفراغ فرمقني باشمئزاز وغمغم كأنّه يبصق علي :

فاشل !.

وأحاط كتفها بذراعه وابتعدا، ثم ظهر العملاق.

عملاق أصلع بلحية حمراء والبثور تملأ وجهه، وفي يده مطرقة ضخمة.

– من أنتَ ؟ ماذا تريد مني ؟.

رمقني هازئًا وقال بصوتٍ غليظ :

أنتَ استدعيتني !.

هتفتُ بذعر :

لكن.. أنا لا أريد أن أموت !.

– قُضي الأمر !.

اقترب مني بثقة ثم رفع مطرقته وهوى بها بعنف على رأسي، فاستيقظتُ وأنا أصرخ وأرتعد والألم يكتنفني والظلام اللا نهائي يحيط بي.

حاولتُ رفع ذراعي فلم أستطع. هناك بلل في جانب رأسي، ورعدة تسري بانتظام في جسدي فيرتجف للحظة ثم يهمد للحظة، فطنتُ بعد وهلة أنها تيار كهربي ضعيف. لم يكن قويًا لدرجة قتلي، لكنّه كان كافيًا لإصابتي بألم لا يطاق !.

أنا من فعلتُ هذا بنفسي، أنا من قدتُ نفسي في كل هذه الدروب. أخذتُ أبكي في صمت وأنا عاجز عن تحريك ذراعي لأزيل الكابل الذي يحيط بعنقي. لابدّ أن النجفة لم تحتمل ثقلي فسقطت بي واصطدمت بجانب رأسي بقوة أثناء سقوطنا فوق المنضدة.

شعرتُ بالعجز، إلى متى سأظلّ هكذا ؟ ساعدني يا رب، أعِنّي على تجاوز هذا الألم الحارق، أنقذني، لا تتركني أموت هكذا. لا أريد أن تشعر ليلى بالذنب، لا أريد أن أنتقم من أي أحد، فقط أنقذني، أزل عني هذا الألم.

ظللتُ أبتهل إلى الله بصمت، ولم أدر كم مرّ عليّ من الوقت، لكنّي سمعتُ صوت باب الشقة يُفتح، حاولتُ أن أصرخ لأنبّه القادم لكنّ صوتي كان ضعيفًا. سمعتُ خطوات تركض تجاهي وصوت عماد يهتف بذعر :

ماذا حدث يا خالد ؟!.

غمغمتُ بصوتٍ متحشرج :

الكهربااااااااااء...

ويبدو أنه فطن إلى الأمر حينما انتبه إلى رجفة جسدي، إذ إنه أسرع مبتعدًا، وعرفتُ فيما بعد أنه ركض إلى تابلوه الكهرباء ففصل التيار، ثم عاد إليّ فخلّصني من الكابل حول رقبتي وحملني بصعوبة فوضعني فوق الأريكة. أسرع يعيد التيار مرة أخرى ثم عاد إليّ يفحصني، وهتف :

يا إلهي، أنتَ تنزف !.

كان جسدي متورمًا من شدة الألم، لكنّي أخذتُ أهتف بلا وعي :

الحمدلله، الحمدلله، أنا بخير، الحمدلله.

شعرتُ بعماد يضع قطعة قماش على رأسي، عرفتُ فيما بعد أنها كانت أحد قمصاني، ثم أسندني وأخذني إلى سيارته بالأسفل :

يجب أن نذهب بك إلى المستشفى ليفحصوك !.

عرفتُ منه أن ليلى اتصلت به وطلبت منه أن يحضر لأخذي إلى بيت خالتي. كنتُ قد منحتُ خالتي نسخة من مفتاح الشقة قبيل زواجي من أجل حالات الطوارئ. جاء فوجدني ممدّدًا فوق منضدة الصالون وبجواري النجفة محطمة وكابل الكهرباء يحيط بعنقي، وبعض أسلاك النجفة الممزقة

– التي كانت أسلاكها لا تزال متصلة بمصدر الكهرباء في السقف – تلامس عنقي. كان جسدي يرتجف بشكل لا إرادي والدماء تنزف من جرح رأسي.

في المستشفى ضمدوا لي جرح رأسي وأعطوني بعض المحاليل والأدوية، لم يخبرهم عماد سوى أنني سقطتُ على رأسي، وهم حينما وجدوني كفيفًا لم يسألوا كثيرًا من الأسئلة. كنتُ أعرف أن عماد فطن إلى ما كنتُ أحاول فعله، لكنّه لم يتطرق إلى الأمر، وشعرتُ بالامتنان له على ذلك.

انتابتني حالة غير مفهومة من الاستسلام واللامبالاة، لم يعد لديّ شيء لأخسره، فشلتُ في الكتابة، لا عمل لديّ، صرتُ لا أرى، زوجتي خانتني ثم تركتني، اقتربتُ من الموت ولم أمت. كل هذا جعلني أشعر أنني خفيف الوزن، حر، ليس لديّ ما أقلق تجاهه. وبدهشة بالغة أخذتُ أرقب حالة السكينة التي غزتني رويدًا رويدًا.

كنتُ أرقد في سريري في غرفة الضيوف ببيت خالتي، أرمق الظلام حولي في جميع الاتجاهات، شاعرًا أن العالم لم يعد مشكلتي بعد الآن، ليس هناك شيء بحاجة للقلق من أجله، ليس هناك شيء أنتظر وقوعه. لم أشعر من قبل بسلامٍ نفسي كالذي شعرتُ به في تلك الفترة.

هل يكمن السر في التسليم ؟ عدم انتظار أي شيء ؟ الوصول إلى قمة المعاناة بحيث لا يصبح هناك ألم أكثر ؟.

حينما أفكّر في تلك اللحظات أجد أن ما فعلته حقًا وقتها كان تقبّل ما أنا فيه. التوقف عن الرغبة، التوقف عن المقاومة، الاستكانة لتيّار الحياة.

استسلمتُ لفكرة أنني مسؤول عما أصابني، أن ما حدث قد حدث وعليّ فقط التعايش معه.

بدأتُ أفكّر في العودة للكتابة من جديد، لن أخسر شيئًا من المحاولة. كانت خالتي وعماد يحيطانني برعايتهما ولا يتركانني وحيدًا أبدًا، شعرتُ أنهما يخشيان أن أكرر محاولة الانتحار. لابدّ أن عماد أخبر خالتي بالحالة التي وجدني عليها، لكنّهما لم يحاولا التطرق إلى ما حدث.

سألتُ عماد ذات مرة :

هل بإمكانك مساعدتي في الكتابة على الكمبيوتر ؟.

رحب كثيرًا بمساعدتي في أي شيء. أجلسني بجواره، وبدأ يكتب ما أمليه عليه :

العنوان : عدم

*"كان يذرع غرفته جيئةً وذهابًا شارد الذهن.*

*لفظه الضجر إلى الشرفة.*

*رمق الشمس البازغة باستهجان، لوى شفتيه بامتعاض حينما اقتحمت أذنيه نداءات الباعة الجائلين.*

تمنّى فعل شيءٍ مجنون وغير مسبوق، يكسر رتابة الملل ويتجاوز حدود الكآبة.

تسلق حاجز الشرفة، جلس على السور في استهتار، وأدلى قدميه في الفراغ، متحديًا الكون المتثائب.

أغمض عينيه لتزداد الإثارة ويتحرك ركود الأحاسيس.

لفحه تيارٌ باردٌ فدارت رأسه، ونزل عليه خِدرٌ فمال للأمام بحدة.

ثوانٍ ثم لم يتبق سوى الألم الذي يلي الارتطام.

ظلام.. صمت.. هدووووووووووووووووووووووووء.. وألم حارق في الرأس.

فتح عينيه ببطء، لكنّ اللون الداكن لم يتغير.

لم يسمع سوى صوت أنفاسه من الداخل، على خلفية سوداء من الصمت.

أدرك أنه ليس نائمًا.. النور مطفأ والكون ساكن، وشعورٌ مبهمٌ بحركةٍ صامتةٍ حوله.

تكلّم فاحس بخروج الصوت من حنجرته، لكنّه لم يسمعه.

حاول النهوض فتعثّر وسقط.. امتدّت أيدٍ كثيرة تساعده، فأزاحها مضطربًا.

وقف على قدميه واندفع إلى الأمام مادًّا ذراعيه.. لم يبالِ بالأشياء والأجسام في طريقه.. اصطدم بالجدار، فتوقف وتحسسه بلهفة حتى وصل إلى زر الإضاءة.. ضغطه كثيرًا، فلم يتغير شيء.

مدّ يديه إلى عينيه فوجدهما مفتوحتين مبللتين.. صرخ مذعورًا فلم يسمع سوى أزيز صوته.

تحرك باضطرابٍ وعنف، كاد يسقط، فتلقفته الأيدي تسنده.

وجد لوحًا يُدس في يده.. حروف بارزة.. حرف الحاء.. تحسس ما بعده.. ألف.. دال.. ثاء.

اهتزت شفتاه مجمّعةً الحروف، بينما أصابعه تتحسسها بلهفة إلى نهاية السطر.

لم يصدّق.

تملّص من أيديهم وأسرع تجاه الجدار من جديد.. تعثّر وسقط أرضًا.. مدّ يديه المتشنجتين حتى لمستا الجدار.. استند عليه واقفًا وهو يرتجف.. انطلقت يده نحو مكان زر الإضاءة.. ضغطه مرارًا وتكرارًا وهو يلهث.

يجب أن يُضاء النور الآن.. يجب أن يرى ما حوله.

ولما لم يحدث شيء، اجتاحه ذعرٌ عاتٍ، وشعر بالضياع فأجهش في البكاء، وازداد جزعه حينما لم يسمع سوى أزيز بكائه، فأخذ بجنونٍ يضرب رأسه في الجدار ، وهو يصرخ بلا صوت.

امتدّت الأيدي تمنعه، تحتضنه وتربتُ على شعره وظهره.. تبلل وجهه وكتفاه بقطراتٍ متساقطة منهم.

أخبروه عبر لوح الحروف أن كل شيء سيكون على ما يرام.. هناك أمل.

الظلام لعينٌ جدًا.. مخيفٌ جدًا.. والصمت باردٌ قاسٍ.

سحبوه فاستسلم لهم.

لفحه هواءٌ بارد، فأدرك أنه في الشرفة.

لم يسمع ضجيج الشارع المعهود.

ملأ رئتيه بالهواء البارد، وشعر بأشعة الشمس على جلده، ففرد ذراعيه مُرَحِّبًا بلهفةٍ وشوق".

شعرتُ برنة السعادة في صوت عماد وهو يهتف بعد أن كتب الكلمات الأخيرة :

قصّة رائعة !.

هززتُ رأسي مبتسمًا :

سعيدٌ أنها أعجبتك !.

لم أصارحه أنني أعددتُها خصيصًا لتكون رسالة تطمين له ولخالتي بأنني أصبحتُ على ما يرام ولم تعد هناك حاجة ليقلقا بخصوص تصرّفاتي القادمة.. لم أكن قد انتهيتُ منها بعد، كنت أنوي استكمالها لاحقًا، لكنّي أردّتُ أن اسمعه هذا الجزء ليدرك أنني وصلتُ لمرحلة الرضى والتقبّل.

طلبتُ منه بعدها أن يساعدني في التعرّف على أماكن الحروف على الكيبورد، كنتُ أضع كفيّ عليها وأسأله عن الحرف الذي أسفل خنصري أو بنصري أو سبابتي أو وسطاي أو إبهامي، أكدّ لي في البداية أنني لستُ في حاجة لذلك لأنني سيمكنني دائمًا أن أُملي عليه ما أود كتابته، فرددتُ عليه مبتسمًا :

وماذا لو لم تكن موجودًا وأتاني الوحي ؟.

وأكملتُ ضاحكًا :

أو ماذا لو أردتُ كتابة رسالة غرامية لا أريدك أن تراها ؟.

وبمساعدته بدأتُ أحفظ أماكن الحروف دون أن أراها، مرتكزًا على حرفيّ التاء والباء في المنتصف، واللذين تعمّد صانعو الكيبورد أن يتركوا أجزاءً بارزةً فيهما كي يتمكن المكفوفون أمثالي من اتخاذهما نقطة ارتكاز عند الكتابة. أخذتُ بعدها في الكتابة بنفسي حتى في الأوقات التي لا يكون فيها عماد في البيت. كنتُ أنوي تحويل قصّة "عدم" إلى رواية، مستفيدًا فيها بخبرتي كما اقترحت عليّ ليلى من قبل.

كنتُ أنتظر كل يوم عودة عماد بلهفة ليقرأ ما كتبتُه ويراجعه لي. في الأيام الأولى كان يضطر لتصحيح أغلب الكلمات، بل في بعض الأحيان كان لا يستطيع قراءة الكثير من الكلمات بسبب استخدامي لحروفٍ خاطئة. لكن مع الوقت أصبحتُ أخطائي تقل وإحساسي بمواضع الأزرار على الكيبورد يزداد.

ثم خطرت في بالي فكرة. طلبتُ من عماد أن يساعدني في البحث على الإنترنت عن برنامج صوتي يقرأ بصوتٍ مرتفع الحروف التي يقف فوقها مؤشر الماوس. وجد لي عدة برامج، وحاولنا تجريبها سويًا، واستقريتُ على استخدام برنامج يدعى **Free letter sound**، كان بإمكانه التعرّف

على الحروف العربية ونطقها بلكنة لا بأس بها. ومع استخدام هذا البرنامج الرائع انتقلتُ لمرحلة جديدة تمامًا في تعاملي مع الكمبيوتر. كنتُ أكتب ما شئت، ثم أمرّ بمؤشر الماوس ببطء فوق السطور فيقرأ البرنامج بصوتٍ واضح ما كتبت، فأقوم بتعديل ما يحتاج لتعديل. بل إنه ساعدني في استخدام الكمبيوتر دون مساعدة، أقف في أي مكان، فوق أي فولدر أو فايل، فينطق البرنامج اسم ما وقفتُ عليه وأعرف أين أنا. أصبحتُ منذ ذلك الحين أستخدم الكمبيوتر وأتصفح الإلترنت وحدي بأقل مساعدة ممكنة من عماد.

ازدادت رغبتي في الاعتماد على نفسي، فعملتُ بنصيحة ليلى وبدأتُ أعدّ خطواتي داخل البيت وأحفظ في ذاكرتي مكان كل شيء. المسافة من مجلسي في الصالة أمام الكمبيوتر إلى الحمّام هي سبع خطوات، وإلى المطبخ ثمانية، وإلى باب الشقة أربع خطوات جهة اليسار، بينما ثلاث خطوات جهة اليمين ستقودني إلى طاولة الطعام. داخل المطبخ خطوة واحدة إلى اليسار وأصير أمام الرفّ الذي يوجد عليه السكر والشاي والنسكافيه والقهوة واليانسون بالترتيب. الموقد خلفي تمامًا، وعلبة الكبريت فوق برطمان الشاي.

طلبتُ من خالتي أن تحافظ على كل شيءٍ في مكانٍ معين كي يمكنني استخدامه حين أشاء؛ برطمانات المشروبات وعلبة الكبريت في المطبخ،

والصابون ومعجون وفرشاة الأسنان في الحمّام، والهاتف والريموت كنترول الخاص بالتلفاز في حجرة الجلوس.

اكتشفتُ عدة مواقع على الإنترنت تتيح تقديم مواد سمعية مختلفة، محاضرات وندوات وكتب صوتيّة يتلوها هواة تطوعوا لتسجيل قراءات لأهم الكتب من أجل المكفوفين أمثالي أو لمن لا يجدون وقتًا للقراءة؛ فقضيتُ وقتًا ممتعًا في تحميل هذه المواد على الكمبيوتر، ثم وضعها على جهاز الإم بي ثري الخاص بعماد لأستمع إليها ليلاً قبل النوم، بدلاً من إجهاد عماد في القراءة لي.

مانعت خالتي في البداية اتجاهي للاعتماد على نفسي، كانت تظنّ أني أفعل ذلك رغبة في الانطواء أكثر والابتعاد عن التعامل مع الناس.

– لماذا تُجهد نفسك ؟ أنا وعماد متواجدان دائمًا لخدمتك !.

لكنّها لم تلبث أن اطمأنت حينما لمست في سلوكي شيئًا من المرح والنشاط، تمامًا كما اطمأن عماد بعد أن كتب لي قصّة "عدم" وفهم الرسالة وراءها.

كانا يتعاملان معي في البداية بشيء من الحساسية، ربما بسبب عصبيتي السابقة في التعامل معهما فيما يخص تذكيري بمرضي. كانا يرتبكان حينما يأتي في وسط حديثهما بالصدفة كلمات على غرار "انظر – هل رأيتَ –

من وجهة نظرك"، ولكي أطمئنهما كنتُ أُظهر أني لاحظتُ ارتباكهما وأضحك بمرح :

أكملي يا خالتي، كنتِ تقولين "انظر".. أنا أنظر إليك الآن بقلبي، أكملي.

ولكي أُسهّل الأمور على خالتي اتفقتُ معها على نظام معين بالنسبة للاتجاهات :

إذا أردتِ الإشارة لي إلى مكانٍ ما أو توجيهي إلى جهة معينة فاستخدمي الساعات. تصوّري أنني في منتصف ساعة حائط، والجهة التي تودين توجيهي إليها هي عقرب الساعات.. الساعة الثالثة تعني جهة اليمين، التاسعة هي اليسار، الثانية عشرة هي الأمام، والسادسة هي الخلف.. هذا سيتيح لنا اثنتي عشرة جهة في مختلف الزوايا، بعكس لو استخدمنا الاتجاهات الأصلية فقط.

تفاعل معي عماد جيدًا في هذا الأمر، لكنّ خالتي ظلّت ترتبك وتتوقف لتفكّر كلما همّت بتوجيهي إلى جهة ما، فاقترحتُ عليها :

فلنستخدم الجهات الأصلية : شمال – جنوب – شرق – غرب، والفرعية : شمال شرقي، شمال غربي، جنوب شرقي، جنوب غربي.. هذا يتيح لنا ثمانِ اتجاهات، وهو عدد لا بأس به !.

واستغللتُ قدرتي في التعامل مع الإنترنت بمساعدة البرنامج الصوتي فأخذتُ أبحث في مواقع التوظيف عن وظائف للكتابة على الكمبيوتر من البيت. قدمتُ في كثيرٍ منها، وردّ عليّ بعضهم. وفوجئ عماد بي أطلب منه ذات يوم أن يذهب إلى مكاتب الطباعة والتصوير التي أمام كليّة التجارة في جامعة القاهرة، وأعطيتُه اسم المكتب الذي سيذهب إليه ليحضر لي رزمة الأوراق التي سأكتبها.

كانت رسالة ماجستير، قضيتُ أسبوعًا لأُنهي كتابتها. كانت خالتي تمليني نهارًا وعماد ليلاً، بينما أنا أكتب بسرعة على الكمبيوتر، ثم أراجع ما كتبته باستخدام البرنامج الصوتي وأصلّح أخطائي.

المبلغ الذي حصلتُ عليه من مكتب الكمبيوتر أصررتُ أن تحصل خالتي وعماد على نصفه لأنهما ساعداني في الكتابة، لكنّهما رفضا تمامًا.

أعطيتُ جزءًا من المبلغ لعماد وطلبتُ منه أن يشتري لي عصا المكفوفين من إحدى شركات الأدوات الطبية. كنتُ قد بحثتُ على الإنترنت بمساعدة البرنامج الصوتي ووجدتُ واحدة في المهندسين توفّر مثل تلك العصيّ. بيضاء اللون، متوسطة الطول، يمكن للكفيف أن يختبر بها الطريق أمامه كي لا يصطدم بشيء، ويمكن تطويلها وتقصيرها حسب الحاجة.

كان عماد متضايقًا لأني أريد شراء العصا بنقودي الخاصة.

– لماذا تضع فرقًا بيني وبينك ؟ لماذا انتظرتَ حتى الآن ولم تطلب منّي من البداية أن أشتريها لك ؟.

– أعلم أنه لا فرق بيني وبينك، لكن أن أشتريها من حرّ مالي يحمل لي معنىً مهمًا.. ثم إنني.. ثم إنني لم أفكّر قبل الآن في الحصول على أدوات تساعدني!.

أصبحت حركتي في البيت بعدها أكثر سهولة ويسرًا. لم أعد أمشي ببطء وحذر خوفًا من أن يكون هناك شيءٌ في طريقي نسيه عماد أو خالتي، فاردًا ذراعيّ أمامي وكأنّي أمشي أثناء نومي. أصبح طرف العصا المصنوع من البلاستيك هو رسولي الذي يسبقني بنصف متر ويتأكد من أن الطريق ممهدٌ أمامي.

وازداد التعامل بيني وبين مكاتب الكمبيوتر، وكثُرت الرسائل والمستندات التي أكتبها، وأصبح ذلك يدرّ عليّ دخلاً لا بأس به، وعرضتُ على خالتي أن أشارك في مصروف البيت بمبلغٍ رمزي، لكنّها رفضت بإصرار وخاصمتني فترة لأني فكّرتُ في ذلك.

– لو عرف عماد سيغضب كثيرًا.. إياك أن تفكّر مرة أخرى في مثل هذا الأمر.

أصبح يومي شديد الدقة : أستيقظ من النوم فأتجه إلى الحمام عادًّا الخطوات الثلاثة بين غرفتي والحمام، مستكشفًا طريقي بعصاي. أغسل وجهي وأسناني وأتوضأ، ثم أخرج لأصلّي الصبح. كنتُ سعيدًا لأني عدتُ للانتظام في الصلاة، منحني هذا شعورًا كبيرًا بالانتعاش والراحة النفسية. تقوم خالتي بعدها بإعداد الإفطار لنا، وأتناوله مع عماد قبل أن ينزل ليذهب إلى العمل، ثم أجلس أمام الكمبيوتر لأكتب الرسائل العلمية التي عليّ كتابتها بينما خالتي تجلس بجواري تمليني إياها.

بعد فترة نأخذ استراحة، فتقوم خالتي لتبدأ في تجهيز طعام الغداء، أو تنزل لشراء بعض الأشياء، بينما أتصفح أنا بريدي الإليكتروني والمواقع الإخبارية قبل أن أبدأ في كتابة أجزاء جديدة من روايتي.

يعود عماد من العمل فنتناول الغداء، ثم يجلس بجواري ليملي عليّ بدوره ما عليّ كتابته، ثم يأتي الليل الذي أقضيه إما مستمعًا للتلفاز بجوار عماد أو مستمعًا للمواد السمعية التي وضعتها على جهاز الإم بي ثري.

ذات يوم شعرتُ بعماد يجلس بجواري صامتًا ويبدأ في التنحنح كأنّه متردّد في قول شيءٍ ما.

– ماذا هناك يا عماد ؟.

ردّ عليّ بحرج لمسته في حروف كلماته :

الحقيقة أن.. عمّ ليلى اتصل بي.. مازالت تُصرّ على الطلاق، وهو يرغب في أن يحضر بالمأذون إلى هنا ليتمّ الأمر في هدوء !.

حاولتُ السيطرة على نبرات صوتي وأنا أقول بمرحٍ مصطنع :

الرجل يستحق الشكر على كل حال لعرضه القدوم بنفسه إلى هنا احترامًا لمرضي !.

أخبرني عماد أن الرجل عرض عليه أن تتنازل ليلى عن مبلغ المؤخر والنفقة وتحصل فقط على ما يخصّها في الشقة من أثاثٍ ومتعلقات، مقابل أن يتمّ الطلاق بلا متاعب.

– فلتأخذ ما تريده.. لا أريد أي شيءٍ يذكّرني بها !.

بذلتُ جهدًا لا بأس به في السيطرة على نفسي حينما جاء عمّ ليلى ومعه المأذون. ساعدني على ذلك أنني لستُ مضطرًا للنظر في عين أحد ولا تصنع أي مجاملة. تمّ الأمر في صمت مع بعض كلمات المجاملة الخافتة. وقّعتُ حيث طلب منّي عماد التوقيع في دفتر المأذون، ووقّع عمّ ليلى نيابةً عنها.

وعندما همّ الرجل بالرحيل مع المأذون فوجئتُ بنفسي أقول له بصوتٍ حاولتُ جعله ودودًا قدر الإمكان :

انقل تحياتي لليلى يا سيدي، وتمنياتي لها بالتوفيق في حياتها.

ولم تفلح الأيام التالية في نزع المرارة من حلقي.

وذات يوم فوجئتُ في بريدي الإلكتروني برسالة من سمر زميلة غرفة الدردشة الصوتيّة. كنتُ قد انقطعتُ تمامًا عن غرفة الدردشة منذ تلك الليلة المشؤومة التي تعاركتُ فيها مع ليلى، فقلق عليّ الأصدقاء هناك وكلفوا سمر بمراسلتي للاطمئنان عليّ.

شعرتُ بالذنب تجاه هؤلاء الأصدقاء، لقد استغللتُهم وأثرتُ اهتمامهم بشكلٍ فج. غمرتُهم في مستنقع ولعي برثاء الذات. وكان عليّ إصلاح هذا الخطأ.

رددتُ على الرسالة :

"شاكر وممتن لاهتمامك يا عزيزتي.. هناك خبر مفرح أتمنى أن يسعدكم كما أسعدني : لقد استعدتُ بصري بعد عملية جراحية ناجحة، وأنا الآن بخير ولله الحمد.. هناك مشاكل عويصة في اتصالي بالإنترنت لذلك لا أستطيع الدخول بشكل منتظم، فاعذروني على القطاعي الدائم.. طمئني جميع الأصدقاء، وكونوا بكل الخير".

سارت حياتي بشكلٍ روتيني سلس وسط دهشة عماد وخالتي من أخذي للأمور ببساطة وفرحتي بإنجازاتي الصغيرة، كوب شاي صنعته بنفسي، جزء من قصّة كتبته على الكمبيوتر دون مساعدة عماد، كتاب صوتي انتهيتُ من الاستماع إليه، رسالة دكتوراة أنهيتها وقبضتُ أجري عن كتابتها، وتدريجيًا بدأ يتركاني وحدي دون قلق.

فوجئ عماد بي أقول له ذات يوم :

أنا على استعدادٍ للذهاب إلى الطبيب النفسي !.

لابدّ أنه التفتَ إليّ بدهشة، وسألني بقلق إن كنتُ أعني ما أقول.

– يمكنني الآن مواجهة الحقيقة : الطبيب أخبرنا أن إصابتي ليست عضوية، لذلك عليّ أن أزور طبيبًا نفسيًا.. لن أخسر شيئًا إن فعلت.

اتفق عماد معي على أن يصحبني إلى الطبيب النفسي في اليوم التالي بعد عودته من العمل. وفي ذلك اليوم، وبعد ذهاب عماد إلى عمله أخبرتني خالتي أنها ستخرج لتبتاع بعض المشتريات للبيت.

تركتني أتناول الإفطار الذي أعدته لي، بينما أستمع إلى أجزاء من كتاب قصّة الحضارة من خلال الإم بي ثري.

أنهيتُ إفطاري فحملتُ الأطباق إلى المطبخ، وسرتُ بحذر لأني تركتُ عصاي بجوار الكمبيوتر لأتمكن من حمل الأطباق، بينما صوت المُذيع الرخيم ينساب في أذنيّ يتكلم عن تاريخ الثورة الفرنسية كما كتبه ويل ديورانت.

وضعتُ الأطباق في حوض الغسيل، ثم عدتُ أدراجي بحذر، ودخلتُ الحمّام لأغسل يديّ، بينما عقلي يعُدّ بشكلٍ تلقائي الخطوات التي أقطعها.

وعندما سقطت الصابونة من بين يدي، وانحنيتُ على الأرض أبحث عنها؛ كان الملف الذي أستمع إليه قد انتهى، فساد الصمت فجأة، وسمعتُ صوت خطواتٍ تسير أمام باب الحمّام.

فزعتُ وانتطرتُ واقفًا فتفجر الألم في رأسي ثم لم أشعر بشيء.

فيما بعد عرفتُ أن عماد عاد فجأة لأنه نسي بعض الأوراق، ولم أميّز صوته بسبب انشغالي بالاستماع إلى كتابي الصوتي. أسرع عماد إلى الحمّام حينما سمع صوت ارتطام رأسي بحافة الحوض، فوجدني ساقطًا على الأرض أنزف من مؤخرة رأسي. حملني بصعوبة إلى غرفة النوم واتصل بالطبيب، الذي حضر بعد عودة خالتي بقليل، وقام بخياطة الجرح في رأسي.

كلّ هذا عرفته بعد فترة طويلة من استيقاظي، لأنني حينما استيقظتُ كان ما شغل بالي وبالهم شيءٌ آخر تمامًا.

كان الطبيب يضع الغرزة الأخيرة في فروة رأسي قبل أن يزول أثر المخدر الموضعي، حينما بدأتُ أتحرك وأتململ في مكاني.

فتحتُ عينيّ فوجدتُ خالتي وعماد والطبيب يرمقونني بقلق، وخالتي تسألني بتوتر :

هل أنتَ بخير يا حبيبي ؟ هل تشعر بأي ألم ؟.

أجبتها وأنا أفتح عينيّ بصعوبة بسبب ضوء الغرفة والدوار في رأسي :

ليس تمامًا.. فقط أشعر بـ..

وكان عماد هو الذي لاحظ، فهتف بانفعال :

خالد !.. أنتَ تنظر إلينا مباشرة !.

انتبهتُ فانتطرتُ من الفراش متجاهلاً الألم في مؤخرة رأسي. كانت الرؤية مهتزة أمام عينيّ وغير واضحة، لكنّي كنتُ أرى !.

كانت القصّة قد استغرقتني تمامًا، أصبحتُ أتابع حركة شفتيّ العجوز بانتباه، وحينما وصل إلى هذا الجزء هتفتُ رغمًا عني :

يا إلهي !.

فقال مبتسمًا :

أعرف.. هذا الجزء من القصّة مليء بالمعجزات، نجاة خالد من الموت ورضاه بحاله ثم استعادته للرؤية فجأة !.

هززتُ رأسي بذهول، وغمغمتُ بأنه شيء لا يُصدق. ساد الصمت بيننا وهلة، ثم لم ألبث أن سألته :

في رأيك ما سر حالة الرضا التي انتابته بعد محاولة الانتحار ؟.

– أعتقد أن صديقنا خالد وصل بمحاولة انتحاره إلى ذروة معاناته ولم يعد هناك شيءٌ آخر ليفعله، اقترابه من الموت جعل هويّته المزيّفة تنزوي قليلاً لتترك المجال لذاته الحقيقية. في اللحظة التي شعر فيها أنه يحتضر لم تكن

ذاته المزيّفة هي الموجودة تفكّر وترسم الخطط، كان خالد محفوظ الحقيقي هو الموجود على السطح، لذلك ولأول مرة منذ فترة طويلة جدًا اعترف أنه المسؤول عن كل ما حدث.

سألته بدهشة :

هويّته المزيفة وذاته الحقيقية ؟ ماذا تقصد بالضبط ؟ هل درست علم النفس؟.

– لا لم أدرس علم النفس.. لكنّ صاحبنا خالد سيقابل في مرحلة مقبلة رجلاً سيخبره عن هذه المصطلحات.. سيأتي ذكر ذلك بعد قليل، فدعنا لا نستبق الأحداث.

عدتُ أسأله بشغف :

وماذا حدث حينما وجد نفسه مبصرًا ؟ وماذا فعل من حوله ؟.

– يمكنك أن تتخيل.. هو أصابته حالة من الذهول فلم ينطق بكلمة، بل ظلّ يرمق ما حوله غير مصدق، وكأنّه استيقظ من حلمٍ طويل.. عماد ابن خالته أجهش في البكاء تأثّرًا وهو يردّد بلا انقطاع "سبحان الله" – "الله أكبر"، أما خالته فأخذت تزغرد بشكل متواصل وهي تبكي بدورها.

قال الدكتور أنور وهو يفرد الأشعة السوداء أمامي مشيرًا إلى خلفية الجمجمة :

كما قلتُ لك من قبل، إصابتك لم تكن عضوية، مركز الإبصار سليم، لا الضربة الأولى ولا الثانية سببت له أي ضرر !.

أما الطبيب النفسي فقال :

كان لديك استعدادٌ نفسي لعودة الرؤية، فقام عقلك الباطن بأخذ الضربة الثانية كمبررٍ لعودتها !.

– أي أنني لو لم أصب بالضربة الثانية كانت الرؤية ستعود إليّ من نفسها ؟.

– ربما نعم وربما لا.. في كل الأحوال أعتقد أن الضربة الثانية لم تكن صدفة، أنتَ تعمّدتَ ضرب رأسك بحافة الحوض دون وعيٍ منك لتجد مبررًا لتستعيد الرؤية !.

– بهذه البساطة ؟!.

كنتُ حتى هذه اللحظة أرمق ما حولي بذهول، خفتُ أن أتورط في الأمر فأفرح ثم أكتشف لاحقًا أنه مجرد حلم. اختلط عليّ الأمر، فلم أعد أعرف هل كان عماي حلمًا أم أن إبصاري هو الحلم، أين الحقيقة في كل هذا ؟.

طوال طريق الذهاب والعودة من وإلى المستشفى ثم من وإلى عيادة الطبيب النفسي؛ كنتُ أرمق ما حولي بذهولٍ وافتتان، وجوه الناس وواجهات المحال والبنايات العالية والسيارات المتحركة والأشجار مهتزة الأغصان. وحينما ضبطني عماد وأنا أنظر في مرآة السيّارة الجانبية إلى وجهي بسعادة انفجر ضاحكًا :

كأنّك كائن فضائي جاء كوكبنا لأول مرة !.

قلتُ له بنشوة :

الكائن الفضائي الذي سيجيء عالمنا لأول مرة سيكون محظوظًا لأنه سيرى كل هذا الجمال، كل هذه الألوان !.

كنتُ أرتدي نظارة شمس سوداء لأن عينيّ مازلتا ضعيفتين أمام الضوء، لكنّي مع ذلك كنتُ أحاول التهام كلّ ما تقع عليه عيناي. كلّ الألوان تبدو دافئة مفعمة بالحياة، زرقة السماء اللا نهائية تقول لنا اطمئنوا، أنا أحبكم وأظلّلكم، صفرة رمال الأرض تؤكد أننا سنظلّ بخيرٍ فوقها، حملتنا ملايين السنين ولا بأس عندها في أن تحملنا ملايين أخرى، أشعة الشمس الذهبية

الحانية تقول خذوا يا صغاري ما تحتاجونه من دفء وحياة، سواد الليل لم يعد مخيفًا، لون الأناقة والسكون، ناموا يا أحبابي أو اركنوا إلى السكون، أبدعوا وفكِّروا وضعوا النقاط فوق الحروف.

قضيتُ الأيام التالية أرتشف المرئيات وأتلذذ بها، أستعيد كل الوجوه والمناظر التي كدتُ أنساها، طالعتُ كل ألبومات الصور العائلية لدى خالتي، تابعتُ كل البرامج والمسلسلات والأفلام في التلفاز، وقفتُ لساعاتٍ طويلة في الشرفة أرقب الناس والحيوات التي تجري بأسفل. كانت خالتي تستيقظ من النوم فلا تجدني، تبحث عنّي هي وعماد ثم يجداني أقف فوق سطح البيت أرمق شروق الشمس بافتتان والدموع تترقرق في عينيّ.

ما أروع العالم، ما أروع الحياة، ما أروع المرئيات، ما أروع الألوان.

يأتي الليل فأغادر البيت وأنطلق في الطرقات بلا وجهة. يندهش الناس حينما يرونني أرمقهم بسعادة وشغف وأنا أمرّ بهم، رمقتني فتاة بغضب حينما وجدتني أرمق ملامحها بهيام، فأدرتُ وجهي للجهة الأخرى. لا أحاول مضايقتك يا آنستي، أنا فقط أفتقد جمال الوجوه البشرية.

تأخذني خطواتي إلى كورنيش النيل، فأقف فوق كوبري قصر النيل أرمق النهر الجاري بأسفل، يلفحني الهواء فأستنشقه بعمق فاتحًا عينيّ ليرتطم بها

ويداعبها. أمرّ أمام واجهات المحال فأرى انعكاسًا لوجهي، أرمق الصلع الخفيف في مقدمة رأسي وأبتسم بسعادة.

كنتُ قبل الحادث ممتلئًا قليلاً، ويبدو أنني بعد الحادث، ومع قلة الحركة ازددتُ امتلاءً، لكنّي الآن كما أرى نفسي بدأتُ أفقد بعض الوزن.

كنتُ أتوقف لأتابع كلام الناس مع بعضهم، عراك الأطفال الصغار، فصال السيدات مع الباعة، همسات المحبين، أتابع تغيّر ملامحهم، حركات عيونهم واهتزازات رموشهم واختلاجات شفاههم. ما أروع كل هذا.

لو أنني فقدتُ بصري طوال الشهور الماضية فقط كي أشعر بكل هذه المتعة والنشوة حينما أستعيده فأنا لم أخسر شيئًا !.

لكنّ متعتي الحقيقية، نعمتي الحقيقية، كانت في الكتب. كنتُ أدخل المكتبات وأمسك بالكتب أتأمّل أغلفتها وعناوينها وأقلّب في صفحاتها. أمر بأصابعي فوق الكلمات وأنا أكاد أبكي من فرط السعادة. لا توجد متعة في العالم تعادل متعة رؤية الحروف متجاورة بجوار بعضها لتشكّل كلماتٍ فجُمَلاً تحمل معانٍ وأفكارًا. حينما كان عماد يقرأ لي، حينما كنتُ أستمع إلى الكتب الصوتيّة، كنتُ أتخيل الكلمات تتشكل في ذهني على خلفية سوداء. الآن بإمكاني رؤية الكلمات من جديد. ما أروع هذا !.

أصبحتُ أقرأ كثيرًا وكأنّي أسعى لتعويض ما فاتني. لم تكن الكتب في بيت خالتي كثيرة، فاضطررتُ للذهاب إلى شقتي بصحبة عماد لإحضار كتبي من هناك.

كان التراب يغمر كل شيء، ورائحة الجو خانقة. جزء كبير من الشقة أصبح عاريًا بعد أن استعادت ليلى ما يخصها من أثاث. انقبض قلبي حينما رأيتُ النجفة المحطمة فوق المنضدة كما هي وبجوارها مجلدات رواية البؤساء متناثرة، بينما شاشة الكمبيوتر ملقاة على بعد خطوات.

تجاوزتُ كل هذا وذهبتُ إلى غرفة المكتبة. وقفتُ أتأمّل الكتب باشتياق. بدأتُ أتناول الكتب من فوق الرفوف وأُعبّئها بمساعدة عماد في الأكياس الكبيرة التي أحضرناها معنا. كنتُ آخذ الكتب عشوائيًا دون الالتفات لعناوينها لأني كنتُ أرغب في المغادرة سريعًا.

جلستُ في غرفتي ببيت خالتي أقلّب في الكتب التي أحضرتها، أغلبها قرأته في فترات مختلفة من حياتي. انتبهتُ فجأة إلى كتاب الحكم العطائية للشيخ مِتعِب غريب جدّ ليلى. الكتاب الذي أهدتني إياه منذ عدة سنوات في عيد ميلادي.

كانت الطبعة قديمة، وكعادة تلك الطبعات كانت الكلمات والسطور تتزاحم في الصفحة الواحدة وكأنّ الناشر يسعى لحشر الكتاب في أقل عدد ممكن

من الصفحات، مما يؤدي في النهاية لصعوبة القراءة وإرهاق العين. لذلك لم أتحمس من قبل لقراءته واكتفيتُ بقيمته المعنوية كهدية عيد ميلاد.

انتابتني فجأة رغبة لا أعرف مصدرها في تناول الكتاب وتصفّحه.

فتحتُه فوجدتُ نفسي أمام الحكمة الرابعة التي كانت تقول : "أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك".

وفي شرح هذه الحكمة كتب الشيخ مِتعِب يقول :

"هذه أحب الحكم العطائية إلى قلبي.. تقول باختصار أن عليك تسليم أمرك لله.. لو كان لديك سائقٌ ممتاز خبير في الطرق، وركبتَ معه وأنتَ تريد الذهاب إلى منطقة معينة في وقت معين، وهو طمأنك ووعدك بأنه سيوصلك سريعًا وفي الوقت المناسب بالاعتماد على خبرته ومعرفته بالطرق، فهل ستظلّ طوال الطريق منشغلاً مهمومًا تفكّر : هل سأصل في الوقت المناسب؟ هل سنتوه أم سنصل بسرعة ؟.

في هذه الحكمة يحدّد مولانا ابن عطاء الله السكندري قدّس الله سره الكريم أننا لسنا بحاجة للانشغال والانهمام بتدبير أمور حياتنا، لأن هناك من يقوم بهذه المهمة نيابة عنا، الله سبحانه وتعالى، الذي قدّر المقادير وحدّد أرزاق كل واحدٍ منا.. فما نحن بحاجة إليه فعلاً هو الأخذ بالأسباب،

ثم عدم الانهمام والانشغال بالنتيجة، لأن النتيجة ضمنها الله سبحانه وتعالى وهو المسؤول الوحيد عنها.

الطالب عليه أن يذاكر ويجتهد في مذاكرته كسببٍ للنجاح، ثم عليه بعدها ألا ينشغل بأمر نتيجة الامتحان.. الموظف عليه أداء عمله على الوجه الأكمل، ثم لا ينشغل بعدها بمتى سيحصل على راتبه وكيف سيصرفه وماذا سيفعل به.. لا تنشغل بالوصول إلى وجهتك، اهتمّ بالطريق وخذ ما يلزمك من الزاد والخرائط، أما الوصول بنجاح فهو أمر قام غيرك بتدبيره.. انشغل بما هو في حدود اختصاصك وليس بما هو خارج مقدرتك.

هذه الحكمة تحمل معنى الرضا والثقة بالله، تحمل معنى الراحة والطمأنينة وعدم الجري في الدنيا جري الوحوش.. فالرزق قادم قادم، ولن يأخذ أحدٌ أقل مما كُتب له.. لا يجب علينا الانشغال بما سيأتينا، لأن ما سيأتينا سيأتينا كاملاً غير منقوص وحينما يحين وقته".

هل كان يقصدني أنا بهذا الكلام ؟ حينما توقفتُ عن الانشغال بمشاكلي فاجأني الشفاء حينما حان وقته ؟.

قلبتُ عدة صفحات في الكتاب، فوجدتُ نفسي أمام الحكمة السابعة التي كانت تقول : "لا يشككنّك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه، لئلا يكون ذلك قدحًا في بصيرتك، وإخمادًا لنور سريرتك".

وكتب الشيخ يشرحها :

"يستكمل مولانا ابن عطاء الله السكندري قدّس الله سره الكريم في هذه الحكمة ما كان قد بدأه في الحكمة السابقة التي تحدّث فيها عن عدم اليأس والإحباط إذا تأخرت إجابة الدعاء.. لكن ماذا لو كان التأخير ليس في مجرد إجابة الدعاء، ليس في مجرد إجابة غير المحدّد والذي يختلف من شخصٍ لآخر، ماذا لو كان التأخير في شيء محدّد ومعين ؟ في وعد وعدنا الله به، مثل تحقق النصر ونهوض الأمة ؟.

هنا يخبرنا الإمام ابن عطاء الله أنه حتى لو كان التأخير في شيء محدّد وعدنا الله به، وحتى لو كان لهذا الشيء زمن معين لتحققه، فلا يجب أن نشك أو نظنّ أن الوعد قد تم إخلافه، فنحن لا ندري سبب التأخير.. قد يكون السبب امتحانًا لنا، ابتلاءً لاختبار عمق إيماننا وتصديقنا.. لو فشلنا فيه فسيكون هذا دليلاً على وجود مشكلة في بصيرتنا، أي مشكلة في عين قلبنا التي ندرك بها ما وراء الأشياء.. دليلاً على انطفاء نورنا الداخلي.

هذه الحكمة العطائية توضّح لنا سبب المكانة التي وصل إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام عند الله سبحانه وتعالى.. فقد كان الله قد وعد سيدنا إبراهيم بأن ابنه سيكون من نسله أمّة كبيرة عظيمة.. وبعد حين أمره الله بأن يذبح ابنه !.

كان من الطبيعي حينها أن يتردّد إبراهيم ويسأل ربّه ولو على سبيل المعرفة بالشيء : لكن يا ربِ ألم تعدني بأنه سيكون من نسله أمة عظيمة ؟ كيف تأمرني بأن أذبحه الآن وأنتَ وعدتني بهذا الوعد ؟.

لكنّ سيدنا إبراهيم لم يتردّد ولم يتشكك ولم يسأل، فقط استأذن ابنه :

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ.

ولم يتردّد الابن بدوره، لم يسأل والده : لكن ألم يعدك الله بأنني سأحيا وستكون من ذريّتي أمّة عظيمة ؟ هل تراجع الله في وعده ؟.

بل انطلق مع والده لتنفيذ المهمة !.

لذلك يصف الله سبحانه وتعالى ما حدث :

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ {١٠٣} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ {١٠٤} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١٠٥} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ {١٠٦} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ {١٠٧} وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ {١٠٨} سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ {١٠٩} كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {١١٠} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

وصف الله سبحانه وتعالى ما حدث بأنه "البلاء المبين".. الامتحان والاختبار والتمحيص العظيم الظاهر.

ومن أجل ذلك استحق إبراهيم عليه السلام أن يكون من أكثر البشر بصيرة ونور سريرة".

توقفتُ لأفكّر : هل هناك بين البشر من بإمكانه امتلاك يقين الأنبياء هذا ؟ تلك الثقة اللا نهائية في النظام الذي يدير الكون ؟ لو كانت لديّ هذه الثقة لما أصابني الهمّ ولا اهتزت لي شعرة حينما فقدتُ بصري فجأة، كنتُ سأعيش حياتي بسلامٍ وطمأنينة وكأنّي أرى بعين الغيب أنني بعد بضعة شهور سأستعيد بصري مرة أخرى. لكنّي للأسف لستُ كذلك. كم أنا بحاجة لتلك البصيرة !.

قلبتُ عدة صفحات إلى الخلف، وبدأتُ أقرأ الحكمة الثالثة : "سوابق الهمم لا تخرق أسوار القدر".

وكتب الشيخ شارحًا :

"هناك أشخاصٌ بيننا لديهم قدرات خاصة.. ربما لأنهم صالحون ارتقوا بأرواحهم لدرجة عالية، أو لأنهم أدركوا أسرارًا من أسرار الكون وأتقنوا تطبيقها في حياتهم.. المهم أن حياة هؤلاء الأشخاص تسير بشكلٍ مذهل بالنسبة لنا نحن العباد العاديون، تسير بانسجام، ما يريدونه يتحقق، ربما

دون أن يطلبوه، بل أكثر من ذلك : ما ينوونه يتحقق.. الأمور تترتب في حياتهم بطريقة مذهلة بحيث تكون في صالح أهدافهم ومصالحهم.. ونحن حينما نراقبهم من بعيد نُذهل حين نرى إرادتهم كأنّها نافذة في الكون، وهو ما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله "لو أقسم على الله لأبرّه"!.. وكأنّهم يقولون للأمر كن فيكون.

هؤلاء هم من نسمّيهم بأولياء الله الصالحين، وهم ليسوا بالضرورة من نجدهم في المساجد، أغلبهم يسيرون بيننا دون أن نعرفهم لأنهم لا يتخذون سمتًا معينًا.. الحقيقة أن المعروفين منهم إما أنهم مدّعون أو أنهم وصلوا درجة عالية بحيث لم يعودوا يستطيعون حجب أنوارهم عن العامة.

هؤلاء الناس يقول مولانا ابن عطاء الله السكندري قدّس الله سره الكريم عنهم أن سوابق هممهم – أي نواياهم ورغباتهم – لا تخرق أسوار القدر.. أي أن هؤلاء الناس لم يفعلوا ما أذهلنا بسبب أن ما يريدونه وما ينوونه يتحقق لهم، ليس لأنهم يقولون فعلاً للأمر كن فيكون، ولكن لأن ما يريدونه يوافق القدر، يوافق إرادة الله.. فهم وصل بهم السمو الروحي والاقتراب من الله بحيث أصبحت رغباتهم وأهدافهم موافقة للأقدار الواقعة في الكون ودائرة معها.. وكما وصفت السيدة عائشة رسول الله صلى الله وسلم قائلة: "أرى أن الله يسارع في هواك !".. أي أن الله يحقق لك ما تهواه وما ترغب فيه.. والأمر ليس كذلك، فهوى الرسول عليه الصلاة والسلام – أي رغباته وما يتمناه – متوافق ومساير لإرادة الله وقدره".

توقفتُ عن القراءة مذهولاً ! هذا ما كنتُ أبحث عنه، شخص صاحب همّة سابقة يكون مرشدي ومُعلّمي، يشرح لي ما غمض عليّ، يدلّني على الطريق الذي عليّ أن أسلكه لتكون لديّ بصيرة داخلية تعينني في حياتي، لأصل لدرجة من الطمأنينة لا تجزع معها نفسي من الخطوب. لكن أين أجده ؟.

انتبهتُ مع أذان الفجر، فتوقفتُ عن القراءة، ضرب البرق عقلي، فوقفتُ مشدوهًا.

ربما أنا لم ألتقِ بليلى، لم أتزوجها وأعش معها طوال ست سنوات سوى لهذا السبب. لقد ظهرت في طريقي فقط لتُهديني هذا الكتاب في عيد ميلادي لأقرأه ذات يوم وأجد بعض الإجابات.

توضأتُ وأنا أرمق وجهي في المرآة برضا، ثم انهمكتُ في صلاة خاشعة ومشاعر الامتنان تغمرني.

صعدتُ إلى السطح بينما المرئيات مازالت تسبح في عالم العتمة، ووقفتُ أمام الشرق منتظرًا ظهور رأس محبوبتي المنير.

عادةً ما أنسى نفسي وأنا واقفٌ أرمق ولادة الشمس وتغيّر لون السماء، ولا أنتبه إلا حينما يصعد عماد ليذكّرني بموعد الإفطار.

شعرتُ بحركة خلفي فالتفتُّ متوقعًا عماد، لكنّني فوجئتُ بفتاة رقيقة الملامح ترمقني بدهشة وقد فوجئتْ بوجودي.

– معذرة، كنتُ فقط.. لم اقصد مقاطعتك.. أرسلني أبي لأضبط له الهوائي، يحبّ متابعة الأخبار بعد أن يصلّي الفجر...

تذكّرتُ الصوت على الفور، فهتفتُ بترحيب :

أنتِ أمل، أليس كذلك ؟.

هزّت رأسها بحياء وغمغمت :

أخبرتنا طانط عفاف أنك استعدتَ بصرك.. حمدًا لله على سلامتك.. أعتذر مرة أخرى على مقاطعتك، سأعود في وقتٍ لاحق.

أسرعتُ أقول :

أنتِ لم تقاطعيني أبدًا، كنتُ فقط أتابع شروق الشمس.

هزّت رأسها مرتين بحياء ثم أسرعت مبتعدة.

توقعتُ أن أراها مرة أخرى في الأيام التالية لكنّها لم تظهر.

انهمكتُ في قراءة شرح الشيخ مِتعِب للحكم العطائية، ومع كل حكمة أقرؤها كنتُ أشعر بروحي تصعد درجة. أصبح الكتاب لا يفارقني ليلاً ولا نهارًا، أنهيته بعد عدة أيام ثم بدأتُ في إعادة قراءته. كنتُ أقرأ شرح الحكمة الواحدة عدة مرات مستلذًا بالمعاني التي تتدفق إلى روحي في كل مرة.

ثم وقع في يدي كتاب "معاناة الرسول الخاتم" للدكتور خيري عبد الحق. لم أذكر متى ابتعتُ هذا الكتاب ولا لماذا تركته في مكتبتي دون أن أقرأه. وهل لو كنتُ قرأته في السابق كنتُ سأتأثر كما تأثرتُ الآن ؟.

بكيتُ وأنا أتقدّم في القراءة.

كيف كان الكفّار يلقون على ظهر الرسول الأوساخ والقاذورات بينما يصلّي، فيظلّ ساجدًا لا يتحرك إلى أن تأتي ابنته فاطمة فتزيل القاذورات من فوق ظهره وهي تبكي. فيقول لها لا تبكِ يا فاطمة، فإن الله ناصر أباكِ.

كيف فقد أعز الناس إليه، زوجته خديجة وعمّه أبا طالب، بعد حصارٍ اقتصادي طويل قُسم فيه ظهر المسلمين وكل من حاول نصرتهم ومساعدتهم. لم يجد من يحميه ويدافع عنه في ذلك المجتمع القبلي، فخرج يبحث عن أسباب النصرة. ذهب إلى الطائف أقوى المدن بعد مكة. طلب حمايتهم ليستطيع دعوة الناس إلى الإسلام في أمان، فإذا بهم

يتوعدونه ويسبّونه ويقذفونه بالحجارة، فيخرج من مدينتهم والدماء تسيل منه.

كيف فقد عمه الحبيب حمزة في معركة أُحد، وشُجت رأسه وكُسرت أسنانه، وظلّ بعدها حتى موته يعاني من الصداع النصفي.

كيف حاصره العرب هو وأصحابه في المدينة لعدة أيام، وسط الظلام والبرد، وبني قريظة في الخلف قد أعلنوا التمرّد وموالاة العرب الوثنيين.

كم مرّ عليه من أيام لا يجد لا هو ولا أصحابه ما يسدّ الرمق، فكان يربط الأحجار على بطنه كي ينسى ألم الجوع.

وبعد كل ذلك كان يرفض الدعاء على من آذوه، وبدلاً من ذلك كان يدعو : اللهمّ اهدِ قومي، فإنهم لا يعلمون.

وحينما انتصر عليهم، حينما دخل الحرم، في نفس المكان الذي كان يصلي فيه منذ عشرين عامًا فيلقون القاذورات والأوساخ فوق ظهره سخريةً به، وحينما جيء أمامه بكل من عاداه وآذاه وطرده من بلده وقتل أصحابه وأحبابه وهدّد دعوته في كل لحظة؛ لم يفكّر طويلاً، لم يطلب منهم أن يتركوه عدّة أيام ليحاول تهدئة نفسه الثائرة كي لا يفتك بهم. بابتسامة بسيطة سألهم: ماذا تظنّون أني فاعلٌ بِكم ؟.

فلما أجابوه بقلق : خيرًا.. أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم !.

كانوا يحاولون استعطاف الطيبة وصلة الرحم فيه. كانوا يدركون أنهم لابدّ سيُعاقبون على ما فعلوه، لكن فلتكن عقوبة مخففة، فأنتَ أخونا وابن أخينا!.

لذلك لم يصدّقوا آذانهم حينما وجدوه يقول بلا تردّد، وبكل بساطة : اذهبوا فأنتم الطلقاء !.

هكذا، بثلاث كلمات فقط عفا عن عداوة عشرين عامًا تخللها الجفاء والإساءة والتضييق والحرب والقتل.

بعد أن أنهيتُ الكتاب أغلقته في حجري وعقلي يدوي بسؤالٍ واحد : هل يوجد بشر هكذا ؟ هل بإمكاني أن أسامح ليلى وسمير وأتخفف من الغضب الذي بداخلي نحوهما ؟.

لكنّي لم ألبث أن أجبتُ نفسي : هذا كان نبيًا.. بينما نحن مجرد بشرٍ عاديين، ليس بإمكاننا بسهولة أن ننسى الجراح التي سبّبها لنا الآخرون.

لكن كانت تنتظرلي إجابةٌ من نوعٍ آخر.

خرجتُ من مطار JFK بصحبة يوسف. أشار إلى سيّارة أجرة كانت تنتظرنا فاتجهت نحونا.

وضع حقيبتي المتوسطة في حقيبة السيّارة ثم جلس بجواري على الأريكة الخلفية وأعطى للسائق عنوان بيته، ثم قال متحاشيًا النظر إليّ :

هناك خبر سيء.. مايكل اضطر للسفر بشكل مفاجئ ولن يستطيع لقاءك اليوم.. ربما لا يتاح لكما أن تلتقيا على الإطلاق !.

يوسف صديقنا الثالث أنا وسمير من أيام الجامعة. استطاع منذ بضع سنوات الحصول على الجنسية الأمريكية وسافر ولم يعد من يومها إلى مصر.

فوجئتُ به يتصل بي ليعرض عليّ المجيء إلى الولايات المتحدة.

– لديّ صديق هنا يهمه لقاؤك.. مايكل كايسي مدرب التنمية البشرية الشهير، لابدّ أنك قرأتَ كتابه "الأفكار الصغيرة تصنع حياة عظيمة"، كان من الكتب الأكثر مبيعًا لعدة شهور.. حكيتُ له قصّة استعادتك بصرك فاهتمّ كثيرًا، وسألني إن كان بإمكانك القدوم إلى الولايات لتجلسا سويًا

ويسمع قصّتك ويستأذنك في استخدامها في كتابه الجديد عن التحفيز والنهوض بالحياة.

كان أغلب معارفي قد أصبحت لديهم فكرة عما مررتُ به بعد أن كتبتُ عن استعادتي لبصري على حسابي على الفيس بوك، وتلقيتُ تهنئة عشرات الأصدقاء المضافين لديّ هناك، ومن بينهم يوسف.

لم تبد لي فكرة السفر إلى الولايات المتحدة سيئة، خصوصًا وأنني لستُ مرتبطًا بأي ارتباطات في مصر. مازلتُ أبحث عن وظيفة، وعملي على روايتي الجديد "عدم" لن يتوقف إذا سافرت، بالعكس سيتاح لي المزيد من الوقت للكتابة. وسأرى أشياء ومناظر جديدة.

– تكاليف السفر والانتقال والإقامة ستكون على حساب مايكل، فلا تحمل همًّا.

وافقتُ، وساعدني عماد في الأيام التالية على القيام بكافة الإجراءات. استخرجتُ جواز سفر وتأشيرة زيارة للولايات المتحدة وحوّل لي يوسف تكاليف تذكرة الطيران.

– لماذا لم تخبرني قبل قدومي ؟ ما الوضع الآن ؟.

– الرجل اضطُر للسفر منذ ساعاتٍ قليلة، وغالبًا لن يعود قبل أسابيع.. على كل حال أنتَ لن تتكلف شيئًا، تذكرة الذهاب والعودة دفع مايكل حسابهما كما وعد، واليومان اللذان ستقضيهما هنا ستكون ضيفي !.

لم يقصّر يوسف معي، أصبح مرشدي السياحي، وكان الجدول الذي أعدّه لي حافلاً بالفعل.. بدأ منذ ليلة وصولي.

– للأسف لن يمكنك أن تستريح طويلاً.. هناك محاضرة الليلة لدكتور واين داير وقد حجزتُ لنا تذكرتين !.

بالطبع كنتُ أعرف واين داير جيدًا، قرأتُ كتابه الأشهر "قوة النيّة" منذ عدة سنوات، وإن كنتُ لم أستوعبه جيدًا وقتها. يلقّبونه في أمريكا بأبي التحفيز، كتاباته ومحاضراته مُلهمة.

في البداية تخيّلتُ أنني سأجد نفسي في قاعة صغيرة تسع بضع مئاتٍ من الأشخاص، لذلك فوجئتُ بالزحام الذي وجدتُ نفسي في وسطه. كانت القاعة هائلة تسع الآلاف، والمقاعدة ممتلئة عن آخرها. كان الأمر أشبه بحفلٍ لمغنٍ مشهور. وكانت هناك شاشات عملاقة في كل مكان تنقل للحضور ما يدور فوق المسرح البعيد. وحينما ظهر دكتور واين داير انفجرت القاعة بالتصفيق.

كانت المحاضرة التي استمرّت لساعتين تدور حول "الإلهام".

قال دكتور داير :

في السادس من إبريل عام ١٩٩٤؛ لقي رئيس رواندا – وهو من قبيلة الهوتو – مصرعه إثر تحطم طائرته.

في اليوم التالي بدأت عملية إبادة جماعية في دولة رواندا، وهي دولة إفريقية صغيرة في حجم ولاية ميرلين، بها حوالي عشرة ملايين مواطن، تسعة من قبيلة الهوتو ومليون من قبيلة التوتسي.

بدأت عملية القتل الجماعي لدرجة أن كل الشباب، كل الذكور فوق سن الرابعة عشرة في قبيلة الهوتو، حملوا السلاح للقتال.

أُغلقت الدولة بأكملها، المدارس والبنوك والمحال.. كان الآلاف من الهوتو يقتلون التوتسي في الشوارع والقرى، في جميع أرجاء الدولة.. ومن رأى فيلم فندق رواندا فقد رأى جزءًا بسيطًا فقط مما وقع.

في النهاية، بحلول يوليو، بعد واحد وتسعين يومًا؛ كان مليون توتسي قد تم ذبحهم في ذلك التطهير العرقي.

ووسط هذه المعركة، كانت هناك فتاة شابة تدعى أماكلي إليبيجيزا، كانت طالبة في جامعة تبعد حوالي مائتي ميل عن قريتها.. اتصل بها والدها وطلب منها أن تأتي إلى المنزل، لكنّها لم ترغب في العودة لأن المسافة طويلة

وكان عليها أن تأخذ حافلتين، وهذا سيأخذ وقتًا طويلاً منها.. قال الأب: يجب أن تأتي إلى البيت، إنه عيد الفصح، يجب أن تأتي لترى والدك ووالدتك.. ففعلت ما طلبه منها والدها وعادت إلى البيت.. كان هذا في السادس من إبريل، وحين وصلت هناك – وكانت من التوتسي– أصبح عليها الاختباء، حيث أن عملية القتل كانت قد بدأت، خصوصًا في تلك المنطقة من رواندا حيث كانت تعيش.

ذهبت للاختباء في أحد المنازل، في حمّام مساحته حوالي ٣×٤ أقدام مع سبع نسوة أخريات لواحد وتسعين يومًا.. حينما خرجت كان وزنها ٦٥ باوندًا.. لقد نجت بمعجزة، وكتبت قصّتها في كتاب "ما بقي ليقال –كيف اكتشفتُ الرب وسط مذبحة رواندا".

لقد كانت تجربة مذهلة أنها نجت عبر قوة إيمانها واتصالها بالرب.. لقد كان عليها أن تتعلم ليس فقط ما تراه من علامات الرب حولها – حين تقرأ كتابها سيستغرقك، حيث إنه كتابٌ رائع – لكنّها كان عليها أن تتعلم كيف تسامح هؤلاء الناس الذين يطاردونها.. لقد عاشت في منزل ذي غرفتين، وكان المئات من الهوتو يبحثون عنها حاملين أسلحتهم على بعد خمسة إنشات من مكان اختبائها مع النسوة السبع الأخريات.. تبحث عن بقايا الطعام كي تبقى على قيد الحياة.. صاحب المنزل الذي آواها لم يخبر أحدًا بوجودها حتى أبناءه، فلو فعل كان سيُقتل، لأنه لم يكن هناك شخصٌ باقٍ من التوتسو.. سأقرأ عليكم مقدمة الكتاب، لقد قابلتُ هذه الفتاة وألهمتني،

فطلبتُ منها أن تأتي لتتحدّث إليكم اليوم.. لقد استطاعت النجاة بعد مرور واحد وتسعين يومًا بنفس الملابس بدون اغتسال، كانت تخشى أن يسمعها شخص ممن يحملون الأسلحة فتُقتل.. أعتقد أن هذا شيء مُلهم لنا جميعًا.. تقول أماكلي في كتابها :

"سمعتُ القتلة ينادون باسمي على الجانب الآخر من الحائط.. فقط إنش من الخشب يفصلنا.. كانت أصواتهم باردة، قاسية وعازمة.. قالوا : إنها هنا، نعلم أنها هنا في مكانٍ ما.. اعثروا عليها، اعثروا على أماكلي.

كان هناك الكثير من الأصوات والقتلة.. لقد استطعتُ رؤيتهم في عقلي.. أصدقائي وجيراني الذين كانوا يُحيّوُنني سابقًا بمودة.. الآن يأتون إلى المنزل ينادون اسمي ويحملون الأسلحة.. قال أحد القتلة : لقد قتلتُ ثلاثمائة وتسعة وتسعين من التوتسي.. أماكلي ستجعلهم أربعمائة.

جلستُ في زاوية الحمّام الذي كنّا نختبئ فيه بدون تحريك عضلة واحدة، كالسيدات الأخريات اللاتي يختبئن حفاظًا على حياتهنّ مثلي.. كتمتُ أنفاسي كي لا يسمعني القتلة أتنفس.. تخيّلتُ أنني أرقد على سرير من الحفر الملتهبة، كأنّني جالسة على النار، موجة من الرياح المؤلمة اجتاحت جسدي، آلاف من الدبابيس غير المرئية كانت تخترقني.. لم أتصور أبدًا أن الخوف قد يسبب كل هذا الألم.

حاولتُ أن أبتلع لعابي، لكنّ حلقي كان جافًا، كان أجفّ من الرمال.. أغلقتُ عينيّ، وحاولتُ أن أُبعد الخوف عنّي، لكنّ أصواتهم ازدادت.. علمتُ أنهم ليس لديهم رحمة، وكانت لديّ فكرة واحدة : إذا أمسكوا بي سيقتلونني !.

لقد كانوا في الخارج، وفي أي لحظة كانوا سيمسكون بي.. تخيّلتُ ما سأشعر به حين تخترق طلقات السلاح جسدي.

كنتُ أفكّر في والديّ وأتساءل ما إن كانا على قيد الحياة أم لا.. سوف نكون معًا قريبًا في الجنّة.. وضعتُ يديّ معًا ثم بدأتُ أدعو : أرجوك يا رب، أرجوك ساعدني، لا تدعني أموت بهذه الطريقة.. ليس هكذا، لا تدع هؤلاء القتلة يجدونني، لقد أخبرتنا في الإنجيل أننا إذا سألنا ستُعطينا.. حسنًا، ها أنا أسألك.. أرجوك أبعد هؤلاء القتلة، أرجوك لا تدعني أموت هنا في هذا الحمّام.

غادر القتلة المنزل، فتنفّسنا الصعداء.. لكنّهم سيعودون مراتٍ عديدة خلال الشهور الثلاثة التالية.. لقد أبقى الله على حياتي، وتعلّمتُ خلال التسعين يومًا التالية بينما كنتُ أرتعد من الخوف مع النساء الأخريات في حمّام مساحته ٣×٤ أقدام، أن الإبقاء عليك هو شيء مختلف تمامًا عن إنقاذك.. لكنّي تعلمتُ درسًا غيّر حياتي إلى الأبد، درسًا في وسط هذا القتل الجماعي، تعلمتُ أن أُحب هؤلاء الذين كرهوني وطاردوني.. وكيف أُسامح

هؤلاء الذين قاموا بذبح عائلتي.. اسمي أماكلي إيليبيجيزا.. وهذه قصّة اكتشافي للرب خلال إحدى أكثر عمليات الإبادة الجماعية دمويّة في التاريخ".

ثم هتف دكتور داير :

سيداتي وسادتي، من فضلكم رحبوا بأماكلي إيليبيجيزا على المسرح.

كان كثيرٌ من الجمهور حولي قد بدأوا في البكاء، كنتُ أنا نفسي أبكي بحرقة. في البداية حاولتُ منع دموعي حرجًا من أن يراني الآخرون، لكنّي اكتشفتُ أننا جميعًا كنا نخوض تجربة روحية غير عادية، كانت جارتي تبكي بصمت وهي تغمغم : أوه يا فتاتي !.

ونقلت لنا الشاشات العملاقة المنتشرة في المكان صورة أماكلي وهي تنهض من جوار زوجها الذي كان يمسك بيدها. كانت فتاة سمراء نحيلة وديعة، كل ما في وجهها رقيق، في عينيها نظرة حزن وطيبة. نهضت وصعدت إلى المنصة بجوار دكتور داير، فاحتضنها بقوة بينما الجميع يصفقون بشكلٍ متصل. لابدّ أننا جميعًا أردنا أن نحتضنها ونخبرها أنها ستجد الأمان معنا، لن يؤذيها هؤلاء القتلة مادمنا بجوارها.

غمغمت بخجل وتؤدة :

شكرًا، شكرًا لكم، شكرًا لكم على ترحيبكم الطيب، أنا فخورة وسعيدة أن أكون هنا في هذا البرنامج، وبالطبع سعيدة لأن أكون مع دكتور واين مرة أخرى.. أعلم أن قصّتي قصّة محزنة، لكنّها منحتني تجربة النمو الروحاني، وفهم عميق لما هو مهم حقًا في الحياة.. إنها قصّة كل شخص يعيش في حالة من الظلم.. أؤمن أن الله أعطاني فرصة كي أعرف معنى الحب وأتحمّل أي ألم يجتاحني، دائمًا ما أُخبر دكتور واين أنه إذا كان موجودًا في بلدي قبل عملية الإبادة يُعلّم الناس ما يُعلّمه لهم الآن؛ ربما لم تكن هذه الإبادة لِتحدث.. وأتمنى أن يعرف كل شخص في أمريكا مقدار الهديّة التي لديهم لوجود شخصٍ مثله بينهم.

أن أجلس في صمتٍ تام في ذلك الحمّام لمدة ثلاثة أشهر، وأن أُطارد لأُقتل كل يوم.. في هذا الوقت من حياتي لم أكن أعلم أنهم لن يجدونني، وأنني سأنجو، وأن أكبر مصدر للسعادة كان موجودًا بالفعل داخل قلبي، ذلك هو الرب بداخلي.

إنه أكبر من أي ألم.. هناك بعض الأشياء أريد أن أشاركها معكم، أعلم أنه يمكننا أن نتعلم كيف نسامح، لا تدعوا قلبكم ينزعج بسبب أي ألم.. أجد بعض الناس يعانون من الألم لأسبابٍ بسيطة.. بسبب خسارة فرصة عمل مثلاً.. لكنّني تعلمتُ شيئًا ما، حين تجرح شخصًا ما فأنت لا تجرح هذا الشخص، لكنّك تجرح نفسك بطريقة أو بأخرى.

أهمّ شيء تعلمته في ذلك الحمّام هو أنه لا يمكنك أن تكره الناس حين تعلم حقيقتهم.. لأن الإنجيل يقول : إنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

بعد أن خرجتُ من المرحاض علمتُ أن أمي، أبي، إخوتي، رفاقي في المدرسة، أقربائي، جيراني، الجميع لقوا حتفهم.. كل شيء كنتُ أحبه تمّ تدميره.. لكنّي علمتُ أن وراء كل ألم هناك هدف عظيم.. تعلّمتُ الكثير خلال هذه السنوات الثلاث.. واخترتُ طريقًا واحدًا كي أنظر إلى هذا.. لازلتُ أؤمن داخل قلبي أن البشر جيدين في النهاية.

لا تفقدوا الأمل في البشر قدر استطاعتكم.. شكرًا لكم.

وقفنا وأخذنا نصفق بحماس وسط دموعنا.

ليت كل الناس يصلون إلى ما وصلت إليه أماكلي، كان العالم ليكون حقلاً من السلام ترعى فيه الأغنام بجوار الذئاب التي تحرسها.

ما فعلته ليلى معي، وما فعلته معها. كل ما أظنّ أني تعرضتُ له من ظلم في حياتي، تأخّر شهرتي، فقداني لبصري، كل هذا لا شيء جوار ما تعرضت له هذه الفتاة خلال ثلاثة شهور.

لابدّ أن هناك آخرين في العالم تعرضوا لأشياء مشابهة، ربما بعضهم سقط، لكن بالتأكيد هناك من خرجوا يُشعّون بهجةً وحبًا وتسامحًا كما حدث مع

أماكلي. كان بيدها الاختيار بين أن تقضي بقية عمرها تجتر ذكريات الألم واللوعة على ما أصابها هي وكل من تحب، تقضي بقية عمرها تكره الإنسان. لكنّها بدلاً من ذلك استطاعت السمو فوق كل شيء وأصبحت هي بذاتها إجابة لسؤال : هل يمكننا أن نغفر لمن أساؤوا إلينا وظلمونا ؟.

شعرتُ أني أريد أن أكون هكذا، أريد أن أكون كأماكلي، أن أكون كالرسول عليه الصلاة والسلام.

كان هناك تغيّر غير مفهوم في داخلي، وجدتُ نفسي أشعر بصفاءٍ غريب، أشعر بالود والتفهّم تجاه جميع الناس. شعرتُ أن بإمكاني أن أسامح كل الناس، أسامح الحياة، أسامح نفسي، أسامح ليلى وأسامح سمير. فتشتُ في داخلي فلم أجد ذرّة من غضب.

فوجئتُ بأني بمجرد أن نويتُ مسامحة الجميع بلا قيدٍ أو شرط اجتاحني شعورٌ غير عادي بالراحة والطمأنينة والحب. شعرتُ أن أثقالاً انزاحت من فوق صدري وأني خفيف، يمكنني أن أطير في فضاء الغرفة إن شئت، لا يوجد شيء ليس باستطاعتي فعله لو أردتُ.

كانت جارتي تمدّ كفها لتمسح دموعها، فمددتُ يدي إليها بمنديل وقلتُ لها مبتسمًا بحب :

قد تحتاجين هذا.

فأخذته مني بابتسامة.

شعرتُ بروحي ترفرف، لم أعد بشرًا فانيًا في تلك اللحظة. انتابني يقين عميق بأني شيء لا نهائي، غير فانٍ، أدركتُ حينها أن التسامح غير المشروط ليس صفة اختص بها الأنبياء فقط. بإمكان كل إنسان أن يتخلص من أثقال الماضي لترفرف روحه هناك في السماوات.

فكّرتُ في ليلى فإذا بي أبتسم. ياالليلى العزيزة المسكينة، لكم عانت معي. لابدّ أنني كنتُ أنانيًا فظًّا معها. لم أنتبه إلى أن برودها وجفاءها معي مردّه خوفها. لم أمنحها الأمان ثم انتظرتُ منها أن تمنحني الحب والدعم بلا حدود. أنا من دفعتُها باتجاه سمير، ثم اعتبرتُها خائنة. ألقيتُها في الماء ثم قلتُ لها إياكِ ثم إياكِ أن تبتلي.

سمير العزيز، كان رفيق طموحاتي في الجامعة، وحينما وصل هو وتأخرتُ أنا إذا بي أنقلب عليه. بدلاً من أن أفرح له وأدعمه وأطلب منه أن يساعدني لنصل سويًا، إذا بي أحقد عليه وأكرهه وأتّهمه بالفشل. كان هو الوحيد الذي اهتمّ بحضور حفل توقيعي، لكنّي لم أشكره، بعدها بساعات اتهمتُ زوجتي بتفضيله عليّ.

ليت سمير وليلى يسامحاني، أخرجتُ عُقدي عليهما ولم أكن زوجًا ولا صديقًا فاضلاً.

وأثناء خروجنا من المحاضرة وسط زحام الحضور، التفتُّ إلى يوسف وقلتُ له بعينين دامعتين :

يبدو أنني لم أقطع آلاف الكيلومترات لآتِ إلى أمريكا سوى للاستماع إلى أماكلي !.

وفي الليلة التي عدتُ فيها إلى القاهرة، وجدتُ عماد ابن خالتي واجمًا وهو يقود سيارته بعد أن أقلني من المطار. سألته عما به، فأجابني دون أن ينظر إليّ :

ليلى طليقتك.. وجدتُ خبرًا في الأهرام يقول إن حفل زفافها على سمير خليل صديقك الليلة !.

شعرتُ بقبضة باردة تعتصر قلبي. إذن فقد تقاربا ووصل الأمر بينهما إلى الزواج ؟.

ظللتُ صامتًا قليلاً، ثم قلتُ لعماد :

هل تعرف العنوان ؟ هل يمكننا الذهاب إلى هناك ؟.

رمقني بفزع. سألني عما أنوي فعله، فابتسمتُ له مطمئنًا :

لا تخش شيئًا.. لن أرتكب شيئًا متهورًا.. أود فقط أن أبارك لهما لنضع جميعًا مشاكل الماضي جانبًا !.

لم يبد مقتنعًا بكلامي، فقلتُ له مبتسمًا :

أنا تغيّرت، صدّقني !.

ومع إصراري اتجه بالسيّارة إلى فندق جراند هوتيل، الذي قرأ في الخبر أن حفل الزفاف سيقام فيه.

تركته في السيّارة بعد أن قلتُ له مطمئنًا :

لن أغيب أكثر من دقائق.. سأهنئهما وأعود سريعًا.

كانت قدماي ترتعشان. هل كنتُ أود أن أثبت لنفسي أنني سموتُ فوق الماضي وسامحتهما، أنني ذلك الإنسان الجديد الذي رأيتُ أماكلي إليبيجيزا تكونه ؟.

لماذا إذن أشعر بالمرارة في حلقي ؟ لماذا لا أشعر في داخلي بالسعادة لأجلهما؟.

وصلتُ إلى باب القاعة، كانت الموسيقى الصاخبة قادمة من الداخل. وقفتُ أمام الباب متردّدًا. يجب أن أحسم أمري.

قرأتُ آية الكرسي في سرّي وأخذتُ نفسًا عميقًا، ثم مددتُ يدي إلى مقبض الباب وجذبته. في الداخل كان الجو صاخبًا. أغلب المدعوّين تجمعوا في وسط القاعة وأحاطوا بليلى وسمير والكل يرقص بسعادة أو يتمايل مع الموسيقى. ليلى ترتدي فستانًا أبيض وقد تركت شعرها الذي طالما كان أجمل ما فيها متجمعًا فوق رأسها في طبقات بديعة، بينما سمير يرتدي بذلة سوداء أنيقة ويصفق بسعادة وهو يرمقها بحب. لمحتُ بين الوقوف بعض زملاء دراستنا.

دائمًا في حفلات الزفاف تكون هناك طاقة من السعادة تسري في الجو، حينما نشارك شخصين سعادتهما التي لن نحصل منها بشكل شخصي على شيء، فإن جزءًا من تلك السعادة ينتقل إلى مسامنا عبر الهواء.

تسمّرت قدماي عاجزتين عن اتخاذ القرار بالتقدم. هل أذهب إليهما فأهنئهما أم أنني سأكون قد كذبتُ على نفسي ؟.

أنا لستُ سعيدًا لهما، هناك جزء بداخلي يرى أن ليلى تخلّت عنّي في محنتي. وسمير خانني حينما تزوجها بعد أن كانت زوجتي. لم يخبرني أحدٌ أصلاً أنهما سيتزوجان، عرفتُ بالأمر صدفة. ولو لم يرَ عماد الخبر في الجريدة لما عرفتُ أن زوجتي قد أصبحتْ لرجلٍ آخر !.

آلمني أن أكتشف أنني لستُ كأماكلي، لستُ الروح المتسامحة غير الفانية التي ظنتْني قد أصبحتُها. بإمكاني التقدم منهما الآن، بإمكاني أن أرسم على وجهي ابتسامة مفتعلة وأهنئهما بحرارة وأتظاهر بأني أحبهما وسعيد لسعادتهما.

لكنّي لستُ كذلك حقًا. لن أكذب عليهما ولن أكذب على نفسي.

تراجعتُ وأغلقتُ باب القاعة وعدتُ إلى عماد وأنا أغمغم بحرارة :

أعِنّي يا رب على تجاوز ما بداخلي من غضب !.

**ترجلتُ** من سيّارة الأجرة أمام ساحة الحرم. كانت أمامي مساحات شاسعة من الأرض المبلّطة بالرخام قبل أن أصل إلى إحدى بوابات الدخول.

كنتُ متهيبًا أشعر بالخجل، لكنّي حينما رأيتُ أسراب الحمام التي تتجول فوق الرخام بحرية تبحث بمنقارها عن الحبوب شعرتُ بشيءٍ من الأمان. المكان الذي يتقبّل وجود المخلوقات العجماء لن يلفظ كائنًا خاطئًا مثلي.

خلعتُ حذائي حينما رأيتُ الناس من حولي يفعلون، فشعرتُ بلسعة الرخام الساخنة بسبب الشمس، وضعتُ حذائي تحت إبطي وعبرتُ بوابة الدخول العملاقة، كان الحرم هائلاً من الداخل، مساحات شاسعة كأنّي دخلتُ قصرًا فخمًا. السقف مرتفع تتدلى منه ثريّات ضخمة، والجدران مزيّنة بالآيات القرآنية واللون الأبيض يغلب على كل شيء. ومن بين الأعمدة، وعلى امتداد بصري، رأيتُ الكعبة تقف تنتظرني من بعيد. شعرتُ بدوار خفيف، كانت كبيرة مهيبة وأنيقة بردائها الأسود، وحتى من تلك المسافة استطعتُ تمييز جحافل البشر التي تحيط بها، ووصلني صوتُ هديرهم.

كان المئات يمرون من حولي، بعضهم يتضح من ملامحه أنه عربي أو أوروبي أو آسيوي أو أفريقي، وبعضهم يحار المرء في تحديد جنسيته. كل الكرة الأرضية كانت تمر من حولي، عيّنات من كل البشر اجتمعوا في صعيدٍ واحد.

– لسنا في المواسم، رغم كل ما تراه أمامك فالحرم ليس مزدحمًا هذه الأيام!.

كان عجوزًا يرتدي جلبابًا أبيض وتنضح عيناه بالوداعة.

– رأيتُ حيرتك وعرفتُ نظرتك.. نظرة من يزور الحرم لأول مرة.

كان السلام يغمرني منذ خطوتُ داخل الحرم، وحين رأيتُ هذا العجوز شعرتُ براحة شديدة، رددتُ عليه بودّ أنها فعلاً زيارتي الأولى للحرم.

أخذ يشير لي بيده لأبتعد وهو يقول بحماس :

ماذا تنتظر إذن ؟ اذهب وألقِ التحية على الكعبة، اذهب، اذهب، إنها تنتظرك !.

هززتُ له رأسي مبتسمًا وانطلقتُ تجاه الكعبة.

خطوتُ في الساحة المكشوفة المحيطة بالكعبة، سمعتُ أن محيط هذه الساحة أقل بقليل من كيلو متر، كان والدي يقول لي في صغري إن من يطوف سبعًا حول الكعبة يكون كأنّه قطع خمسة كيلومترات.

نفس الحمام الذي رأيته في الساحة بالخارج كان يدور حول المصلين والطائفين، بعضه يهبط ليتمشى بوقار أو يبحث عن الحَبّ. كانت هناك خزّانات مياه فاتحة اللون منتشرة في كل مكان، اقتربتُ من أحدها فوجدتُ في مكانٍ مخصصٍ فيه كمية من الأكواب البلاستيكية. تناولتُ أحدها وملأته من الخزّان بماء زمزم ثم أخذتُ أرشفه في بطء متذوقًا طعمه. لم يكن شبيهًا بالمياه العادية المحلاة، هناك مذاقٌ مائعٌ فيه، وضعتُ الكوب في مكانه وأنا أبتهل إلى الله أن يرزقني السلام والطمأنينة.

كنتُ الآن في مواجهة الكعبة، أخذتُ أطوف حولها مع الطائفين، لكنّي لم أستطع الاقتراب منها بسبب الزحام.

ارتفع أذان إقامة صلاة الظهر، فأسرع الجميع من كل مكانٍ يتجمعون وينتظمون في صفوفٍ بعضها وراء بعض. هتف الإمام : " الله أكبر"، وبدأ الصلاة.

وقفتُ أتابع ملامح الخشية والإجلال المرتسمة على وجوه القوم وهم يؤدون صلاتهم وكأنّهم موقنون أنهم يقفون فعلاً أمام الله، يرونه رأي العين، لا يرمش

أحدهم ولا تطرف عيناه. لم أكن أفعل هذا سوى حينما يدركني الجزع في بعض فترات حياتي، حينها فقط كنتُ أصلي بخشوع من يعلم أن من يصلي إليه ينظر له ويطّلع عليه. أدعوه وأناجيه مناجاة من يوقن أن همسه يسمعه من يسمع وقع خُطى النملة على الحصاة، هذا ما فعلته حينما فشلتُ في الانتحار وسقطتُ على المنضدة غير قادرٍ على الحركة. في أيام الرخاء دائمًا ما أصلي – إن صليتُ – بشكل روتيني آلي دون أن أدرك شيئاً مما أفعله. ادعو وأتمتم بالأدعية التي احفظها دون وعيٍ أو تركيز. أشياء أقولها وأفعلها، ثم أنهض من على سجادة الصلاة لأتابع أمور دنياي، دون أن أذكر شيئاً مما قلته أو فعلته. أما هؤلاء القوم فهم يُصلّون بخشوعٍ وتقوى، وكأنّهم يرون الله واقفًا أمامهم، فتدمع أعينهم وتخشع أبصارهم وتنحني رقابهم.

انتبهتُ من خواطري فأسرعتُ أنضم إليهم في الصلاة قبل أن يرفع الإمام من ركوعه، فأدركتُ الركعة. نظرتُ أمامي في خشوع وتمثّل في ذهني أني أقف الآن أمام الله، طوال حياتي كانت فكرة أني أقف أمام الله في صلاتي كبيرة على استيعابي. لم أستطع يومًا تخيّل أن الله بكل عظمته وجلاله سيأتي ليقف أمامي أنا الإنسان الضئيل، لكنّي في تلك اللحظة أدركتُ أني أنا من أذهب إليه، أني الآن خارج نطاق الزمان والمكان. شعرتُ بقلبي يرق ويخشع، وبنفسي تبكي أمام كل هذه العظمة. قرأتُ الفاتحة مناجيًا الله. "اهدنا الصراط المستقيم"، أتوسل إليك يا سيدي أن تهديني سبيل الرشاد،

لا تتركني أضل، اهدني "صراط الذين أنعمتَ عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين"، آمين يا رب العالمين.

لم أشعر في حياتي بمدى قربي من الله كما شعرتُ في تلك اللحظات. ركعتُ مع الراكعين وأخذتُ أردّد سبحان ربي العظيم، فلتتنزه يا مولاي وسيدي عن كل نقيصةٍ وعيب. سجدتُ حين سجدوا، فلهج لساني بترديد سبحان ربي الأعلى، فلتعلو يا ملك الملوك فوق كل شيء. تضاءلتُ بكل أحلامي وطموحاتي ورغباتي أمام نوره. دعوته من كل قلبي، لا إله إلا أنتَ، سبحانك اللهمّ وبحمدك، ظلمتُ نفسي، فاعفُ عنّي، إنك أنتَ العفو الرحيم، لا إله إلا أنتَ، سبحانك اللهمّ وبحمدك، ظلمتُ نفسي، فاعفُ عنّي، إنك أنتَ العفو الرحيم، لا إله إلا أنتَ، سبحانك اللهمّ وبحمدك، ظلمتُ نفسي، فاعفُ عنّي، إنك أنتَ العفو الرحيم.

انتهت الصلاة، فجلستُ في مكاني شاعرًا بالسعادة والطمأنينة. شعرتُ أن الملائكة من حولي يحيطون بي ويظلّلونني بأجنحتهم، أن كل شيء يتحرك ببطء وتؤدة الطمأنينة والأمان، أن لا شيء قادرٌ على إيذائي أو النيل مني، مهما حدث فأنا آمن. وددتُ لو تستمر هذه اللحظة إلى الأبد.

هل هكذا كان يشعر الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يعفو عن أعدائه بلا تردّد ؟ هل هذا هو الشعور الذي تملّك أماكلي إليبيجيزا بعد تجربتها المريرة، فلم تملك إلا أن تحب وتسامح كل من آذوها ؟.

ليتني كنتُ الآن مازلتُ واقفًا أمام باب قاعة زفاف ليلى وسمير، كنتُ سأضع يدي على مقبض الباب بلا تردّد وأدخل إليهما، ربما سيندهشان لأول وهلة حينما يرياني، لكنني لم أكن سأترك لهما فرصة، حتى قبل أن يفكرا في سبب قدومي كنتُ سأحيط عنقهما بذراعيّ وأحتضنهما بقوة، بكل الحب والسلام اللذين يملآن نفسي الآن، وكنتُ سأدعو لهما بصوتٍ عالٍ يسمعه كل من في القاعة، حتى وسط صوت الأغاني المرتفع، بأن تكون السعادة والهناءة رفيقتا حياتهما، ثم نقفز كلنا بفرحة وسط القاعة ونحن نحتضن بعضنا بسعادة.

يا الله، ما أجمل السلام الذي يملأ نفسي، ليته يدوم !.

أنهيتُ أداء العمرة، ونزعتُ ملابس الإحرام وارتديتُ ملابسي داخل أحد الحمّامات، ثم بحثتُ في الحرم عن ركنٍ منزوٍ بعيدًا عن الزحام. وجدتُه في أطراف المسجد البعيدة، لم يكن هناك سوى رجلان يقرآن القرآن وهما يهتزان في رتابة وخشوع. كنتُ مشتاقًا إلى أن أسند ظهري على أحد الأعمدة وأغمض عينيّ مستمتعًا بهذا السلام.

كانت حاويات المصاحف منتشرة في كل مكان، اقتربتُ من أحدها وتناولتُ مصحفًا وفتحته من المنتصف فإذا بها سورة يونس، وأخذتُ أقرأ أول ما وقعت عليه عيناي :

{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

أخذتُ اقرأ وأقرأ ولم أدرِ كم مرّ عليّ من وقت.

لكنّي شعرتُ بهم حولي، لم يكن هناك غيرهم هم والكعبة، رفعتُ راسي فرأيتهم يحيطون بي مبتسمين. أمي وأبي وخالتي وليلى وسمير وأماكلي والشيخ العجوز الذي حدّثني حينما دخلتُ الحرم.

لم أشعر بالدهشة، لم أسألهم كيف أتوا هنا ولا كيف وجدوني، كنتُ أشعر بالسعادة، كانوا يُشعّون بهجةً وسلامًا وكنتُ أُشعّ معهم.

- أبي، أمي، افتقدتكما كثيرًا.

قالت أمي بحنان :

نحن لم نتركك يا حبيبي سوى منذ ثوانٍ قليلة، وأنتَ ستلحق بنا بعد ثوانٍ أخرى.

- أبي، وعدتك أن أنجح وأرفع اسمك فوق الألسنة بالثناء، آسف لأني لم أفعل.

قال أبي بسعادة :

ليس مهمًا ما تفعله يا ولدي، المهم أنك أنتَ أنتَ !.

قالت خالتي :

نحن نحبك لأنك أنتَ أنتَ.

سألتهم بتردّد وأنا أرمق ليلى وسمير :

كلكم تحبونني، أليس كذلك ؟ أشعر بهذا.

قالت ليلى بصوتٍ دافئ :

نحن لا نملك سوى الحب، نحن جئنا من الحب وسنعود إلى الحب ذات يوم.

– لكن.. وقعت بيننا الكثير من المشاكل، أنا أسأتُ إليكِ وأنتِ أسأتِ إليّ وتفرقت بنا السبل، فهل تعود يومًا ؟.

– لو تدري الحقيقة يا خالد، لو تعرف أن كل ما مرّ ويمرّ وسيمرّ بنا ليس أكثر من قصّة غير حقيقية تخطّها في عقلك، كل ما كنّا نفعله كان مجرد أدوارٍ غير حقيقية اخترنا أن نؤديها، وفي النهاية وبعد انتهائنا من أداء أدوارنا هل يُعقل أن نظلّ نتعامل مع بعضنا باعتبار الدور الذي كنّا نؤديه ؟ نحن خارج مكان التمثيل أصدقاء وأحباب.

- لكن.. لو كل هذا وهم، فأين الحقيقة ؟.

قال سمير :

الحقيقة يا صديقي أننا كائنات سماوية، لا نملك سوى أن نحب ونكون مسالمين.

هتفتُ بهم :

نعم، نعم.. أدركتُ هذا منذ فترة، لكن.. لم أستطع أن أكون كذلك سوى لفترات محدودة وعشوائية.. أود أن أعيش حقيقتي بشكلٍ دائم.

قالت أماكلي بحزن :

ستعيشها بشكلٍ دائمٍ حينما تموت وتعود إلى أصلك !.

قلتُ بإحباط :

ألا يمكنني أن أعيشها وأنا مازلتُ في هذه الدار ؟.

غمغم الشيخ العجوز :

أغلب الناس لا يمكنهم عيش الحقيقة سوى لأوقاتٍ محدودة في أعمارهم على الأرض، في لحظات الصفاء والخشوع والسمو، بعضهم يصل إليها عن طريق الصلاة الخاشعة، عن طريق التأمّل، عن طريق الفن الصادق، عن طريق الحب والتسامح.. قلة قليلة جدًا من تعيش الحقيقة طوال الوقت.. وهؤلاء لن يهتموا بأن يُظهروا أنفسهم للعالم، سيظلّون يستمتعون بما هم فيه، مبتهلين إلى الله أن يجنّب العالم ويلات أولئك الذين نسوا حقيقتهم وابتلعتهم رغباتهم.

هتفتُ بلهفة :

كيف يا سيدي، كيف ؟ كيف يمكنني أن أكون منهم ؟ ماذا فعلوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه ؟.

فتحتُ عينيّ فجأة لأجد نفسي مازلتُ جالسًا في الحرم والمصحف في حجري. لم يكن أبي ولا أمي ولا ليلى ولا الآخرين حولي، حتى الرجلين اللذين كانا يقرآن القرآن كانا قد غادرا. نظرتُ بجواري فإذا بالشيخ العجوز جالسًا يقرأ القرآن !.

انتبه إليّ فتوقف عن تلاوته ورمقني :

لم أُرد أن أوقظك.. كنتَ نائمًا تغمغم ببعض الكلمات.

هتفتُ به غير مصدق :

كنتُ.. كنتُ أحلم بك !.

رمقني بدهشة ثم غمغم :

لعلك شعرتَ بوجودي جوارك يا ولدي ثم أدخلني عقلك في حلمك.. للعقل ألاعيب عجيبة كانوا يُدرّسونها لنا في الجامعة !.

قلتُ له بحماس :

هذه إشارة لا يمكنني إهمالها يا سيدي.. لقد أتيتُ إلى هنا بحثًا عن مُعلِّم يرشدني، والآن أثق أنك أنتَ هذا المرشد !.

أغلق الشيخ مصحفه وتأمّلني قليلاً ثم قال :

أنتَ غريب ! ما الذي يجعلك تظنّ أن لديّ شيئًا قد أعلمك إياه ؟.

– ظهورك في رؤياي مع كل من التقوا بي في حياتي وأثّروا فيّ.. هذه إشارة إلى أنه سيكون لك أثرٌ كبيرٌ في حياتي.. وحينما استيقظتُ وجدتُك جالسًا بجواري.. الأمر لا يحتاج إلى ذكاء لأدرك معنى ذلك.

رمقني الشيخ بفضول وسألني :

وما الذي تتوقع أن تتعلمه منّي ؟.

– في رؤياي أخبرتني أن الحقيقة لا يعيشها سوى قلة لا يهتمون أصلاً بإظهار أنفسهم للناس.. واستيقظتُ قبل أن أسألك عن كيفية وصولي إلى ما وصلوا إليه !.

هزّ الشيخ رأسه وغمغم :

للأسف ليست لدي إجابة عن سؤالك يا ولدي، أنا كما ترى مجرد عجوزٍ يحب التأنّس بالجلوس في الحرم.. ويبدو أنني تأخرتُ عن العودة إلى البيت.

واستند بيده على الأرض لينهض، لكنّي أسرعتُ أمسك بطرف جلبابه وأنا أهتف متوسلاً :

أرجوك يا سيدي، لقد قطعتُ طريقًا طويلاً لأصل إليك.. لا أعني المسافة من بلدي إلى هنا.. لقد عانيتُ في حياتي كثيرًا، فشلتُ في المجال الذي اخترته لنفسي وخذلتُ زوجتي فتركتني وتزوجت صديقي وفقدتُ بصري ثم استعدته فجأة.. ولم، لم...

تكلّمتُ كثيرًا واختلطت الكلمات والجمل في فمي، ولم أنتبه سوى والعجوز يُربّتُ على رأسي ويحتضنني لأهدأ بينما أنا أبكي بحرارة !.

- صدّقني يا بني، لستُ أنا من سيعلمك أي شيء.. أنا مجرد واسطة مهمتها أخذك إلى المُعلِّم !.

انتبهتُ مذهولاً إلى كلامه، فقلتُ له وأنا أكفكف دموعي :

ماذا تقصد يا سيدي ؟!.

فيما بعد حكى لي الشيخ العجوز ما يلي :

حينما رآني أقترب منه بعد صلاة الفجر بادرني بالكلام وعيناه الصغيرتان تمتلآن بِشرًا :

رأيتَ رؤيا وتريد أن تستشيرني فيها ؟.

لم أسأله كيف عرف، معه تصير مثل هذه الأسئلة ضربًا من الحماقة. هو عرف لأنه شعر بذلك، رآني فجاءه إلهامٌ بذلك.

– رأيتُ فتىً حائرًا يسألني عنك.

هزّ رأسه بسعادة وغمغم :

يبدو أنه سيأتي اليوم وسيسألك عني.

سألته باهتمام :

أهو ذلك التلميذ الذي أخبرتني عنه ذات يوم ؟.

ضحك ببهجة وقال :

تلميذ ؟ هل صرتُ مدرّسًا ؟ على كل حال أعتقد أنه هو.. أشعر باقترابه، لعله في طائرته الآن قادمًا من بلده إلينا.

– إذن أنا من سأقوده إليك ؟.

هزّ رأسه مغمغمًا :

كلّ ميسّرٌ لما خُلق له.. تأكد فقط من أنه هو.

– وكيف أعرف أنه هو ؟.

– إن كان صادقًا في رغبته في لقائي فهو هو.

وكما نصحني لم أبحث عنك.. علمتُ أنك من سيجيئني، هكذا تسير الأمور، هكذا تجري الأقدار.

مارستُ يومي بشكلٍ عادي كأنّ شيئًا لم يكن.. عدتُ إلى البيت فجلستُ أقرأ بعض الوقت، وجاء أحفادي لزيارتي، ثم حينما اقترب وقت صلاة الظهر توضأتُ وذهبتُ إلى الحرم.. وبعد أن تجاوزتُ بوابة الدخول رأيتك.. نفس الفتى الذي رأيتُه في الرؤيا.. كنتَ تتلفت حولك وترمق الزحام بانبهار، فاقتربتُ منك وقلتُ لك :

- لسنا في المواسم، رغم كل ما تراه أمامك فالحرم ليس مزدحمًا هذه الأيام!.

التفتَ أنتَ إليّ بدهشة، فأسرعتُ أقول لك :

- رأيتُ حيرتك وعرفتُ نظرتك.. نظرة من يزور الحرم لأول مرة.

- صحيح، هذه بالفعل زيارتي الأولى للحرم.

أشرتُ لك بيدي وأنا أقول بحماس :

ماذا تنتظر إذن ؟ اذهب وألقِ التحية على الكعبة، اذهب، اذهب، إنها تنتظرك !.

تتبعتك من بعيد وصلّيتُ الظهر وراءك.. راقبتُك بينما تسعى بين الصفا والمروة، ومشيتُ خلفك وأنتَ تتجه إلى ركنٍ منزوٍ وتجلس مسندًا رأسك لأحد العمدة ثم تستغرق في النوم.. جلستُ بجوارك أنتظر استيقاظك.

حينما نهض الشيخ العجوز طالبًا مني أن أتبعه لم أكن أعرف ما ينتظرني.

سار بي في أروقة الحرم، في البداية كان حولنا زحامٌ، ثم أخذ يقلّ حتى لم يعد هناك إنسان. كنّا في بقعة نائية لا يطرقها أحد.

وهناك رأيتُ المُعلِّم لأول مرة.

كان جالسًا على الأرض مغمض العينين وعلى وجهه ابتسامة، وكأنّه يستمع إلى أغنية خفية لا يسمعها سواه.

كان من الصعب تخمين عمره الحقيقي، ربما في أواخر الأربعينات أو منتصف الخمسينات؛ متوسط القامة نحيل الجسم شاحب الوجه، يميل شعره القصير للصفرة، يرتدي قميصًا أبيض أغلق أزراره حتى العنق وبنطلونًا رماديًا. أدهشني مظهره، توقعتُ شيخًا من شيوخ الصوفية بلحية بيضاء كثّة وغطاء رأسٍ أبيضَ ومسبحة بين يديه لا يكف عن التمتمة بها.

لكننا حينما اقتربنا منه وفتح عينيه ورمقنا بابتسامة مرحبة، زالت دهشتي. كان وجهه ممتلئًا بالسكينة، يبدو منتعشًا كأنّه استيقظ لتوه من نومٍ عميق، وهناك ذكاءٌ غير عادي يُطلّ من عينيه الصغيرتين المرحتين.

شعرتُ براحةٍ شديدة نحوه، أطربني استقباله الحفيّ بنا. لم ينهض إلينا ولم يصافحنا بحرارة، فقط أخذ يرمقنا بحبٍ عميق ووجهه كله يضحك لنا، وكأنّنا أقارب أعزاء لم يرنا منذ سنين.

لم تكن ملامحه تحمل شيئًا من المجاملة، كان ترحيبه السعيد بنا حقيقيًا غير مفتعل. في حضرته شعرتُ بالبهجة تغمرني، وتوقعتُ أن بعد لقائي به لن تعود الأمور كما كانت من قبل.

بعد أن صافحناه وجلسنا غمغم الشيخ العجوز :

مهمتي تنتهي هنا.

وهمّ بالنهوض فأسرعتُ أقول بحرج :

هل ستتركني وحدي يا سيدي ؟.

لم يعرّفني بالمُعلّم ولم يخبره عن قصّتي ولا ما أريده منه.

– سأتركك مع من كنتَ تسعى للقائه وكان في انتظارك !.

كان في انتظاري ؟ كيف ؟.

اتكأ على الأرض لينهض، فسارعتُ لمساعدته وأمسكتُ بذراعه ليتكأ عليّ واقفًا، وهمستُ له :

ماذا تقصد يا سيدي ؟.

– سأخبرك حينما أراك في المرة القادمة.

ومضى مبتعدًا، فعدتُ مترددًا إلى المُعلِّم. كان يرمقني باهتمامٍ ومحبة، ثم وجدته يُسبل عينيه في سكون، ويسألني مشيرًا بإصبعه لأعلى :

هل تسمع ؟.

رمقتُ ما حولي بحيرة، وأصغيتُ. لم يكن هناك سوى صوتٌ مكتومٌ من بعيد للجموع التي تطوف حول الكعبة.

– إحم.. لا أسمع شيئًا يا سيدي.

فتح عينيه وقال لي بابتسامة مشرقة :

هناك ترنيمة تُعزف.

تساءلتُ بحذر :

ترنيمة ؟!.

– كل شيء في الكون يُغنّي ويعزف لحنه الخاص.. كل شيء يؤدّي دوره في أوركسترا كونية لا تتوقف أبدًا عن العزف.

هززتُ رأسي بحيرة :

يبدو أن قلة هم من بإمكانهم أن يسمعوا تلك الترنيمة الكونية !.

– ستسمعها ذات يوم.. أي شخصٍ بإمكانه سماعها والطرب لها.. لو أراد.

ساد الصمت بعدها، ووجدتُه يرمقني بابتسامة وديعة على وجهه وكأنّه ينتظر كلامي، فقلتُ له متردّدًا :

جئتُك يا سيدي لتدلّني على طريق السلام.. كيف أعيش بشكلٍ دائمٍ في سلامٍ وطمأنينة مهما كانت الخطوب ؟.

فوجئتُ به يقهقه ضاحكًا بمرح. كان يضحك بعمقٍ وسعادة، وقد أغمض عينيه وأرجعَ رأسه للوراء وأخذ جسده النحيل يهتز. وحينما توقف عن الضحك، خرج صوته هادئًا متمهلاً يقول لي بخفوت وابتسامة الود مرتسمة على وجهه :

هل تظنّ أنك بحاجة لشخصٍ غيرك ليجيبك على هذا ؟.

أجبته بحزن :

بحثتُ طويلاً عن الإجابة بداخل نفسي لكنّي لم أجدها !.

هزّ رأسه متفهمًا، ثم قال بصوته الخافت :

ستصل إلى السلام النفسي إذا عشتَ طوال الوقت بمحبةٍ وامتنانٍ وتسليم!.

رمقته مصدومًا وغمغمتُ :

هكذا فقط ؟! والآن من المفترض أن أذهب وأعود إلى بلدي والسلام يغمرني ؟!.

عاد يهتز ضاحكًا بنفس المرح. وكأنّه طفلٌ صغير لا يحمل همًّا للدنيا، يطلق العنان لنفسه ويضحك بعمق حتى يكتفي.

– منذ دقيقة أنتَ ساعدتَ صديقنا العجوز على النهوض.. هذا شيءٌ رائع، لكن هل تعتقد أنك أنتَ من قمتَ بهذا ؟!.

خمّنتُ أن هناك فخًا وراء السؤال، ولم أدرِ بماذا أجيب، فغمغمتُ بحيرة :

- أعتقد هذا !.

رمقني بمحبة، وغمغم بصوته الهادئ المتمهل :

ما أشد غرورنا نحن البشر، نعتقد أننا الفاعلون.. أصحاب الإرادة الحقيقية.. أنتَ لم تفعل شيئًا يا عزيزي، أنتَ كنتَ الشيء الذي ساعد على تجلّي أفعال إرادة أعلى وأعظم منك.. إرادة أرادت لصديقنا العجوز أن ينهض بيسر فسخّرتك لتساعده في ذلك.. حينما يشتعل القشُّ بالنار، هل كان ذلك بسبب وجود جذوة نار بجواره ؟ العقل سيقول نعم، أنتَ وأنا سنقول نعم، هكذا تجري الأمور.. لكنّ الحقيقة أن القشَّ أُريد له أن يشتعل، وكان لابدّ من وجود سببٍ يُتيح لعقولنا استيعاب الأمر، وإلا ما كنّا لنفهم شيئًا لو اشتعل القشُّ من نفسه فجأة أمام أعيننا !.

ويبدو أنه لمح الحيرة وعدم الفهم في عينيّ، فقال مبتسمًا :

تخيّل أنك مجرد شخصية في فيلم كارتون، وأراد المؤلف الذي يكتب الفيلم أن يتمّ إنقاذ بطلة الفيلم، فقام بوضع سيناريو تقوم أنتَ فيه بإنقاذها، ثم قام الرسّامون برسم صور هذا المشهد وتحريكه، وفي النهاية تمّ عرض المشهد على الشاشة حيث تظهر وأنتَ تُنقذ البطلة.. هل أنتَ فعلاً من أنقذتَ البطلة ؟!.

– داخل الفيلم، نعم.. لكنّ الحقيقة أنني نفّذتُ السيناريو الذي كتبه المؤلف.

– أنتَ حتى لم تُنفّذ هذا السيناريو يا عزيزي.. أنتَ مجرد صورة أُريد لها أن تقوم بهذا المشهد.. تعاون المؤلف مع المخرج مع المنتج مع الرسّامين لينفذوا المشهد، وظهرت صورتك وأنتَ تقوم به أمام المشاهدين.

في هذه الحياة نحن لا نفعل أكثر من تجسيد الإرادة العظمى في صورة أفعال مادية في عالمنا.. نحن مجرد شاشة كمبيوتر تظهر عليها الحروف والكلمات التي تدفّقها لوحة المفاتيح.. هل شاشة الكمبيوتر هي من تكتب الكلمات وتُظهرها على سطحها ؟!

– هل يعني هذا يا سيدي أننا بلا إرادة ؟ مسيّرون لا مخيّرون ؟.

– بالعكس، نحن لدينا كل الإرادة.. لكنّ إرادتنا تنحصر في قبول أو رفض أن نلعب هذا الدور.. بإمكاننا أن نقبل أن نكون شاشة كمبيوتر تُظهِر الكلمات والحروف أو نرفض.

– كيف نرفض يا سيدي ؟!.

صمت قليلاً، وظهر الحزن على ملامحه :

ألم تقابل في حياتك أشخاصًا ضلّوا طريقهم وما عادوا يدركون هدفهم ؟! ألم ترَ أشخاصًا تحوّلت حياتهم إلى جحيم ليس فيه سوى مشاعر الألم والقلق والإحباط والكآبة والملل ؟.. هذه المشاعر ليست في الواقع سوى إشارات تحذير تدوي في حياتهم طوال الوقت لتنبههم إلى أنهم يسيرون عكس الطريق.. هؤلاء الأشخاص رفضوا أن يكونوا شاشة كمبيوتر !.

وهذا هو أكبر دليل على أننا مخيّرون لا مسيّرون، لو كنّا مسيرين لما عشنا لحظة تعاسة واحدة، لما عرفنا معنى الألم، لأن الإرادة العظمى التي تسيّرنا لن تبغي لنا سوى كلّ جميل.

نحن مخيّرون يا عزيزي، لكنّ مشكلتنا الكبرى أننا نختار في الغالب أن نعيش غافلين !.

– تعني الانهماك في الدنيا والمال والأولاد والممتلكات وما شابه ؟.

– هذه بعض أوجه الغفلة.. لكنّ الغفلة الحقيقية هي أن تعيش وأنتَ لا تعيش، أن تنسى نفسك، تعيش قلقًا تفكّر طوال الوقت فيما وقع لك في الماضي وفيما ينتظرك في المستقبل.. اللحظة الحالية لم تُخلق لنا كي نرفضها ونعيش في زمنٍ تخيلي.. الماضي ذهب وانتهى، دروسه موجودة، لكن هو نفسه لن يعود، والمستقبل ليس بيدنا، وكلّ ما علينا فعله تجاهه أن نجتهد في حاضرنا.. نحن تائهون في الزمن، بينما الزمن ليس سوى فكرة

وهمية اخترعناها من أجل تنظيم حياتنا، لا يوجد زمن حقيقة، الزمن مرتبط بالحدث، فإذا لم يكن هناك حدث فلا يوجد زمن.

في النهاية نصبح كالأشباح، لا نعيش حقيقة، نضيع من أنفسنا.

هل تريد أن تجد السلام والصفاء بشكلٍ دائمٍ ؟.

جد نفسك يا عزيزي، كن أنتَ أنتَ كما كنتَ في الأصل، حينها فقط ستجد ما تريده !.

– وكيف أجد نفسي يا سيدي ؟.

– لو أنك تبحث عن شيءٍ من أشيائك المهمّة، فلنقل ساعتك التي تعرف من خلالها الوقت، وكنتَ تعرف أنها موجودة في مكانٍ ما في السَنْدرة.. ستذهب هناك وتبحث عنها، أليس كذلك ؟.. تخيل أن السَنْدرة مليئة بكراكيب سنين وسنين، أنتَ ملأتها بكل ما يخطر على البال، وربما لا تستطيع حتى أن تفتح بابها لكثرة الأشياء المحشورة في الداخل.

لتصل إلى شيئك القيّم، لتصل إلى ساعتك، عليك أولاً أن تفتح الباب، ثم تتجاوز أطنان الأشياء الموجودة بالداخل بكل ما عليها من تراب وغبار السنين.. البعض قد يبحث عشوائيًا، يرفع هذا الصندوق فلا يجد الساعة تحته، فيعيده إلى مكانه، يرفع تلك الكرتونة فلا يجد الساعة تحتها،

فيعيدها إلى مكانها، ويظلّ يبحث هكذا لأيام.. المشكلة أن الفوضى مازالت كما هي لأنه كان يبحث بشكلٍ عشوائي ويعيد كل شيء إلى مكانه مرة أخرى.. لتجد الساعة عليك أن تُخرج من السندرة كل ما فيها، بنظامٍ وصبر.. ترفع الصناديق واحدًا واحدًا وتنقلها إلى الخارج، وكذلك الكراتين والألعاب المكسورة والملابس القديمة والكتب الصفراء.. حينما تزيل كل شيء ستصبح السندرة مفتوحة أمامك ويمكنك أن تجد ساعتك القيّمة بسهولة.

أزل عن قلبك الأحمال الثقيلة التي حمّلته إياها طوال السنين الماضية، حينما تنظّفه من كل ما فيه من غضبٍ وحقدٍ وخوفٍ ويأسٍ وألمٍ وأنانية.. حينها فقط ستجد بداخله ما تبحث عنه.

شعرتُ بالحرج وأنا أسأله :

أعذرني يا سيدي لو سيبدو لك سؤالي غبيًا بعض الشيء، فأنا أحرص ما أكون الآن على أن أجد نفسي.. لكن.. كيف أزيل الأحمال عن قلبي ؟.

رمقني بهدوء وسألني بعد صمت :

أأنت جادٌ في رغبتك ؟.

– نعم يا سيدي.

– متى سترحل عن الحرم ؟.

– طائرتي تُقلع بعد ثلاثة أيام.

– بإمكاني مساعدتك في وضع قدمك على أول الطريق.. لكنّ هناك ثمنًا يجب أن تدفعه.

– وما هو هذا الثمن يا سيدي ؟

– الجدية والالتزام.. لن تلحق بطائرتك.. لن تغادر الحرم ما لم أسمح لك بذلك، حتى لو بقيتَ هنا سنين طوالاً !.

بدا التردّد على وجهي، فقال لي :

توقعتُ هذا.. الجميع يتمنّون أن يجدوا أنفسهم.. فقط يتمنّون، لكن ليس لديهم استعدادٌ حقيقي لذلك.

أسرعتُ أقول له بلهفة :

أنا جاد يا سيدي، سأكون ملتزمًا معك، ولن أغادر الحرم حتى تسمح لي.

ابتسم وقال :

أفلح إن صدق !.

ثم نهض من مكانه وأشار لي أن أتبعه.. خطى بتؤدة تجاه الساحة المحيطة بالكعبة، وأشار تجاه سربٍ من الحمام :

أترى تلك الحمامة البيضاء ؟ تلك البعيدة عن بقية الحمامات.

هززتُ رأسي أن نعم.

– أريد منك أن تراقبها ! ستجلس هنا ولا تفعل شيئًا سوى التركيز عليها، ستتأمّل عينيها، منقارها، ريشها، رفرفة أجنحتها، انسيابية ذيلها.. لن تفكّر في شيءٍ سواها، ولن يتحرك نظرك سوى معها !.

سألته بدهشة :

وما فائدة ذلك ؟.

– الإجابة ستعرفها وحدك فيما بعد.

عدتُ أسأله :

وماذا لو طارت بعيدًا ؟.

أجابني بيقين :

لن تطير بعيدًا عنك.. ثق في هذا.

– وإلى متى سأظلّ أراقبها ؟.

– إلى أن أعود إليك.. لكن عليك الانتباه إلى ألعاب نفسك، سيبدأ عقلك في العمل ليرفّه عنك، سيثير الكثير من الضوضاء داخلك، ذكريات من الماضي وتساؤلات حول المستقبل ستجدها تتداعى في رأسك تلقائيًا.. عقلك سيحاول أن يسلّيك أمام ما يظنّ أنه ملل، لكنّ تلك الضوضاء هي بعينها الأحمال التي تمنعك من الوصول إلى قلبك !.. انتبه إليها، تعرّف عليها، ثم تجاوزها !.

– وكيف بإمكاني تجاوزها ومقاومتها يا سيدي ؟ لقد اعتدتُ على تلك الضوضاء لثلاثين عامًا، لدرجة أني قد لا أشعر بها إذا بدأت !.

– لا تقاومها، فقط تجاهلها.. حينما يبدأ عقلك في التشريق والتغريب تجاهل ما يفعله، ركّز انتباهك على تنفّسك، الشهيق والزفير، وعينيك على الحمامة.. التنفّس هو الحياة ذاتها، عملية تلقائية لا تستدعي منك جهدًا، تركيزك عليه سيذكّرك بأن هناك نظامًا أعلى منك يتحكّم في حياتك دون جهدٍ منك، وسيذهب بعقلك بعيدًا عن الضوضاء.

ثم نهض وهو يقول :

سأتركك الآن مع قلبك وأذهب لأصلي العصر.

ظللتُ جالسًا في مكاني على الدرجات القليلة التي تقود إلى الساحة المحيطة بالكعبة، يمرّ بي الناس فلا أنظر إليهم، عيناي مركزتان على الحمامة إياها، أتتبع قفزها الرشيق ورفرفتها السريعة بجناحيها.. لم تذهب بعيدًا كما أخبرني المُعلِّم، ظلّت تحوم غير بعيدةٍ عني، أحيانًا كانت تقترب منّي فترمقني بجانب رأسها مسلِّطة عينها السوداء المستديرة عليّ وكأنّها تتساءل ماذا أريد منها.. كان ذهني يشرد كثيرًا، أتذكّر كتاباتي وليلى وسمير وخالتي وعماد، فكنتُ أُوجِّه انتباهي إلى حركة أنفاسي، وأركّز عينيّ على الحمامة، فتزول كل خواطري بعد دقيقتين وأعود حرًا.

قبيل صلاة المغرب جاءني المُعلِّم مرة أخرى، فوجدني كما تركني.

سألني ضاحكًا :

هل شعرتَ بالملل ؟.

أجبته بانفعال :

وأي ملل ! لم أشعر في حياتي بمللٍ كما شعرتُ في هاتين الساعتين !.

هزّ رأسه متفهمًا، وقال بهدوء :

ستستمر يوميًا في مراقبة الحمام من أول النهار لآخره، لن تفعل شيئًا آخر، وستظلّ هكذا إلى أن يأتي الوقت الذي تزول فيه من نفسك مشاعر الضجر والملل حينما تراقب زملاءك من خلق الله.. حينها فقط سأسمح لك بفعل شيءٍ آخر !.

امتلأ قلبي بالغمّ والضيق، وشعرتُ أنني مقبلٌ على أيامٍ سوداء، وداخلني شكٌ إن كان هذا الرجل يعرف ما يفعله.

– طائرتك بعد ثلاثة أيام كما قلتَ لي.. مازالت أمامك فرصة للتراجع.

قلتُ له بضيق :

حسمتُ أمري ولن أتراجع.. فقط اسمح لي أن أغادر الحرم الآن لأتناول طعامي في أي مطعمٍ قريب.. لم آكل شيئًا منذ الصباح.

– لن تغادر الحرم للأكل أو الشرب.. هنا كل ما تحتاج إليه !.

وأشار بيده حوله وهو يكمل :

خزّانات ماء زمزم في كل مكان، وأهل الخير يملأون الحرم بالتمر طوال الوقت.. لن تحتاج أكثر من الماء والتمر لتعيش !.

لكنّه سمح لي بالعودة إلى فندقي لإحضار حقيبة ثيابي.

– لا تأتِ معك سوى بأقل الضروري من ثيابك وأدواتك ليسمح لك حرّاس الحرم بالدخول بحقيبتك، وتخلّص من البقية.. تخفف من أعبائك !.

اتصلتُ من هناك بخالتي وأخبرتها أنني سأتخلف عن الفوج الذي كنتُ معه ولن أستطيع العودة قريبًا.

– وجدتُ هنا بعض الأصدقاء وقد أقيم معهم قليلاً.. أنا بحاجة لهذا بعد كلّ ما مررتُ به مؤخرًا.

بدا عليها القلق والشك، لكنّها لم تملك سوى أن تدعو لي بالتوفيق.

سبعة شهور مرّت عليّ وأنا لا أفعل شيئًا داخل الحرم سوى أداء الصلاة وقراءة القرآن والجلوس طوال النهار لمراقبة حمامة بعينها يقوم المُعلِّم بتحديدها لي من بين الحمام أول النهار، وتظلّ الحمامة قريبةً مني دون أن تبتعد مع رفاقها وتتنقل هنا وهناك، وكأنّها تطيع أوامر المُعلِّم بدورها !.

سبعة شهور قضيتُ الشطر الأكبر منها شاعرًا بالملل، لكنّي كنتُ مصرًا على الإكمال للنهاية. كلما تمكن الغيظ مني ونازعتني نفسي على ترك كل شيء والعودة إلى مصر كنتُ أذكّر نفسي بما أخبرني به الشيخ العجوز. لم أره بعد أن أخذني إلى المُعلِّم سوى مراتٍ قلائل كان يأتي فيها للجلوس معه، في إحداها أخبرني بأنه رآني في رؤيا في نفس ليلة وصولي، وأن المُعلِّم كان ينتظرني منذ فترة. كنتُ أتذكّر ذلك فأصبّر نفسي.

كان المُعلِّم يقيم في الحرم بشكلٍ دائم، يتخذ من البقعة التي قابلته فيها أول مرة مسكنًا. كان العاملون في الحرم يعرفونه ويتجنبون الاقتراب من بقعته كي لا يقطعوا خلوته. لم يكن يملك من متاع الدنيا سوى ملابس قليلة يضعها في حقيبة صغيرة بها أيضًا بعض الكتب. وكان الشيخ العجوز يأتي من آنٍ لآخر ليأخذ منه تلك الملابس – وملابسي لاحقًا – ثم يعيدها إليه

بعد أيام مغسولة ومكوية. وفي بعض الأيام كان يُحضر لنا من بيته بعض الفاكهة والطعام المطبوخ.

كان المُعلّم بسيطًا إلى حدٍ مدهش. تشعر معه أنك تعرفه منذ الأزل، أحيانًا وأنا أجالسه كنتُ أنسى من هو وأتهيأه زميل دراسةٍ قديمًا، لا فرق بيني وبينه. يتعامل بتلقائية الأطفال، حينما يضحك يضحك بكل كيانه ويترك العنان لنفسه حتى يشبع من الضحك، وحينما ينقلب جادًا تشعر أنه لم يضحك من قبل في حياته قط. تراه مبتسمًا دائمًا يرمق ما حوله بحبٍ وسكينة، منتعشًا تبرق عيناه بالسعادة. لكنّ أكثر ما أدهشني فيه هو روحه المرحة، كان يحب المزاح والضحك، وينتهز الفرص ليلقي الدعابات.

في اليوم التالي للقائي به سألته عن اسمه، فقال لي ضاحكًا :

هل سألتُك عن اسمك لتسألني عن اسمي ؟.

انتبهتُ حينها إلى أنه لا هو ولا الشيخ العجوز سألاني عن اسمي.

– الأسماء ليست حقيقتنا، الأسماء ليست مهمّة، البشر يتخذون الأسماء ليميزوا بعضهم.. وهنا أنتَ وأنا لا نتعامل سوى مع بعضنا، فلماذا الأسماء؟.

ولم أعرف شيئًا عن ماضيه، من هو وماذا يعمل. من أي البلاد جاء وما هي قصّته ؟.

– الماضي ليس مهمًا أيضًا، ليس حقيقتنا، المهم من نحن الآن.

وهكذا لم يترك لي فرصة لأخبره عما وقع لي في حياتي.

كان يتحدّث معي بالعربية الفصحى، ومن لكنة كلامه استطعتُ تخمين أنه ليس عربيًا، ربما هنديًا أو باكستانيًا.

كانت حياتي داخل الحرم تمضي بسلاسة ويسر، حينما يأتي الليل أنام على الأرض قريبًا من المُعلِّم في بقعته أو في أي مكانٍ أختاره لنفسي. في الصباح أذهب إلى الحمّامات الفخمة المنتشرة في ساحة الحرم، فأستحمّ وأقضي حاجتي وربما أحلق ذقني، وأشرب من ماء زمزم حتى أرتوي. ثم أذهب لأراقب الحمامة التي يحدّدها ليّ المُعلِّم، ولا أنقطع عنها سوى للصلاة.

كانت الأفكار والخواطر تتصارع في ذهني دون أن أملك التحكم فيها، تأخذني إلى الماضي والمستقبل، إلى ذكريات حزينة أو مفرحة، أغاني كنتُ أحبها في طفولتي تدور في رأسي فجأة، حوارات كنتُ قد نسيتها تنبعث من المجهول، أرى ورقة ملقاة على الأرض فتبعث في ذهني ذكرى خطاب غرامي كتبته لبنت الجيران في مراهقتي لكنّي خجلت من إعطائه لها، وبنت

الجيران تذكّرني بامتحان الجغرافيا الذي لم أذاكره جيدًا لأني ظللتُ طوال الليل أفكّر فيها، نسيتُ مقدار مساحة أوغندا وحصلتُ على درجة متدنية، أوغندا تذكّرني بما فعله الأوروبيون بالقارة السمراء، وهذا يذكّرني بيوسف الذي كان يفكّر منذ سنين في ترك البلد والهجرة لأمريكا، وأمريكا تذكّرني بأفلام هوليوود، وأفلام هوليوود تذكّرني بجيمس بوند، الذي يذكّرني بدوره برأفت الهجان، وأفقد انتباهي بعض الوقت بينما تيار الأفكار يتصارع في ذهني، وحينما أنتبه أفاجأ بنفسي وصلتُ بتفكيري إلى عصير القصب، لا أدري كيف !.

قال لي المُعلّم مبتسمًا :

دماغك يحاول تسليتك، يحاول أن يعمل بلقمة عيشه ! يجب أن تقنعه بأنك لستَ بحاجة إلى كل هذه الضوضاء التي يثيرها، هذه الضوضاء هي سبب عدم قدرة كثيرين على الوصول إلى السلام النفسي، كيف يفعلون وهم يعيشون أغلب الوقت ضمن ذكريات أليمة مرّوا بها أو يخشون أن يمروا بها؟.

في الأسابيع الأولى كنتُ أشرد كثيرًا، كان عقلي يعج بالضوضاء، وكلما انتبهتُ كنتُ أعيد تركيزي إلى الحمامة، إلى أنفاسي المنتظمة، فتصفو نفسي قليلاً ويقلّ الصخب في رأسي.

مع الوقت بدأت علاقة خاصة تنشأ بيني والحمام، في البداية بدأت الحمامة التي أراقبها في الاقتراب مني والدوران حولي بحذر، ثم بعد فترة أصبحت تقف أمامي تتأمّلني كما أتأمّلها، وفي النهاية أصبحت تمر بجواري بلا وجل، وأحيانًا تتمسح في قدمي ثم تبتعد لتقف أمامي. بدأتُ أشعر أن هناك درجة ما من الاتصال قد نشأت بيني وبين هذه الكائنات، وكأنّ روحي تآلفت معهنّ وأصبحت تناجيهنّ وتتواصل معهنّ.

حينما أراهنّ في الصباح الباكر تهتف نفسي دون صوت : كيف حالكنّ يا صديقاتي، نهارٌ سعيدٌ في رحاب الله المباركة !.

مع الوقت لاحظتُ زيادة تركيزي، أصبح بإمكاني الإحساس بكل ما يمر بي، لم أعد أنتبه فجأة إلى أنني كنتُ غائبًا طوال الساعة الماضية في مكانٍ ما، في زمانٍ ما، دون أن أشعر بما يحدث حولي.

لم أعد أشعر بالملل والضيق، لم تعد الدقائق تمر عليّ ثقيلة رتيبة، لأني ببساطة لم أعد أفكّر في الثواني القادمة، أصبحتُ دون أن أشعر مستغرقًا في اللحظة الحالية وأنا أتبادل النظرات مع الحمامة.

ومع الوقت انساب شعورٌ بالبهجة داخل نفسي، بدأتُ أشعر بالأمان والسعادة بلا سبب.. فيما بعد أخبرني المُعلِّم أنني كنتُ أستشعر للمرة

الأولى شعور الحضور في اللحظة، التخلّص من أعباء الماضي ومخاوف المستقبل.

وفي نهاية الشهر السابع قلتُ للمعلم بثقة :

لم أعد أشعر بالملل يا سيدي، لم أعد أفكّر في الوقت.. أشعر بالبهجة والأمان يملآن جنباتي !.

كنتُ أخشى أن يشكك في كلامي أو يجري لي اختبارًا، لكنّه رفع نظره عن مصحفه، وتفرّس في وجهي قليلاً ثم ابتسم لي :

رائع، أنتَ مجتهد، أنجزتَ المهمة سريعًا.. أنتَ أسرع من فعلها، أحد من سبقوك احتاج الأمر منه إلى ثلاث سنوات !.

سألته بدهشة :

هل كان هناك آخرون غيري تعلّموا على يديك ؟.

– أنا لستُ مُعلّمًا سوى لنفسي.. أنا فقط أساعد من يطلب المساعدة ليكتشف أشياء كان يعرفها في أعماقه لكنّه نسيها.

ثم نهض وأخذ يبحث عن شيءٍ ما في حقيبته الصغيرة، عاد ومدّ يده لي بمرآةٍ صغيرة، فتناولتها منه متسائلاً.

- انظر إليها، ماذا ترى ؟.

رمقتها وأنا أعرف سلفًا ماذا سأرى. وجهي الأسمر البيضاوي وعينيّ الواسعتين العسليتين وجبهتي العريضة ولحيتي النابتة والصلع الخفيف في مقدمة رأسي. الوجه الذي أراه في المرآة منذ ثلاثين عامًا !.

- أرى وجهي !.

سألني فجأة :

هل تحب نفسك ؟.

- ومن الذي لا يحب نفسه يا سيدي ؟ ربما مشكلتنا كبشر أننا نحب أنفسنا أكثر من اللازم ونعتقد أن الكون لم يُخلق سوى لنا !.

اهتز جسده وهو يضحك، ثم قال لي :

هناك فرقٌ يا عزيزي بين أن تُحب نفسك ذلك الحب الأناني الذي ينشأ من غريزة البقاء وبين أن تحبّها لأنك تقدّرها وتحترمها.

أربكني كلامه. هل أحترم نفسي ؟.

هززتُ رأسي بحيرة :

لم أفكّر من قبل إن كنتُ أحترم نفسي أم لا.. الحقيقة، الأسباب التي تدعوني لعدم احترام نفسي أكثر بكثير من التي تحملني على احترامها !

ابتسم بتعاطف :

ستجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك.. من الآن فصاعدًا لن تفعل شيئًا سوى الجلوس في ذلك الركن المنزوي هناك خلف ذلك العمود.. ستنظر إلى وجهك في المرآة طوال الوقت وستتعامل مع الخواطر التي تنتابك.. ستخبرني في نهاية كل يوم بما شعرتَ به تجاه نفسك.

لم أشعر أن هذا التمرين سيفيدني كثيرًا، لكنّي أظهرتُ له الحماس. وفي نهاية اليوم الأول قلتُ له بخجل :

لم أؤد التمرين كما ينبغي.. لم أستطع النظر إلى نفسي سوى ساعتين ثم شعرتُ أنني سأجن ! أحفظ وجهي جيدًا ولستُ بحاجة للنظر إليه طوال هذا الوقت !.

هزّ رأسه متفهمًا :

مواجهة النفس قد تكون صعبة في البداية.. جرّب أن تركّز في عينيك، غص فيهما، ثم ابدأ في محاورة نفسك.. بدون صوت، ركّز على خواطرك وما

يدور في ذهنك من أفكار تجاه نفسك.. أنا واثقٌ أنك ستجد كلامًا شيّقًا تقوله لنفسك !.

فعلتُ كما أمرني وبدأتُ أنتبه إلى حواري الداخلي مع نفسي. ماذا بإمكاني أن أقول لتلك العينين اللتين ترمقانني بالنتباه، المفروض أن أحبك وأحترمك يا صديقي، لكن كما قلتُ للمُعلِّم أول أمس : هناك العديد من الأسباب التي تحملني على عدم احترامك ! هل تريد سماع بعضها ؟.

أنتَ غبيّ ! غبيّ ولا تستفيد من أخطائك، ماذا كان سيضرّك لو أنك حينما تخرجتَ من الكليّة اتجهتَ مباشرة للعمل في مجال تخصصك بدلاً من انتظار فرصة قد لا تجيء في عالم النشر ؟ لماذا تعاملتَ بتكبّرٍ مع كل الفرص التي أتتك ؟ لماذا تزوجتَ ليلى بينما أنتَ غير مستعدٍ لفتح بيت ؟ أردتَ أن تحصل على كل شيء، أن تعيش عيشة الصعاليك الذين لا يحسبون حساب يومهم ولا غدهم وفي نفس الوقت تستمتع بإقامة أسرة سعيدة مستقرة.. أتدري ؟ ليلى كانت على حق في كل ما قالته، أنتَ بلا طموح أصلاً، ليس لديك استعداد للنجاح، ظللتَ تدور في دوائر لتعود إلى نقطة البداية في كل مرة، لماذا تعيش ؟ ما فائدتك في الحياة ؟ ماذا قدّمتَ لأي أحد ؟ ماذا قدّمتَ لنفسك ؟ كنتَ ومازلتَ عالةً على خالتك وابنها، كأي عاجز لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا.. أهذا ما كنتَ تريده ؟ أهذا ما حلمتَ به ؟ أهذا ما ستفخر به أمام والديك حين تلتقيهما ذات يوم ؟ انظر إلى وجهك البليد، عينيّك الخاويتين.. أتدري ؟ لو كان الأمر بيدي لأطلقتُ

عليك رصاصة لأجل مصلحة العالم، نفس الرصاصة التي تُطلق على الكلاب الضالّة كي لا تؤذي الناس بنباحها في الشوارع، أنتَ كلبٌ ضال.. حتى الكلب الضال يكون مفيدًا أحيانًا في مهام الحراسة، لكنّك أنت لم تُخلق سوى لتأكل وتشرب وتنام وتتظاهر بأن لديك طموحًا وأحلامًا، بينما أنتَ في الحقيقة لا شيء، لا شيء !.

جاءني المُعلِّم في نهاية اليوم الثاني فوجدني متكومًا على نفسي أبكي بحرقة.

احتضنني وأخذ يُربتُ على ظهري ويهدهدني كطفلٍ صغير.

– لا عليك، لا عليك، لقد فتحتَ الصندوق الأسود الذي خشي كثيرون غيرك أن يفتحوه.

ثم التقط المرآة التي سقطت بجواري وقرّبها من وجهينا، رأيتُ انعكاس وجهي المتجهم محمر العينين بجوار وجهه المشرق المستكين.

– انظر جيدًا، أنا أحب وجهي، وأنتَ أيضًا تحب وجهك، لكنّك لا تدرك ذلك.. لا تحكم على نفسك بناءً على ماضيك، لا تُحمّل نفسك مسؤولية ما وقع لك وما آلت إليه الأمور، في كل مرحلة من حياتك كان عليك الاختيار بين عدة خيارات، وأنتَ كنتَ تختار بناءً على ما توافر لديك وقتها من خبرة ووعي.. خبرتك ووعيك الآن يخبرانك أن كثيرًا من خياراتك كانت

خاطئة، لكن عليك أن تدرك أنك وقتها لم تكن تملك ما تملكه الآن، وليس عليك أن تتمنى عودة الماضي لتعيد الاختيار، اختياراتك الماضية حتى ولو كانت كارثية فهي ما صنعت منك ما أنتَ عليه الآن.. لم يكن الأمر عبثًا ولا هدرًا، لقد كان ضروريًا لتنضج وتصبح أنتَ أنتَ !.

مسحتُ دموعي، وقلتُ له وأنا أنهنه :

لكنّي.. لكنّي دفعتُ أثمانًا باهظة نتيجة خياراتي.. كان من الممكن أن أكون في وضعٍ أفضل، مع أشخاصٍ أفضل، لو لم.. لو لم...

وانفجرتُ في البكاء، فأخذ يربتُ على ظهري وغمغم بحنان :

لا يوجد "لو لم".. لو عاد الزمن يا عزيزي فستختار نفس الخيارات أو خيارات موازية لها ستنتهي بك إلى نفس النقطة التي أنتَ فيها الآن.. ليست الفكرة هنا في تغيير مصيرك، ولكن في "ما الذي استفدته".. لقد كان عليك خوض التجربة، وستظلّ تخوضها وتخوضها وتخوضها إلى أن تصل لدرجة النضج والوعي الكافيين لتنتقل إلى مرحلة جديدة، وفي مرحلتك الجديدة ستخوض تجارب جديدة وستختار ما بين خياراتٍ جديدة، وقد تصيب وقد تخطئ، ستظلّ كذلك إلى أن تستوعب الرسالة المطلوب منك استيعابها في تلك المرحلة، وبعدها تنتقل إلى مرحلة جديدة أخرى، وهكذا.. ليس عليك لوم نفسك لأنه لن يكون سوى ما هو كائنٌ

بالفعل.. أنتَ بذلتَ جهدك فيما مضى وفق ما كان متاحًا أمامك. وحتى ولو أخطأت، فليس عليك لوم نفسك، عليك فقط الاستفادة من خطئك وعدم تكراره.

- لكن.. لكن.. الأمر صعب !.

- اجعله سهلاً إذن، انتبه جيدًا واستوعب الرسالة بسرعة ولا تترك نفسك تدور في دوائر لا أول لها ولا آخر !.

في اليوم الثالث كنتُ مستعدًا أكثر للنظر إلى وجهي في المرآة، بدأتُ أشعر بشيءٍ من التقبّل لماضيّ. بدأتُ ألاحظ مسامات وجهي وبعض البثور المتناثرة هنا وهناك، وإن ظلّ بداخلي بعض النفور.

في اليوم الرابع قلّ النفور، وشعرتُ بشفقة شديدة على نفسي، فأخذتُ أبكي وأنا أرمق وجهي.

يالك من صغيرٍ مسكين، وجدتَ نفسك في هذا العالم فجأة ولم تدرِ كيف تتصرّف، أخذتَ تتخبط وترمق ما حولك بذعر، حاولتَ وفشلتَ ولمتَ نفسك، شعرتَ بالتهديد فتصنّعتَ القسوة، ظننتَ أن الآخرين سيتخلون عنك لو فشلت، فتركتَ كل شيء وحاولتَ أن تنجح بأقصر طريقٍ ممكن، لو كانت بداخلك أي قدراتٍ تمثيلية لجرّبتَ حظك في السينما، لو كانت لديك أي قدراتٍ فنية لحاولتَ أن ترسم أو تنحتَ التماثيل، كنتَ تريد

الشهرة، أن يعرفك الناس ويعجبوا بك.. لأنهم إذا عرفوك وأعجبوا بك فسيحبوك، وحينها ستأمن شرَهم، ستمشي بينهم آمنًا مطمئنًا، لن يحاول أحدهم ضربك أو إيذاءك، لقد غلبك الخوف، فتعالَ إلى حضني لأمنحك الدفء والأمان.

جاءني المُعلِّم في نهاية اليوم فوجدني أرمق المرآة والدموع تترقرق في عينيّ، ابتسم بتفهم ثم جلس بقربي وأخذ يقرأ في المصحف.

في اليوم الخامس كانت لديّ لهفة لمطالعة وجهي، استيقظتُ فأسرعتُ إلى المرآة الصغيرة وأخذتُ أرمقني باهتمام، أنا لستُ سيئًا كما كنتُ أظنّ. وجودي في هذا المكان بعيدًا عن أهلي ووطني، سعيي لإيجاد نفسي، محاولتي الترقي، دموع عينيّ، هذا دليلٌ على أنني لا بأس بي. بداخلي بذرة طيبة عليّ رعايتها والاهتمام بها.

وبعد مرور شهرٍ جاءني المُعلِّم في نهاية اليوم، فوجدتُني أقول له بحماس :

اليوم ضبطتُ نفسي أفكّر في تقبيل وجهي في المرآة ! لو استمرّ الوضع هكذا يا سيدي فسأنتهي كما انتهى الفتى نركسوس !.

ضحك مغمض العينين وقد عاد برأسه للوراء، واهتزّ جسده النحيل، ثم ربّتَ على ظهري :

اطمئن، لن تصبح نرجسيًا.. كان من الضروري أن تتصالح مع نفسك قبل أي شيء.. ستأتي عليك أوقاتٌ ويحدث سوء تفاهم بينك وبين نفسك، ستلومها على أشياء لم يكن لها يدٌ فيها، ستكرهها أحيانًا وتتمنى لو تعاقبها.. تذكّر حينها تمرين النظر إلى المرآة.. قل لنفسك "أنا هو أنا"، فتستعيد مشاعر الحب والاحترام تجاه نفسك.

وقبل أن أسأله إن كنتُ سأستمر في التمرين فترة أخرى أم لا، إذا به ينهض وهو يقول لي :

سنذهب الآن إلى حِجر إسماعيل.

وأخذ يشرح لي ونحن في الطريق :

كانت الكعبة فيما مضى مستطيلة الشكل وليست مربعة كما تراها اليوم.. في عهد النبيّ وقبل بعثته أرادت قريش أن تجدّد بناء الكعبة، لكنّهم قرروا ألا يستخدموا في تجديدها مالاً حرامًا، لأنهم كانوا يمارسون الربا.. وبالفعل تمّ جزءٌ من البناء، لكنّهم لم يجدوا مالاً حلالاً ليكملوه، فقرّروا أن يتركوه كما هو ! فقط وضعوا الحِجر ليدل على أن هذا المكان هو جزءٌ من الكعبة كي يطوف الناس من حوله لا من داخله.. العامة يطلقون عليه حِجر إسماعيل، لكنّ الحقيقة أنه لا علاقة له بسيدنا إسماعيل.. هو الحِجر فقط !.

كانت الأعداد التي تطوف حول الكعبة قليلة نسبيًا. جلسنا سويًا داخل حِجر إسماعيل، وأخذ يتابع الطائفين بعينيه صامتًا.

– أترى هؤلاء الناس ؟ أتراني ؟ أترى من يجاوروننا ؟ لا أقصد الأجساد بل ما يحرّك الأجساد، الروح.. أتعرف ما أصلها ؟.. حينما خلق الله آدم نفخ فيه من روحه، كل تلك الأجساد التي تراها حولك تُحركها نفخة من روح الله.. نحن لا ندرك ماهيتها، لكنّها شيءٌ عظيمٌ جدًا، سامٍ جدًا، طاهرٌ جدًا.

وعاد إلى صمته وهو يرمق ما حوله متأثرًا.

– معذرة يا سيدي، لكن.. ما الشيء التالي الذي يجب عليّ أن أفعله الآن؟.

التفتَ إليّ وظلّ يتأمّلني قليلاً، ثم غمغم بخفوت :

أنتَ تأمّلتَ مخلوقًا من مخلوقات الله لعدة شهور، تأمّلتَ الحمام، الآن حان الوقت لتتأمّل المخلوق الأعظم.. ستراقب هؤلاء الناس، الطائفين والمصلين والسائرين، ستراقب أي إنسانٍ يمر بك.. لكنّي لا أريدك أن تراه هو، أريدك أن تراه على حقيقته.. أريدك أن تتمثّل نفسك في كل من حولك.. بدلاً من ملامحهم ترى ملامحك أنتَ.. أترى ذلك الرجل ذا الملامح الأوروبية هناك ؟ بدلاً من ملامحه الأوروبية تلك سترى ملامحك أنتَ، وذلك الأفريقي، بدلاً من ملاحمه الأفريقية سترى ملامحك أنتَ..

هؤلاء هم أنتَ لكن متنكرين في صورٍ أخرى مختلفة.. ستقضي النهار بطوله تراهم أنتَ، "أنتَ" تسير من حولك في كل مكان، "أنتَ" يطوف و"أنتَ" يسعى و"أنتَ" يصلّي و"أنتَ" يأكل و"أنتَ" يتناول كوبًا من ماء زمزم.. ثم حينما يحلّ الليل ستراهم يستعيدون ملامحهم التي تنكروا فيها مرة أخرى، ترى كل واحدٍ منهم للوهلة الأولى أنتَ ثم في الوهلة التالية تتغير ملامحه بسلاسة لتتخذ شكله.. ستظلّ تفعل ذلك بلا توقف إلى أن أخبرك بأنه حان الوقت لتتوقف !.

كنتُ أرمقه بدهشة وقد انعقد لساني. ضحك بعمقٍ وقال لي :

أتمنى أن تكون دهشتك هذه مردُّها إلى أنك تراني الآن كأنّي أنتَ !.

صرتُ أسير بين الناس أتأمّلهم وأتخيّلهم أنا في صورٍ أخرى. في اليوم الأول فشلتُ تمامًا لأني كنتُ أحاول تخيّل أن جميع من حولي "أنا" في نفس الوقت، وكان الأمر مستحيلاً مع المئات الذين يمرون بي حول الكعبة. لذلك قررتُ في اليوم الثاني التروي في الأمر، فصرتُ أنتقي شخصًا بعينه وأتخيل ملامحي على وجهه، لكن بعد دقيقة كانت ملامحه تعود للظهور من جديد. حاولتُ كثيرًا، وفي نهاية اليوم ذهبتُ إلى المُعلّم وقلتُ له بإحباط :

يمكنني أن أرى ملامحي على وجوه الآخرين لعدة دقائق ثم تعود ملامحهم للظهور من جديد !.

- تعالَ معي.

تبعتُه إلى ساحة الحرم الخارجية حيث الحمّامات التي يتوضأ فيها زوار الحرم أو يقضون حاجتهم أو يستحمّون. دخل المُعلّم أحد هذه الحمّامات وأشار لي إلى أحد أحواض المياه. كانت قطراتٌ من الماء تقطر من أسفله ببطء لتسقط داخل جردل مستقرٍ تحته.

- هذا الحوض به مشكلة في السباكة.. لم ينتبه إليه أحد بعد، فقمتُ أنا بوضع جردل المياه هذا أسفله كي لا تتبلل الأرضية.

نظرتُ داخل جردل المياه حينما طلب منّي المُعلّم ذلك، فوجدته ممتلئًا بالماء إلى قرب حافته.

- وضعتُه بالأمس فقط تحت الحوض.. كل هذا الماء تكّون من القطرات القليلة التي تقطر من الحوض.. ربما قطرة كلّ ثانية أو ثانيتين، لكنّها مع الساعات ملأت الجردل !.

هززتُ رأسي متفهمًا وقلتُ له :

فهمتُ يا سيدي.. سأصبر على نفسي أكثر.

وعدتُ لمتابعة التمرين بإصرارٍ وعزيمة.

استعنتُ بقوة التركيز التي حصلتُ عليها من تأمّل الحمام، وفي الأسبوع الأول أخذتُ أركز على شخصٍ واحدٍ أختاره وأتخيّل ملامحي على وجهه. كانت ملامحي تزول بسرعة بعد دقائق، لكنّي تابعتُ التخيّل بإصرار، ومع نهاية الأسبوع صار بمقدوري الاحتفاظ بملامحي على وجه الرجل لفترة طويلة.

في الأسبوع الثاني أصبح الأمر أسهل، وأصبح بمقدوري أن أختار رجلاً وأضع ملامحي على وجهه قدر ما أشاء، ثم أتركه فجأة وأتحوّل إلى غيره وأقوم بنفس الشيء معه.

وحينما جاء الأسبوع الثالث بدأتُ أضع ملامحي على أكثر من شخصٍ واحدٍ في نفس الوقت، بدأتُ باثنين ثم رفعتُ العدد إلى ثلاثة ومع نهاية الأسبوع صار بمقدوري تخيّل ملامحي على خمسة رجالٍ متفرقين يسيرون في أماكن مختلفة.

وفي الأسبوع الرابع بدأتُ أتدرّب على تخيّل ملامحي على وجه جميع السائرين حولي مهما كان عددهم.

"أنا" يسير بجواري بسرعة يدفع كرسيًا متحركًا عليه "أنا" عجوز، "أنا" يسعى بين الصفا والمروة ومعه "أنا" زوجته، و"أنا" و"أنا" و"أنا" أولاده.. "أنا" و"أنا" و"أنا" يقفون صفوفًا ليصلّوا الظهر بجوار مقام سيدنا إبراهيم، "أنا"

جالس تحت ظلّ عمودٍ يأكل بعض التمر، "أنا" صغير يركض بسعادة ويحاول مطاردة الحمام. كلّهم أنا متنكرون في أشكالٍ مختلفة.

وجدتني أذوب حبًا في الجميع، أشعر بصِلةٍ كبرى بيننا، لم يعودوا أغرابًا لا أعرفهم، أصبحوا قريبين مني، أبتهل إلى الله في سرّي أن يوفّقهم جميعًا ويعيدهم إلى بلادهم سعداء سالمين.

رأيتُ "أنا" يسير مترنحًا وكأنّه سيسقط فأسرعتُ إليّ أسندُني وأُجلسُني في بقعة ظليلة، وملأتُ لي كوبًا بلاستيكيًا بماء زمزم وقربتُه من شفتيّ، فأخذتُ أرشف ببطء، ووجدتني أغمغم بضعف :

شكرًا يا ولدي، جزاك الله خيرًا.

لوهلة اندهشت، على ماذا أشكر نفسي ؟ ثم أفقتُ فرأيتُ ملامحه العجوز المتغضنة التي تنكّرتُ فيها، فقلتُ له مشجعًا :

لا تقسُ على نفسك يا جدّي، استرح قليلاً ثم أكمل أداء الشعائر فيما بعد.

أصبحت حياتي عبارة عن متعة متصلة، لا أفعل شيئًا سوى الدردشة مع نفسي حول طريقة الحياة التي أعيشها في بلدي البعيد تركيا أو نيجيريا أو فرنسا، أو أكل التمر مع نفسي في البقع الظليلة والحديث عن طفولتي السعيدة في المغرب أو اليمن أو السودان، أو دفع كرسي متحرك عبر

مسعى الصفا والمروة جلستُ فوقه لأن سنّي الكبيرة لا تساعدني على المشي لمسافاتٍ طويلة.

وجدتُ نفسي تقترب مني وتضع يدها على كتفي وتقول لي :

مضت ثلاثة شهور يا عزيزي، كيف أنتَ الآن ؟

أهذا هو المُعلِّم ؟.

– وجدتُ صعوبة في تمييزك يا سيدي.. تسألني عن حالي الآن ؟ أنا أعيش محبة لا توصف، أترى كل هؤلاء الناس ؟ كم عددهم ؟ آلاف ؟ ملايين ؟ كلهم أحبابي، كلهم أنا.. أتذكّر بصعوبة الشخص الأحمق الذي كنته منذ عدة شهور، حينما كنتُ أخاف الناس وأغضب منهم وأتعارك معهم.. لم أكن أعلم شيئًا وقتها، كنتُ أراني "أنا" وأراهم "هم"، وكنتُ أخاف على "أنا" من "هم".. الآن لم يعد هناك "هم"، لم أعد أرى سوى "أنا" و"نحن".

رمقني بنظرة حب متفهمة، قابلتُها بنظرة امتنان. صار لمثل هذه النظرة معنىً وأثر في داخلي.

– ما رأيك أن تسمّي ما تفعله بمبدأ "كُلّنا أنا" ؟ كلّما نسيتَ وغفلتَ تذكّر الكلمتين "كُلّنا أنا" فتستعيد نظرتك إلى الآخرين.

كنتُ أتوقع أن يأمرني بإنهاء التمرين والبدء بتمرينٍ جديد، لكنّه لم يفعل وأنا لم أعترض. كنتُ أريد أن أمارس "كُلّنا أنا" طوال الوقت.

بعد يومين جاءني وقال لي مبتسمًا :

جميلٌ أنك صرتَ تعيش الحب المطلق، الحب اللا مشروط، الذي لا يعتمد على الشكل أو ردّات الفعل.. عندما تحب الآخرين بهذا الشكل فإنك لا تحبهم لذاتهم ولكنّك تحب الله وتحترم الحياة من خلالهم.. أنتَ الآن تدرك بينما تتعامل مع الآخرين أنهم ما هم سوى أنتَ.

أنتَ بحاجةٍ الآن إلى فترة راحة بعد التمارين التي مررتَ بها طوال السنة الماضية.. لن تفعل شيئًا في الفترة القادمة سوى ترديد "لا حول ولا قوة إلا بالله".. هذه الجملة القصيرة تحوي سرًا من أعظم أسرار الكون، بل ربما تكون السر الأعظم ذاته.. هذه الجملة يُقرّ قائلها بأنه لا يملك شيئًا من أمر نفسه، لا يستطيع التحوّل من حالٍ إلى حال، لا يملك القوة على فعل الأشياء، ينفي عن نفسه القدرة والاستطاعة، ويستمدهما من مصدر كل شيء.. أريد منك أن تردّدها بقلبك، لا أريد للسانك أن يتحرك، أريد قلبك أن يردّدها، لا تقُلها أبدًا ما لم تكن تستشعر معناها.. ستعرف أنك استشعرت معناها إذا انتابك شعورٌ عميقٌ بالسكينة والأمان، لأنك حينها تكون قد سلّمتَ فعلاً.

جلستُ في بقعتنا المتطرفة بعيدًا عن العيون، وأخذتُ أردّد مغمض العينين "لا حول ولا قوة إلا بالله" بيني وبين نفسي، يمضي الوقت وأنا لا أفعل سوى الترديد ببطء.

– ليس مهمًّا عدد المرات، مرة واحدة تقولها فيها وأنتَ تستشعر معناها بقلبك خيرٌ من أن تردّدها مائة ألف مرة بلسانك !.

مع الوقت تشبث بالشعور، شعور الاستسلام التام، تخلّص من صيغة الجملة واستمسك بالشعور وقوّه بداخلك.. اشعر به بكل جوارحك وحرّكه بداخل جسدك، اغسل روحك به.. الكلمات ليست مهمة، الكلمات ما هي إلا إشارات، المهم هو الشعور.

ظللتُ شهرًا كاملاً لا أفعل شيئًا سوى الاختلاء بنفسي والشعور بالتسليم الكامل لله، انزوت نفسي ورغباتي، اضمحلّت إرادتي ولم تعد هناك سوى إرادته تحركني كيف شاء.

كان المُعلّم يغيب أحيانًا لأيامٍ دون أن أعرف أين هو، في بداية وجودي معه كنتُ أسأله حين عودته لكنّه كان يرمقني ويصمت مبتسمًا، ومع الوقت لم أعد أكرر السؤال. وفي هذا الشهر زاد غيابه ليمتد لأسبوعٍ كاملٍ في بعض الأحيان.

جلس بجواري في نهاية الشهر وسألني فجأة :

ما فكرتك عن الموت ؟.

أجبته بدهشة :

نفس فكرة الجميع.. الموت هو نهاية كل حياة، وكلّنا سنموت مهما طال بنا العمر.

– الموت هو بداية مرحلة جديدة في حياتك.. حياتك ليست لها نهاية يا عزيزي !.

ولدهشتي الشديدة أحضر ملاءة وطلب منّي الرقود على ظهري ثم غطّاني بها.

– لن تفعل شيئًا سوى تخيّل أنك متّ فعلاً.. عِش مشاعر الفناء.. إذا استطعتَ أن تموت وأنتَ لاتزال حيًا، فستتمكن من تجاوز العائق الأكبر.. ستتجاوز هويّتك المزيفة !.

سألته من تحت الملاءة :

ماذا تقصد يا سيدي بهويّتي المزيفة ؟.

– هل تعتقد أن شخصيتك الحالية هي حقيقتك ؟ لو أنك عصبي أو هادئ أو طموح أو كسول، فهل هذا هو أنتَ حقًا ؟ هذه الصفات هي مجرد

صفات طارئة قد تتغير مع الوقت مع تغيّر الخبرات والظروف.. نحن نولد كنفوسٍ طيبة صافية، ثم نبدأ في اختراع هويّة لأنفسنا في محاولة للحفاظ على ذواتنا.. نبدأ في تعريف أنفسنا تبعًا لما نملكه وما نفعله وما يعتقده الآخرون عنّا.. هكذا تتكّون هويّة مزيفة ليست نحن فعلاً ولكنّها نظرتنا ونظرة الآخرين والمجتمع إلينا.. دور نختاره لأنفسنا في الحياة لنؤديه.. ثم نبدأ في التصرّف تبعًا لهذا الدور.

نحن ما نملك، إذن يجب أن نحصل على المزيد لنعزّز أنفسنا، ويجب أن نحافظ على ما لدينا من هجمات الآخرين ومحاولتهم الحصول عليه.. من هنا يصبح هناك "نحن" وهناك "هم".

نحن ما نفعله وما ننجزه في حياتنا، إذن يجب أن ننافس الآخرين لنثبت أنفسنا أمامهم، ونكون أفضل وأنجح منهم.. من هنا تنشأ الغيرة والحقد والحسد والخوف من الفشل.

نحن ما يعتقده الناس عنّا، إذن يجب أن نكون كما يريدنا الناس أن نكون، نأكل ونلبس ونتصرّف كما يتوقعون منّا.. يجب أن يحبونا ويقدرونا ويهتموا بنا.. من هنا ينشأ النفاق وحب الظهور والاهتمام بالمظاهر والشكليات.

ومع الوقت نعيش في وهمٍ كبير صنعناه بأنفسنا. نقتنع أننا لن نكتمل، سنظلّ نعاني النقص، ما لم نقم بكل تلك الأمور طوال الوقت.

- وكيف يمكننا التخلص من هذه الهويّة المزيفة يا سيدي ؟.

جاءني صوته يقول :

هذا أمرٌ من الصعب جدًا إن لم يكن من المستحيل.. الغالبية العظمى من الناس لا يلاحظون وجودها أصلاً، لا يعرفون شيئًا عنها، يظنّونها هم، يسمعون صوتها تتحدّث إليهم، تهمس لهم مفسرة ما يحدث حولهم من وجهة نظرها الدنيئة، فيعتقدون أن الصوت صوتهم هم !.

غالبية الناس يعيشون في حالة امتزاج مع هويّتهم المزيفة، قلّة فقط هم من يدركون وجودها، يستطيعون ملاحظتها والتفريق بين صوتهم الحقيقي وصوتها المخادع.. وقِلّة من هذه القِلّة من يمكنهم التحرر منها.. وإحدى الطرق الموصلة لهذا التحرر هي الموت قبل الموت !.

وانطلق يشرح لي كيف أن المرء حينما يصل للحظة الموت، نهاية تجربته كإنسان في هذه الحياة، يفيق من غفلته، وحينها ينفصل عن هويّته المزيفة والروابط الوهمية التي ربطتها بينه وبين ممتلكاته وإنجازاته وسمعته.

- العارفون أسموها النفس.. في الغرب يسمونها الإيجو.. لا يوجد لدى المرء عدوّ سواها !.

ومنذ تلك اللحظة ولمدة شهرٍ كامل لم أفعل شيئًا سوى البقاء تحت الملاءة متظاهرًا بالموت. لم يكن يسمح لي بالنهوض سوى في أوقات الصلوات الخمس، أذهب إلى الحمّامات فأتوضأ وأقضي حاجتي إن أردتُ وأؤدي الصلاة وآكل وأشرب، ثم أعود من جديد ميّتًا تحت الملاءة.

كان عمّال النظافة في الحرم يمرون بنا من آنٍ لآخر، وسمعتُ المُعلِّم أكثر من مرة يخبرهم أنني مريض ونائم قليلاً.

– أنا لا أكذب عليهم، أنتَ مريض بالفعل ! لكنّك لن تظلّ كذلك طويلاً !.

في اليوم الأول كنتُ أشعر بالاختناق كلّما تخيلتُ نفسي في مكانٍ ضيقٍ كالقبر. أتقمص أنني سأظلّ هكذا إلى الأبد فتنتابني رغبة في أن أنفض الملاءة عنّي وأقفز لأتحرر وأستنشق الهواء بعمق، ثم أتذكّر أنه مجرد تمرين سأنتهي منه قريبًا، وأن الملاءة ستُرفع من فوق وجهي بعد قليل حينما يحين موعد الصلاة فتستكين نفسي.

في اليوم الثاني بدأتُ أفكّر : لو أنني متُّ فعلاً فماذا سيبقى مني ؟ ماذا سأترك خلفي ؟ لو أن وجودي الحالي انتهى وتمّ التخلص من جسدي، فما الدلائل المادية التي ستظلّ ورائي تشير إلى أنني مررتُ من هنا ؟.

هالتني فكرة أن كل ما سيبقى منّي هو بعض الملابس في خزانة في بيت خالتي، وكتبي وبعض الأوراق الرسمية والدفاتر التي كنتُ أكتب فيها

ملاحظاتي، وبضعة ملفات على الكمبيوتر تحوي ما كتبته من قصص وروايات.. هذا فقط !.

ماذا بقيّ من والديّ بعد أن رحلا ؟ لا شيء سوى ذكريات ومحبة وشوق في عقل وقلب ابنهما وأقاربهما. فقط الأشياء المعنوية هي التي تبقى.

لم يكن المُعلِّم يحاول مناقشتي في الخواطر التي أُفكّر فيها أثناء تأدية التمرين، كان فقط يساعدني في فرد الملاءة فوق جسدي كلما عُدتُ من الصلاة، ثم يتركني ويجلس بعيدًا يقرأ في مصحفه، تاركًا إياي في سكونٍ عميق لا يقطعه سوى مرور أحد عمّال النظافة بنا.

في اليوم الثالث بدأت رهبتي من الموت تقل، بدأتُ أشعر به كمرحلة انتقالية بين مرحلتين في رحلة الحياة. حينما انتقلتُ من مدرستي الابتدائية إلى الإعدادية شعرتُ في البداية برهبة وخوف، كأنّني مقبلٌ على عالمٍ جديد لا أعرف عنه شيئًا، لكن بعد مرور يومين في مدرستي الجديدة بدأتُ أكوّن صداقاتٍ جديدة وأعتاد الفصول والمدرسين. هكذا هو الموت. قد يكون من المخيف أن أترك العالم الذي اعتدته وأنتقل إلى آخر لم أخبرَه، لكنّي في الغالب سأعتاده بعد حين.

في اليوم الرابع بدأتُ أشعر بأني تخلصتُ من وجودي المادي، لم أعد أفكّر كثيرًا في جسدي، كنتُ مع مرور الوقت وتركيزي على حركة تنفسي

أشعر بسكونٍ واسترخاءٍ عميقين. أشعر أنني اتحدتُ مع الهواء وصرتُ كيانًا واحدًا مع ما حولي، وحينها يصفو عقلي تمامًا وأبدأ في إدراك الحقائق التي ما كنتُ أتخيل وجودها.

في اليوم الخامس بدأتُ أشعر أنني مِتُّ بالفعل ولم أعد أنتمي إلى هذا العالم، أنني أرتفع وأرى جسدي المغطى بالملاءة والمُعلِّم يجلس على بعد عدة أمتارٍ مني يقرأ في مصحفه. أن كل حياتي، خالتي وعماد وليلى وسمير وأماكلي، كل شيء أصبح ورائي. حينها شعرتُ أنه لا شيء مهم، كلها أمورٌ صغيرة لم تكن تستحق منّي كل هذا الاهتمام، كم كنتُ أحمق تافهًا حينما ظللتُ لأيامٍ طويلة لا أفكّر سوى في كرامتي التي جُرحت لأن ليلى لم تستمع لأوامري أو لأن عمّها أهانني أو لأن أحدًا لم يحضر حفل توقيعي. الكثير من الوقت ضاع، أيام وشهور وسنين ضاعت في أمورٍ تافهة ما كان عليّ أن أتوقف أمامها. شعرتُ بمدى حماقة الإنسانية التي تُضيّع وقتها وجهدها ومواردها في التجهيز لتدمير نفسها. لو أن الجميع تعاونوا، لو أن الجميع تخلوا عن وهم الصراع والتفوق، لو تم تقسيم كل شيء بالتساوي بين الجميع، لما عانت البشرية لحظة واحدة.

وفي نهاية اليوم أدركتُ لأول مرة كيف استطاعت أماكلي أن تسامح من قتلوا أسرتها، لابدّ أنها اكتشفت أن كل هذه الأمور تفاهات، كل هذه الحياة بكل ما فيها من متعٍ وآلام لا تستحق لحظة حزنٍ واحدة، ربما تستحق أن

نحبها ونعيشها بسعادة ونخوض تجاربها بعنفوان، لكن لا تستحق أن ننغمر فيها لدرجة ننسى معها أنفسنا.

بعد انتهاء الشهر وجدتُ المُعلِّم يرفع الملاءة من فوق وجهي في غير أوقات الصلاة، وهو يسألني مبتسمًا :

بماذا تشعر ؟.

رمقتُه صامتًا، وغمغمتُ :

أشعر بالتواضع.. بأنني قوي ودائم ولا نهائي، ومع ذلك لا يوجد بداخلي أي زهوٍ أو كِبر.. أشعر أنني لستُ مرتبطًا بأي شيء، لستُ أحتاج إلى أي شيء لأشعر بالكمال، أنا مكتمل في ذاتي.

هزّ رأسه عدة مراتٍ والابتسامة تملأ وجهه.

واستمر المُعلِّم في إعطائي التمرينات الروحية.

ظللتُ عدة شهورٍ لا أفعل سوى التجول بين الناس ومراقبتهم باعتبار أن هذا فيلم غير حقيقي وكلّنا ممثلون نعمل فيه.

- راقب كل شيء دون أن تتفاعل معه، حركة الناس وتفاعلاتهم مع بعضهم، عصبيتهم وخوفهم وسعادتهم، حرصهم وبخلهم وكرمهم، راقب نفسك

معهم، اخرج من المشهد وراقبه دون تدخل.. أنتَ لستَ بطل الفيلم، أنتَ فقط مشاهد يراقب ما يحدث دون انفعال، ويعرف أنه في نهاية الفيلم سيغادر السينما.

هناك في عالمنا من يهمّهم أن يجعلوا الناس ينغمسون في دراما حياتهم، بل أكثر من ذلك : ينغمسون في دراما مصطنعة، سواءً من خلال المسلسلات والأفلام المغرقة في الحزن والألم، أو من خلال الأخبار التي تركّز فقط على السوء في عالمنا، هؤلاء يتحركون بإلهامٍ من قوى الشر.

ثم قضيتُ عدة شهورٍ أراقب الناس بحيادٍ دون أن أصنّفهم.

– راقبهم دون أن تصدر حكمًا أخلاقيًا عليهم، لا تصنّفهم باعتبار أن هؤلاء معي وهؤلاء ضدي، هؤلاء جيدون وأولئك سيئون، لا تنتقدهم بينك وبين نفسك، ارفض أفعالهم وتصرّفاتهم لكن لا ترفضهم هم أنفسهم.. أفعالهم وتصرّفاتهم هي أشياء طارئة عليهم، تجيء وتذهب على حسب مرحلة وعيهم، على حسب تجاربهم وما تعرضوا له من أمور منذ صغرهم جعلتهم يغفلون عن حقيقتهم.. لكن هم أنفسهم يحملون جوهرًا واحدًا لا يتغير.

وحينما لم أفهم ما المطلوب منّي بالضبط عاد يقول لي :

لا تتخذ موقفًا داخليًا تجاههم، ستجد في السوق بائعًا يحاول أن يغش زبونه، ستجد زبونًا يتعارك مع بائعٍ من أجل تخفيض الثمن.. راقبهم بحب

ولا تحكم على الأول بأنه غشّاش والثاني بأنه بخيل، لا تسمح لمشاعرك أن تتحرك تجاههم بشيءٍ آخر غير المحبة.. راقبهم بحب، ارفض أفعالهم إن أردت، لكن ضع في اعتبارك دائمًا أنهم في الأصل ليسوا كذلك، الغش والبخل هي أشياء طارئة عليهم.

استمررتُ في أداء التمارين وتجاوزها بنجاح الواحد تلو الآخر، إلى أن جاء اليوم الذي طلب المُعلّم منّي فيه أن أحمل حقيبتي وأتبعه.

كنتُ أشعر بطمأنينة شديدة وشعور عارم بالسكينة والسلام يغمرني، لذلك لم أسأله عن وجهتنا. نهضتُ بهدوء وتبعتُه صامتًا.

مر بي بين جحافل المعتمرين والمصليّن والعابدين. خرجنا من المسجد الحرام إلى الأسواق المحيطة به. رمقتُ ما حولي بدهشة، وكأنّي أستيقظ من حلمٍ طويل. كأنّي أنتقل من عالمٍ إلى عالمٍ آخر. أشخاصٌ يتحدّثون بصوتٍ عالٍ، أشخاصٌ يبكون أو يصرخون أو يضحكون أو يتعاركون. شعرتُ كأنّي خرجتُ من دفء منزلي وقفزتُ في نهرٍ مثلج المياه !.

كان المُعلّم يسبقني بخطوتين، وسمعتُه يهمس لي :

حينما جئتني أول مرة سألتني : ما سبيل الوصول إلى السلام النفسي الدائم.. أخبرتك حينها باختصار أنه الشعور بالمحبة والامتنان والتسليم.. وأنتَ تمرنت في الشهور الماضية على تلك المعاني الثلاثة وغمرك

السلام.. لكن ما لم أخبرك به أن قلّة قليلة من الناس من يدوم معها شعور السلام.. أتدري لماذا ؟.. لأنهم يعودون للاختلاط بالعالم، يعودون من عالم الروح الذي تعدّوا عتبته إلى عالم الأرض بكل ما فيها.. ومع الوقت ينسون روحهم رويدًا رويدًا، ينسون أنفسهم، يغفلون عن الحقيقة، ينغمسون في العالم وتستغرقهم روح الدراما فيه، يستغرقهم وهم الزمن، يعودون للاستماع لأكاذيب هويّتهم المزيفة.. الوصول للسلام النفسي سهل لكنّ الاحتفاظ به شبه مستحيل.. أتدري كيف بإمكانك الاحتفاظ به طوال الوقت ؟.. بأن تعتزل العالم، تعيش في خلوة دائمة مع نفسك.. تنتزع نفسك منه انتزاعًا وتنساه تمامًا.. حينها فقط ستعيش بشكلٍ دائمٍ في سلامٍ نفسي لا يفسد صفوه شيء.

سألته بدهشة :

تقصد أن عليّ الاختيار بين العالم وبين سلامي النفسي ؟.

هزّ رأسه وغمغم :

لو أنك اعتزلتَ العالم فما الفائدة من أي شيء ؟ أنتَ لم تتواجد في هذا العالم، لم يتم إرسالك في هذه التجربة البشرية لتعتزل العالم وتعيش وحدك.. عمق تجربتنا يكمن في أن نظلّ معًا ونصل سويًا إلى بر الأمان !.

سألتُه بحيرة :

لا أفهمك يا سيدي، مادام الأمر هو إما العالم أو نفسي فعليّ التضحية بأحدهما من أجل الآخر !.

توقف والتفتَ إليّ بحزن :

أليس بالإمكان أن تجمع بين الاثنين ؟ أن تظلّ في العالم وفي نفس الوقت لا تنسى نفسك ولا تغفل عن حقيقتك ؟.

- هل هذا ممكنٌ يا سيدي ؟.

- لا يوجد في هذا العالم شيءٌ غير ممكن إن أردتَ بإخلاصٍ الحصول عليه!.

فكّرتُ قليلاً ثم سألته فجأة :

لكن يا سيدي.. لو أنني لم أغفل عن حقيقتي، فهل سأظلّ دائمًا في سلام وطمأنينة رغم كل ما أراه حولي في العالم من تألّم الناس ومعاناتهم ؟.

- لو لم تحزن لمعاناة الآخرين فلن تكون إنسانًا ! ستحزن وتبكي حينما ترى آلامهم، ربما بأكثر من ذي قبل لأنك صرتَ الآن تراهم من خلال مبدأ "كُلّنا أنا". الحزن شعورٌ طبيعي نشعر به جميعًا في أوقاتٍ مختلفة، لكنّك ستشعر به الآن على خلفية من السلام والطمأنينة واليقين أن كل شيءٍ يقع

في العالم لغرضٍ ما قد لا تعرفه الآن.. لن تشعر به طوال الوقت لأنك تعيش اللحظة بلحظتها ولا تفكّر في الماضي أو المستقبل، وبالطبع لن ترى في كل لحظة آلامًا ومعاناة.. ستشعر به لكنّه لن ينقلب لديك شعورًا بالذنب أو الاكتئاب والتعاسة.

لفت نظري مطعمٌ عليه لافتة تقول "نقدم جميع أنواع الأكلات المصرية"، كان اسمه "مطعم الحرمين". شعرتُ بالحنين لمصر، في حين انعطف بي المُعلّم في شارعٍ جانبي بعد المطعم وتوقف أمام بيتٍ محاطٍ بسورٍ عالٍ. ضغط زرًا بجوار الباب فسمعتُ صوت جرسٍ يدوي في الداخل، ثم بعد دقيقة فُتح الباب وظهر خلفه الشيخ العجوز متهللاً :

يا مرحبًا يا مرحبًا، تفضلا، تفضلا.

عبرتُ الباب بعد المُعلّم فوجدتُ نفسي في حديقة صغيرة تمتد لعدة أمتار تليها فيلا من طابقين.

حاول الشيخ العجوز أن يُدخلنا داخل الفيلا، لكنّ المُعلّم قال له مبتسمًا :

سنستعير منك حديقتك قليلاً.

حاول الشيخ أن يُلحّ على المُعلِّم لكنّ هذا الأخير تنحى به جانبًا وهمس في أذنه ببضع كلمات، فهزّ الشيخ رأسه مستسلمًا وتركنا وعاد إلى داخل الفيلا.

كانت الحديقة ظليلة مليئة بالأشجار والنخيل التي حجبت أشعة الشمس الحارقة عنا. توقف المُعلِّم أمام شجرة وارفة الأغصان وأخذ نفسًا عميقًا وهو يغمغم :

نأخذ من الأشجار الأوكسجين ونمنحها ثاني أوكسيد الكربون، دائرة متصلة من التكامل.

ثم فوجئتُ به يقترب من الشجرة ويربّتُ على لحائها بحنان ونظرة حب وامتنان تترقرق في عينيه. جلس تحت الشجرة فجلستُ بجواره.

هبّت نسمة هواء علينا فاهتزّت أغصان الأشجار معها. أشار المُعلِّم إلى شجرة أمامنا وقال :

الشجرة هي أعظم مُعلِّمٍ لنا نحن البشر، فقط لو نستطيع إدراك حكمتها.

سألته بدهشة :

كيف يا سيدي ؟.

رمقني باهتمام وقال :

أنا لن أجيبك، ستعرف أنتَ وحدك.. ستجلس هنا بين الأشجار، لن تفعل شيئًا سوى تأمّلها والتركيز عليها.. تأمّل أغصانها وأوراقها، راقب اهتزاز فروعها مع نسمات الهواء.. هناك درسٌ عظيم بإمكانك أن تتعلمه من الأشجار، إن توصّلت إليه سآتي وآخذك !.

هتفتُ :

هل ستتركني هنا ؟.

– ربما أتركك هنا سنين إلى أن تعرف ما هو الدرس الذي عليك تعلّمه من الأشجار، اعتبره لغزًا عليك حله.. لكن لا تشغل ذهنك بالبحث عن الحل، فقط تأمّل الأشجار والحل سيقفز من نفسه إلى رأسك إن كنتَ قد وصلتَ إلى مستوى الوعي المناسب.

صديقنا العجوز سيعتني بشؤونك، سيُمدك بالطعام والشراب ثلاث مراتٍ يوميًا، وإذا رغبتَ في النوم فلن تجد أفضل من حضن شجرة لتنام أسفل منها.. هناك حمّام منفصل في الجزء الخلفي من الحديقة بإمكانك استخدامه وقتما تشاء.. فقط حينما تصل إلى المعنى المطلوب أخبر صديقنا العجوز بذلك وهو سيخبرني فآتي إليك.. ما دون ذلك فستظلّ في الحديقة إلى ما شاء الله !.

سألته بحيرة :

وإن توصّلتُ إلى المعنى، كيف سأعرف أنه هو المعنى المطلوب ؟.

– ستعرف يا عزيزي، ستعرف من نفسك.. حينما تصل إلى ذلك المعنى ستجد هزّة في نفسك، سيتحرك شيءٌ ما في روحك، فتعرف حينها أنك وصلت.

ثم نهض وتركني دون أن يلتفت وراءه.

جلستُ في مكاني محتارًا. ما المعنى الذي يريدني التوصّل إليه من خلال تأمّل الأشجار، حتى لو أخذ مني ذلك سنين طوالاً ؟.

أسندتُ ظهري إلى الشجرة وأخذتُ أرمق الأشجار المحيطة بي. لونها الأخضر، أوراقها الرقيقة، فروعها المشهرة، لحاؤها وبداية جذورها المغمورة في الأرض. ما الدرس الذي يجب أن أتعلمه منكِ أيتها الشجرة ؟.

قديمًا في المدرسة كانوا يردّدون أمامنا الحكمة التي تقول :

كن كالشجر، يرميه الناس بالحجر، فيرميهم بالثمر.

والمُعلّم ذكر لي عَرَضًا أن بيننا وبين الشجرة دائرة متكاملة، نمنحها ثاني أوكسيد الكربون وهي تمنحنا الأوكسجين. هل هذا هو المقصود ؟ العطاء؟.

لم أشعر بالهزّة التي أخبرني عنها المُعلِّم، فتجاوزتُ ذلك إلى أمرٍ آخر. ثم انتبهتُ إلى أنني أجهد ذهني بالتفكير؛ في حين أن المُعلِّم أخبرني أن كل ما عليّ فعله هو تأمّل الأشجار فقط، والمعنى سيقفز وحده إلى ذهني في الوقت المناسب.

كان الشيخ العجوز يرسل لي خادمه الآسيوي ليسألني ما بين فترة وأخرى إن كنتُ أحتاج شيئًا. وكان يمرّ بي أثناء خروجه للذهاب للصلاة في الحرم في الأوقات المختلفة، فيجلس بجواري عدة دقائق يسألني فيها عن أحوالي. كان الطعام الذي يرسله لي فاخرًا، يتكوّن من الأرز واللحم وبعض الخضروات.

قلتُ له ضاحكًا :

– ستفسدني يا سيدي بهذه الوجبات، داومتُ طوال شهور على أكل التمر فقط.

ويبدو أنه خاف أن يغضب المُعلِّم إذا علم أنه يُمدّني بتلك الوجبات الدسمة، فأصبح يقللها ويرسل لي أغلب الوقت الكثير من التمر والخبز واللبن.

ركّزتُ على انتظام تنفسي وأنا أرمق الشجرة أمامي والطمأنينة تنساب بداخل نفسي. في اليوم الأول كان عقلي يغافلني فيفكّر في المعنى المراد من الشجرة، لكنّي كنتُ أنتبه إليه بسرعة وأوقفه.

– توقف يا صديقي، أنا من أتحكم فيك وليس العكس، أريد الاستمتاع بتأمّل الشجرة، لا تبحث عن المعنى نيابة عنّي من فضلك.

في اليوم الثاني بدأتُ أشعر أن الشجرة تنبض بالحياة مثلي، تنظر إليّ كما أنظر إليها، ترمقني بحنان بينما خيط الهواء ممتدّ من رئتي إلى رئتها، يخرج ثاني أوكسيد الكربون من رئتي فتأخذه وتستنشقه بعمق ثم تبثني الأوكسجين فآخذه منها وأتنفسه بعمق، كأنّ هناك حبلاً سُرّيًّا يمتد بيني وبينها. انتبهتُ فجأة إلى أن الشجرة تشبه أمي.

في اليوم الثالث بدأتُ أميز أشكال الأشجار المختلفة، سيقانها الطويلة هي وجهها، وكتل الأوراق الخضراء هي شعرها. كل شجرة لها تسريحة شعر معينة، بعضها شعرها متهدل وكأنّها حزينة على الإهمال الذي تعرضت له فطأطأت رأسها متألمة، وبعضها شعرها يقف في طبقات فوق بعضها وكأنّها سيّدة مجتمع ذاهبة إلى حفلٍ خيري، وبعضها شعرها منكوش وكأنّها فنانة مجنونة لا تهتم بشكلها قدر اهتمامها بجودة فنها.

أغصانها كانت أيديها، كلها ترفع أيديها إلى السماء، بعضها يتضرع في خشوع، بعضها تتشنج أصابعه خوفًا مما يفعله الإنسان بعالمه، وبعضها يقود أوركسترا كونية تعزف لحنًا سماويًا لا يسمعه سوى العارفون.

ياه أيتها الشجرة، كل هذا لديك ونحن غير منتبهين ؟.

في اليوم الرابع لم أفعل سوى مراقبة حركة أغصان الشجر مع نسمات الهواء، حركة الأوراق الصغيرة إلى الأمام وإلى الوراء ثم العودة مرة أخرى لمكانها الأول. كم هي وقورٌ ثابتة لا تهزّها الخطوب !.

ليتني أكون مثلك يا أمي الشجرة !.

في اليوم الخامس بدأت ملامح الأشجار تتشكل أمام عينيّ. بدأتُ أرى عينيها الواسعتين ذات الرموش الطويلة، وأذنيها وأنفها وفمها المبتسم دائمًا بينما ترمقني بعطف.

وفي اليوم السادس بدأتُ أرى شفتيّ الأشجار وهما تتحركان لتهمسا لي.

ومع بداية اليوم السابع وأثناء خروج الشيخ العجوز لصلاة الفجر، قلتُ له مبتسمًا :

هلاّ أخبرتَ المُعلّم أنني أود لقاءه ؟.

ومع انتشار ضوء الشمس وجدتُ الباب الخارجي يُفتح، فتهيّأتُ للقاء.

جلس المُعلّم قبالتي بينما اختفى الشيخ العجوز داخل البيت.

ظلّ يتأمّلني صامتًا، ثم أسبل عينيه فجأة وغمغم :

أتسمع الترنيمة ؟.

أجبته مبتسمًا :

ليس بعد.. يبدو أن الطريق مازال أمامي في بدايته !.

– لم أتوقع أنك ستستدعيني بهذه السرعة.. هل جاءك المعنى المنشود ؟.

رمقته بحب هو والشجرة المبتسمة لنا من ورائه، ثم قلتُ له بطمأنينة :

أعتقد أنني توصّلتُ إليه.. في البداية سيطرت على عقلي فكرة العطاء، أن الشجرة هي رئة الكون التي تمدنا طوال الوقت بالأوكسجين وتعطينا الثمر دون اهتمامٍ بطريقة تعاملنا معها.. لكنّي حينما نحّيتُ عقلي جانبًا ومع استمرار تأمّلي للشجرة انتبهتُ إلى شيء.. النسيم يهبّ باستمرار على الشجرة فتظلّ واقفة في مكانها لا تتحرك، ربما تُحرك أغصانها وأوراقها معه ثم بعد رحيله تعود إلى مكانها الأول.. لو هبّت عاصفة قوية تتحرك الشجرة كلها مع هبّات العاصفة، ثم بعد ذلك تعود لحالها الأول، إلى سكونها

العميق وثبات جذورها في الأرض.. الشجرة حكيمة صابرة، راضية مستسلمة، تقوم بمهمتها على أكمل وجه دون انتظارٍ لمقابل، ومهما مرّ بها من خطوب فإنها تجاريها ثم تعود لسكونها الأول دون أن يتغير شيءٌ فيها.. توصّلتُ إلى هذا المعنى حينما تمنّيتُ أن أكون كالشجرة، هادئًا ساكنًا لا تهزّني الخطوب التي تمر بي ومن حولي، قد أتحرك من مكاني مؤقتًا لكنّي أعود إليه بنفس الثبات والسكون.. الشجرة هي النموذج الذي يردّ بالإيجاب على سؤال : هل بالإمكان أن نعيش طوال الوقت في سلامٍ نفسي؟.. الشجرة تفعل ذلك!.

في النهاية أجدني أرغب في أن أكون شجرة !.

ظلّ المُعلِّم يرمقني مبتسمًا بحب، وشعرتُ بطاقة عميقة تغمرني بينما أرمقه.

تحرّك من مكانه أمامي فجلس بجواري مسندًا ظهره إلى الشجرة ورائي، وظلّ يتأمّل معي الشجرة التي أمامنا والتي كانت تتأمّلنا بدورها.

– لا أحب عقد المقارنات، المقارنة بالآخرين هي إحدى ألعاب النفس، الإنسان يجب عليه أن يكون في منافسة مع نفسه لا مع الآخرين، لكنّي في هذه المرة فقط سأقول لك إنك أنجب من رأيت.. هناك من ظلّ يتأمّل الأشجار لسنين دون أن يتوصّل إلى المعنى الذي توصّلتَ إليه أنتَ في أسبوع.. أنتَ متصل بمصدر الإبداع والإلهام، فلا تدع هذا الاتصال ينقطع.

شعرتُ بسعادة عميقة تغمرني، وانتهزتُ الفرصة فسألتُه بلهفة :

هل بإمكاني مخالطة الناس والاحتفاظ بتلك الصلة ؟ هل يمكنني الاحتفاظ بالسلام الدائم بينما أعيش وسط الناس وأتعامل معهم ؟.

– هذا يعتمد على مدى تذكّرك لحقيقتك.. ستخالط الناس ومع الوقت ستنسى المحبة، ستبحث عن الرزق ومع الوقت ستنسى التسليم، ستحصل على الكثير مما أردتَ الحصول عليه ومع الوقت ستنسى الامتنان وستظنّ أنك حصلتَ على ما حصلتَ عليه لأنك جديرٌ به !.

سألته بحزن :

إذن فلا حل سوى اعتزال الناس ؟!.

– لا يا عزيزي، لو اعتزلتَ الناس ستكون كشخصٍ ذهب ليدرس الطب في الخارج ثم عاد يحمل أعظم الشهادات العلمية، وبدلاً من أن يعالج الناس اكتفى بإغلاق باب غرفته عليه وقضى وقته في القراءة.. لا هو استفاد ولا هو أفاد.

سألته بحيرة :

ما الحل إذن يا سيدي ؟.

- كما قلتُ لك : الحل في تذكّرك لحقيقتك.. إذا غفلتَ ونسيتَ المحبة فعليك تذكُّر مبدأ "أنا هو أنا" و"كُلّنا أنا" فتعود المحبة إلى قلبك.. إذا نسيتَ التسليم وظننتَ أنك أنتَ من تقوم بما تقوم به فتذكّر مبدأ "أنا شجرة" و"لا حول ولا قوة إلا بالله" فيعود التسليم إلى نفسك.. إذا نسيتَ الامتنان وظننتَ أنك تحصل على ما تحصل عليه لأنك تستحقه فتذكّر استعادتك لبصرك من الظلام، فتمتلأ نفسك بالامتنان من جديد.. عليك مجاهدة نفسك طوال الوقت وعدم الاستسلام للغفلة.

سألته بدهشة :

كيف.. كيف عرفتَ يا سيدي بموضوع بصري ؟.

لم أحدّثه من قبل عن أي شيء بخصوص ماضيّ، لم يعرف حتى ما هو اسمي !.

ابتسم بغموض وغمغم :

هل تظنّ أنك الوحيد المتصل بمصدر الإلهام ؟ عليك أن تعتاد على فتح قلبك للأنوار.. ستصبح لديك القدرة على رؤية ما خلف الشكل، رؤية الروح مباشرة.. سيندهش الناس حينما يرونك تحتضن بحب مشرّدًا تفوح منه الرائحة العطنة، بينما تنفر من حسناء تُشع كالشمس.. سيصبح الإلهام صديقك، سترى أحدهم فينتابك شعور لا تدري من أين يجيئك بأن هذا

الشخص مريض بالقلب والهمّ يعصره، وبمبدأ "كُلّنا أنا" ستجد نفسك متعاطفًا معه، فتميل عليه وتهمس له بأنك تتمنى بصدق أن يُشفى من مرضه.. سيفزع الرجل ويظنّك ساحرًا أو تتعامل مع الجن أو يأتيك خبر السماء.. بعضهم سيتشبث بك ظانًا أنك تملك قوى خارقة ويمكنك شفاءه.. لذلك عليك أن تكتم خواطرك أمام الناس ولا تُظهر كل ما يأتيك من خلال الأنوار.

طربت نفسي من حديث المكاشفة هذا، فسألته بأمل :

هل مررتَ بمثل هذه المواقف من قبل يا سيدي ؟ هل بإمكاني أن أعرف كيف وصلتَ إلى ما وصلتَ إليه ؟.

– الماضي ليس مهمًا بالقدر الذي تعتقده يا صديقي.. لكلٍ منا قصّة ما، قد تكون مهمة له ليستفيد من تجاربها، وقد تحوي الكثير من العظات للآخرين، لكن في النهاية علينا أن ندرك أننا لسنا قصصنا.. قصّة كل واحدٍ فينا غير ثابتة، يمكن تغييرها في أي لحظة إن امتلك المرء النية والقوة والإرادة على ذلك.. يمكنك أن تعتبر أنني مثلك، أو أنني أنتَ، تعرّضتُ في حياتي لهزّاتٍ نبهتني من غفلتي فأردتُ بقوة أن أصل، وحينما نويتُ ذلك تلقيتُ المساعدة اللازمة كي أتذكّر ما نسيته، وفي المقابل صرتُ أساعد من يرغب في التذكّر.. هل تظنّ أن مبدأ "أنا هو أنا" أو "كُلّنا أنا" أو "أنا شجرة" هي أشياء جديد تعلّمتَها أنتَ للمرة الأولى ؟ هذه الأمور مغروسة

بداخلك لكنّك نسيتَ أنك تعرفها.. كل ما فعلتُه أنا أنني ذكّرتُك بها.. وهناك أشياء أخرى ستتذكّرها مع الوقت، أشياء كنتَ تعيشها يومًا في العالم الذي جئنا منه، ثم نسيتَها حينما انغمستَ في دراما هذا العالم.

– وحينما أتذكّر حقيقتي يا سيدي، كيف بإمكاني أن أفيد العالم ؟.

ابتسم لي بحب :

جميلٌ أنك أصبحتَ تفكّر أول ما تفكّر في كيفية إفادة الآخرين.. نحن نمر جميعًا بتجربة واحدة في هذا العالم، ويجب أن نتكاتف سويًا لعبورها إلى الجهة الأخرى.. أنتَ بمجرد أن تتذكّر حقيقتك ستكون قد أفدتَ العالم دون أن تدري.. أنتَ كإنسان تشبه الشمس.. الشمس تقف في مدارها وتبعث لنا بالضوء والدفء، أشعتها تجعلنا نعيش، تضيء نهارنا، تلمس جلدنا فتتشكل بداخلنا فيتامينات معينة، تلمس النباتات فتنمو ونحصل نحن على غذائنا.

هذا الكوكب يعيش على أشعة الشمس، دون أن تبذل الشمس مجهودًا أكثر من إصدار أشعتها في كل الأنحاء.. أنتَ كالشمس، ستُصدر أشعتك لمن حولك فتُلهمهم وتُسعدهم وتشفيهم وتذكّرهم بمن هم حقًا.

حينما انتهيتُ من تمرين "أنا شجرة" كانت ثلاث سنوات قد مضت منذ جئتُ الحرم للمرة الأولى.

أصبحتُ أتذكّر بصعوبة ما كنتُ عليه قبل ذلك، وكأنّها حياة أخرى حلمتُ بها ولم أعشها. داومتُ على الاتصال بخالتي كل عدة أسابيع لأطمئنها على نفسي. كنتُ قد أخبرتها أن أصدقائي وجدوا لي عملاً وأنني سعيد ومرتاح، فكانت تتمنى لي التوفيق. ذات مرة سألتني بقلق عن قانونية إقامتي في السعودية، كان عماد قد أبدى لها تشكّكًا بخصوص غيبتي الطويلة، وأخبرها أن المكوث والعمل في السعودية يحتاج إلى تأشيرة إقامة وكفيل وإجراءات قانونية معقدة. طمأنتها وأخبرتها أن أصدقائي تكفلوا بكل شيء.

وفي الليلة التي عُدتُ فيها إلى الحرم؛ رأيتُ نفسي أسير في ممرٍ مظلم ينتهي ببابٍ حديدي. كنتُ أمشي بخطواتٍ واثقة وأعرف ما سأجده وما عليّ فعله.. دفعتُ الباب فانفتح فإذا بي داخل زنزانة ضيقة خافتة الإضاءة، زكمت أنفي رائحة الرطوبة والعطن، وعلى الأرض في مواجهة الباب الحديدي وجدتُ نفسي جالسًا مسندًا ظهري للجدار وقد دفنتُ وجهي بين ركبتيّ..

انتبه (أنا) الآخر لي فرفع رأسه ببطء وسألني بقلق :

من أنتَ ؟ ماذا تريد ؟.

كنتُ أرتدي ملابس قديمة بالية وملامح وجهي يبدو عليها الإعياء والخواء.

لم أشعر بالخوف، تقدّمتُ ومددتُ يدي نحوي، فإذا بي أفزع وأبتعد عنّي بذعر رامقًا نفسي بجزع، منزويًا في ركن الزنزانة :

من أنتَ ؟ ماذا تريد منّي ؟!

– أنا أحبك !.

– لا أحد يحبني، الكل يريد أذيّتي، أنتَ تريد أذيّتي !.

اقتربتُ منّي واحتضنتُني وأخذتُ أربّتُ على كتفي :

لا يوجد من يريد إيذاءك، الكل يحبك، أنا أحبك، العالم يحبك.

كنتُ متصلبًا في البداية ثم لم ألبث أن هدأتُ واستكنتُ بين ذراعيّ.. سحبتُني من يدي فقمتُ معي مترددًا، عبرنا الباب الحديدي فإذا بالممر قد أضيء بعشرات المشاعل، ولاحظتُ بسعادة ابتسامة الدهشة التي ارتسمت على شفتيّ.

استيقظتُ قبيل الفجر، وذكرى الحلم ما زالت تسيطر عليّ.. وجدتُ المُعلِّم جالسًا على بعد خطوتين منّي يرمق الأرض أمامه وعلى شفتيه ابتسامة والسكون يملأ وجهه.

– صباحٌ جميلٌ للحياة يا سيدي.

التفتَ إليّ ببطء وابتسم لي ابتسامته المحببة ولم يردّ عليّ. نهض من مكانه ومضى حتى غاب عن نظري. كنتُ قد اعتدتُ تصرّفاته غير المعتادة فلم أُلقِ للأمر بالاً. وحتى حينما مضى أسبوع دون أن يظهر لم أفكّر في الأمر، فهو قد اعتاد الغياب لأيام قد تطول أحيانًا إلى أسبوع. لكنّي بدأتُ أقلق حينما انتهى الأسبوع الثاني دون أن يعود، وبدأتُ أبحث عنه في جنبات الحرم حينما انتهى الأسبوع الثالث.

أين ذهب المُعلِّم يا ترى ؟.

خالط القلق نهر السلام المنساب داخل نفسي، فتضرعتُ إلى الله ألا يكون مكروهًا قد أصابه. أملتُ أن يظهر الشيخ العجوز فيطمئنني عليه لكنّه لم يظهر. قضيتُ عدة أيام أسير في الأسواق حول الحرم باحثًا عنه بلا نتيجة. في النهاية قررتُ الذهاب إلى بيت الشيخ العجوز وعرض الأمر عليه.

سرتُ في الطرقات محاولاً تذكّر العنوان. لمحتُ المطعم الذي يقدّم الأكل المصري، مطعم الحرمين، فخفق قلبي بسعادة. البيت في شارع جانبي بعد

المطعم مباشرة. وقفتُ في مدخل الشارع متأمّلاً البنايات التي اصطفت على جانبيه إلى نهايته. لا توجد فيلا واحدة.

عدتُ ملهوفًا إلى مطعم الحرمين، كان هناك شاب يرتدي مريلة ويقف أمام آلة الشاورما خارج المطعم. اقتربتُ منه وسألته بتردّد :

مرحبًا يا أخي.. كان يوجد هنا شارع به فيلات، أليس كذلك ؟.

رمقني الشاب بدهشة، ثم ردّ عليّ بلهجة مصرية :

والله لا أعرف يا أستاذ، الشوارع التي أعرفها حولنا لا تحوي سوى بنايات سكنية.

لابدّ أني أخطأتُ العنوان، أخذتُ أسير على غير هدى في الشوارع المحيطة بالمطعم باحثًا عن فيلا الشيخ العجوز لكن بلا جدوى.

الأشجار على جانبيّ الشوارع ترمقني بإشفاق. توقفتُ وسألتُها عن فيلا الشيخ العجوز فقلبت أغصانها بحيرة وهمست لي أنها لا تعرف.

عدتُ إلى الحرم وانطلقتُ مسرعًا إلى البقعة التي اعتدتُ العيش فيها مع المُعلّم، وانتظرت. مرّ بي اثنان من عمّال النظافة، يجرّان آلة كبيرة تقوم بغسل البلاط ومسحه. كان عمّال النظافة يمرّون بنا من آنٍ لآخر، فينظفون

حولنا دون أن يتحدّثوا إلينا. أحيانًا كان المُعلِّم يوجه لهم التحية أو يطلب منهم مشاركتنا في تناول التمر، لكنّهم كانوا يرفضون بأدب ويتعاملون معنا بتحفظ.

سألتُهما بلهفة :

هناك رجل كان يجلس معي دائمًا هنا، ألم ترياه يا أخويّ ؟.

نظرا لبعضهما بحيرة، ثم قال أحدهما :

نحن نمر على الكثير من الأماكن ونرى كثيرًا من الناس.

لكنّ الآخر أسرع يقول :

أنا أذكر أنني كنتُ دائمًا أراك هنا وحيدًا.. لم أرَ أحدًا معك من قبل.

شكرتُهما وعدتُ أجلس في مكاني. لابدّ أن هذا العامل مرّ بي أكثر من مرة أثناء غياب المُعلِّم، فلم يره معي.

ظللتُ ثلاثة شهور جالسًا في بقعتنا منتظرًا مجيء المُعلِّم أو الشيخ العجوز، لكنّهما لم يظهرا.

هل يعني هذا أن فترة تدريبي قد انتهت ؟ صار بإمكاني مغادرة الحرم والعودة إلى بلدي، اختفى المُعلِّم ليساعد أحدًا غيري ؟.

لكنّه لم يودّعني حتى، لم يوصني بوصية أخيرة. ربما لا يحب ما تشتمله لحظات الوداع من دراما الحياة.

انتظرتُ يومين آخرين قبل أن أغادر الحرم وأذهب إلى مركز الاتصالات الذي اعتدتُ الاتصال بخالتي من خلاله.

– خالتي، يبدو أنني سأضطر للعودة إليكم.. هل بإمكان عماد أن يحجز لي تذكرة عودة من جدة إلى القاهرة لأن النقود التي معي لا تكفي لذلك ؟.

سألتُ العجوز بدهشة :

هكذا ببساطة ؟ اختفى المُعلِّم دون كلمة واحدة ؟ دون حتى أن نعرف من هو حقًا وماذا يفعل في الحرم ولماذا كان ينتظر خالد ليُعلِّمه ؟ هناك حالة تواطؤ غير مفهومة في كل هذا !.

أجابني مبتسمًا :

الأمر بسيط، هذا الرجل وظيفته الوحيدة هي أن يساعد من يطلب المساعدة على تذكّر ما نسيه ! تنتهي مهمته فيرحل دون كلمة !.

– ماذا تقصد بوظيفته الوحيدة ؟ هل يعمل لحساب جهةٍ ما ؟.

ضحك بمرح وأجابني :

لا يكن تفكيرك ماديًا هكذا.. في عالمنا مخلوقات مكلّفة بالقيام بوظائف معينة، وهي تقوم بها على أكمل وجه !.

سألته مضيّقًا عينيّ :

تقصد أنه.. أنه ملاك ؟.

هزّ رأسه نافيًا :

أتعتقد أن الملائكة هي المخلوقات الوحيدة المكلّفة بمساعدتنا ؟.. هناك كثيرون يساعدوننا طوال الوقت دون أن نشعر.. ربما كان الأمر واضحًا مع المُعلّم الذي قضى مع صديقنا خالد ثلاث سنوات يوجهه إلى الطريق الذي يرغب في السير فيه، لكنّ هناك أشخاصًا يظهرون في حياتنا ربما لثوانٍ قليلة ليساعدونا ثم يختفون.. حينما تقف في طابورٍ طويل أمام موظفٍ يتلكأ في إنهاء أوراق الناس لأنه يتناول إفطاره، يكون أمامك خياران : إما أن تتعلم أن تغضب وتتأفّف أو تتعلم الصبر على يديّ هذا الرجل.. هذا الموظف تمّ تكليفه دون أن يدري بأن يكون مُعلّمُك في الصبر.. قد يُضيّق عليك أحدهم بسيارته ويكاد يصدمك، فقط لتتاح لك الفرصة لتتعلّم السيطرة على غضبك وانفعالك ! هل كان صديقنا خالد سيذهب إلى مكة ليقابل المُعلّم ما لم يعتدي عليه سائق الميكروباص ويتسبب في فقدانه لبصره ؟.. تخيّل هذا ! سائق الميكروباص المعتدِي ساعد خالد على تغيير حياته !.

عدتُ أسأله بإلحاح :

فلنعد لموضوع المُعلِّم.. هل تقول أنه كائنٌ ما مهمته مساعدة من يرغبون في التغيّر ؟.

– لم أقل هذا، لم يخبرني خالد بأي شيء يشير إلى أنه ليس بشرًا.. أنا فقط أحاول تحليل الأمر يا صديقي، هذا الرجل ظهر فجأة واختفى فجأة، وكأنّه كائنٌ نوراني مهمته وضع أقدام من يرغب على بداية الطريق !.

ظللتُ أرمقه بشك، ثم سألته فجأة :

أأنت ذلك المُعلِّم ؟!.

أجابني على الفور :

بالطبع لا، أؤكد لك أنني لم يكن لي دورٌ في حياة صديقنا خالد محفوظ سوى لقاؤه في فترة متأخرة من حياته وسماع قصّته.

عدتُ أسأله بلهفة :

وما الذي فعله بعد عودته إلى مصر ؟.

قلب كفيّه وأجابني :

حينما وصل خالد إلى هذه النقطة في روايته صار قليل الكلام، كأنّه يرغب فقط في إخباري عن قصّته حتى رحيل المُعلِّم عنه.. كان يرى أن هذا الجزء من حياته هو فقط المفيد لمن سيستمع لقصّته، أما ما بعد ذلك فهو شيء يخصه وحده.. لم يحكِ لي بخصوص ما تلى عودته من مكة سوى شيئًا واحد سأقصه عليك في النهاية.. لكنّي عرفتُ أجزاء من القصّة من شخصين آخرين اضطررتُ للقائهما لسؤالهما.

سألته باهتمام :

من ؟!.

– أمل جارته وليلى طليقته.. طلبتُ من خالد أن يتوسط لي عندهما لتسمحا لي بالجلوس إليهما والاستماع إلى ما عندهما عن تلك الفترة.

كانتا مندهشتين في البداية من اهتمامي بمعرفة تلك الأحداث، لكنّهما كانتا تثقان بخالد، وتوصيته كانت تطلب منهما الثقة بي بشكلٍ كامل.

## قالت أمل :

استيقظتُ على صوت العراك المعتاد.

عم جابر الحلاق يتعارك مع الأستاذ طارق جارنا لأنه ركن سيارته أمام باب محله فحجبه عن الزبائن، بينما يُصرّ الثاني على أن زبائن الأول قليلون وليست سيارته من ستزيد قلّتهم !.

بدآ يتبادلان السباب وامتدّت الأيدي تحاول منعهما من الاشتباك، لكن بلا فائدة.

وقفتُ مع أمي في الشرفة نرمق ما يحدث بضيق، حينما انتهى كل شيء فجأة.

ظهر خالد واقترب من الرجلين مبتسمًا، فالتفتا إليه بتوجس دونًا عن جميع من يحيطون بهما، وكأنّهما أدركا أنهما على وشك شهود لحظة غير عادية. مدّ ذراعيه نحوهما بكل هدوء واحتضنهما معًا. توقفت الأصوات وساد الهدوء أمام هذا المشهد الغريب. ما الذي يظنّ نفسه فاعلاً ؟.

الغريب أن العراك انتهى هكذا. ظلّ خالد دافنًا وجهه بين رأسيهما وهو يحتضنهما بكلتا ذراعيه ويضمّ كتفيهما معًا، دون – ياللدهشة – أن يبديا اعتراضًا. وحينما تركهما عاد عم جابر إلى محله، وقام الأستاذ طارق بتحريك سيارته بعيدًا دون كلمة واحدة.

فيما بعد حكى كل واحدٍ منهما على حدة أنه شعر بشعورٍ غريب من السكينة والنعاس ينساب داخل نفسه، شعور لذيذ لم يجرباه منذ فترة طويلة، لدرجة أنهما لم يرغبا حتى في نطق كلمة واحدة تفسد هذا الصفاء.

بدأ الناس منذ تلك الواقعة يتحدّثون عن خالد ويروون عنه قصصًا أثق أن أغلبها يحوي خيالاً لا بأس به، لكنّها تدور كلها حول أنه رجل مبروك ومن أولياء الله الصالحين.

لم يكن هو نفسه خالد الذي لقيتُه أول مرة عندما زرتُ طانط عفاف حينما كان كفيفًا. في ذلك الوقت كان عصبيًا نافد الصبر يتعامل مع خالته وابنها بعنجهية لا يوجد ما يبررها.

استغربتُ حينها أن يكون كذلك، فطانط عفاف من ألطف الشخصيات التي تعرّفنا عليها في هذه المنطقة، فكيف يكون ابن أختها بتلك الغلظة ؟.

كانت أول من زارنا ورحب بنا عندما انتقلنا للسكن هنا منذ بضع سنين. وفي تلك الزيارة اكتشفتُ ولعها الشديد بالستائر. كانت ترمق ستائرنا باهتمامٍ انتهى بأن سألت أمي بلهفة لم تستطع إخفاءها :

من أين حصلتِ على هذه الستائر ؟ لم أرَ مثلها في حُسن التصميم وتناسق الألوان !.

اندهشت أمي في البداية من اهتمامها لكنّها أجابتها أنها لديها منذ تزوجت قبل عشرين عامًا، ولا تذكر عنوان المحل الآن، لكنّها تذكر أن اسمه كان ستائر ملكة المعارج ! ظلّ الاسم عالقًا في ذهنها طوال هذه السنين بسبب غرابته، بعكس العنوان الذي تاه وسط مئات العناوين الأخرى.

– هو في مدينة نصر، لكن لا أذكر أين بالضبط.

وعرفتُ من طانط عفاف فيما بعد أنها بحثت عن العنوان كثيرًا، اتصلت باستعلامات الهاتف، وسألت معارفها في مدينة نصر، وجعلت ابنها يبحث لها هناك عدة مرات، وضغطت على أمي أكثر من مرة لتتذكّر، لكن بلا فائدة. كان المحل كأنّه تبخر.

– ربما أغلق المحل يا طانط أو غيّر نشاطه.

شعرتُ بالألفة معها وأصبحتُ أزورها بانتظام حتى بدون أمي. كانت طيبة وتفيض عذوبة. عاملتني كابنتها التي لم تلدها، ولم تتغير تجاهي حتى حينما رفضتُ تلميحاتها بخصوص الارتباط بابنها عماد. تعللتُ في البداية بأني لا أفكّر في الزواج قبل التخرّج من الكليّة، ثم مع زيادة إلحاحها صارحتُها بحقيقة أنني لا أستطيع تصوّر عماد سوى في موضع أخي الذي لم أحصل عليه، ويبدو أنه لم يُبد بدوره اهتمامًا كبيرًا بي، فتوقفت هي عن ملاحقتي.

اكتشفتُ لدهشتي أنها تغيّر ستائر بيتها وتنجيد أرائكها بمعدل مرة كل سنة، ودون أن أشعر جذبتني معها في تلك الهواية، فأصبحتُ أذهب معها في كل مرة تزور فيها محل الستائر الذي ارتاحت لذوقه في مدينة نصر، وأشاركها في اختيار القماش والألوان.

– اكتشفتُ هذا المحل أثناء بحثي عن محل ملكة المعارج.. ستائره ليست في نفس جودة ستائركم لكنّها أفضل ما وجدتُ !.

والتقيتُ خالد لأول مرة في إحدى تلك المرات.

لم أره بعدها سوى حينما صعدتُ إلى سطح البيت ذات يوم عند شروق الشمس فإذا به يقف هناك يرمق الشروق بافتتان. كنتُ قد عرفتُ أنه استعاد بصره، وكنتُ مازلتُ أخشى عصبيته ونفاد صبره، فمنعني خجلي من أن أصارحه بأني أجد من يحرصون على مراقبة شروق الشمس أشخاصًا

مفتعلين. لا يُحبون الجمال في شروق الشمس ولكنّهم يحبون وضع أنفسهم في حالة تشعرهم أنهم مرهفو الحس.

لكنّه مع ذلك لم يبدُ لي كذلك.

قابلته مرة بعدها فوق السطح بطريقة حرصتُ على جعلها تأخذ شكل المصادفة. كان يبدو حزينًا في تلك المرة، أخبرني أنه عاد لتوه من أمريكا، وأنه اكتشف أن الطريق مازال أمامه طويلاً.

- أي طريق ؟.

أجابني وشبه دمعة تترقرق في عينيه :

طريق أن أكون كاماكلي !.

حدّثني طويلاً عن اكتشافه أنه يحمل بداخله الكثير من الأحمال، الكثير من الغضب. أخبرني أنه يريد أن يُسامح ليستريح ويتخلص من أعبائه، لكنّه لا يستطيع.

لم أجد ما أقوله ليساعده.

كان هناك اتفاقٌ ضمني قد نشأ بيننا على أن نلتقي يوميًا بعد شروق الشمس. أصعد إلى السطح فأجده واقفًا يتأمّل قرص الشمس الوليد، فنتحدّث لبضع دقائق.

في المرة التالية كان معه كتاب اسمه "معاناة الرسول الخاتم". تلى عليّ منه مقاطع مؤثّرة عن تسامح الرسول عليه الصلاة والسلام مع من آذوه. كيف وقف في الحرم وسامحهم بكل بساطة.

قلتُ بتلقائية :

الحرم ! لشد ما أتمنى الذهاب إلى هذه البقاع لأداء العمرة !.

رأيتُ بريقًا في عينيه، وانطلق يقول بحماس :

هذه هي ! ربما لو ذهبتُ إلى هناك، إلى نفس المكان الذي سامح فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أعداءه وعفا عنهم، ربما أجد ما أبحث عنه من انعتاق!.

عرفتُ بعدها من طانط عفاف أنه سافر إلى هناك ووجد عملاً، ولن يعود قريبًا.

مضت عدة سنوات بلا أخبارٍ عنه. كنتُ كلما سألتُ طانط عفاف تطمئنني عليه، لكن يبدو من نبرة صوتها أنها هي نفسها لا تعرف عنه أكثر مما أعرفه أنا.

وذات يوم وجدتُ نفسي أستيقظ وقت شروق الشمس. كنتُ قد انقطعتُ منذ سفره عن الصعود إلى السطح في ذلك الوقت، لكنّي هذه المرة شعرتُ برغبة مفاجئة في الذهاب إلى هناك. صعدتُ فإذا به يقف في نفس المكان يتأمّل شروق الشمس. لا أدري كيف شعر بوجودي قبل أن أخطو خطوة واحدة داخل السطح، التفتَ إليّ وهمس بسعادة :

كنتُ أنتظرك !.

كان هناك تغيرٌ لا أدري ما هو في ملامحه. ربما ازدادت إشراقًا.

لم يُجب أيًا من أسئلتي الكثيرة الملهوفة بخصوص ما حدث له، ظلّ يتأمّلني بابتسامة سعيدة، ثم غمغم :

لقد وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه !.

وبعد أيامٍ من واقعة إصلاحه بين عم جابر والأستاذ طارق التقيتُه فوق السطح، فقلتُ له ضاحكة :

الناس في الشارع يروون أساطير عنك ! يقولون إنك شفيتَ نفسك بنفسك، مررتَ بأصابعك على عينيك فعُدتَ مُبصرًا !.

أخذ يضحك بلا تحفظ بطريقة أدهشتني. يرجع برأسه للخلف مغمض العينين ويترك لنفسه العنان في الضحك. عادةً، الكبار الناضجون يتحكمون في أنفسهم عند الضحك، لكنّه كان يضحك بتلقائية الأطفال !.

– لقد جاء بعضهم إليّ، طلبوا مني شفاءهم وشفاء آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم.. لم يقتنعوا حينما أكدتُ لهم أنني لا أستطيع ذلك.. لم يتوقفوا عن المجيء سوى حينما استجبتُ لهم وأخذتُ أُجرّب تمرير أصابعي ويديّ فوق إصاباتهم دون أن يُشفوا منها.. حينها فقط أدركوا أنني لستُ سوى نصّاب وتركوني في حالي !.

وعاد يضحك.

كان هناك شيءٌ ما ينمو بيننا. أخبرني أنه يعمل على كتابة رواية جديدة، وسألني إن كان بإمكاني قراءة ما أنجزه منها وإبداء رأيي فيه. رحبتُ بذلك، فأخذ عنوان بريدي الإليكتروني وأرسلها إليّ.

فطنتُ من السطور الأولى أن الرواية مستوحاة من حياته. كانت تدور حول كاتبٍ شاب تعرض لحادثٍ أصابه بالعمى، ثم استعاد بصره فجأة وسافر إلى مكة، وهناك التقى برجلٍ أرشده إلى أمورٍ كان قد نسيها.

قرأتُها وخفتُ أن أعطيه رأيًا فيها فأتورط في إصدار حكمٍ على حياته. تهرّبتُ بادّعاء أنني سأنتظر انتهاءه منها كي أعطيه رأيي فيها جملة واحدة.

ابتسم بتفهم وقال لي :

لا تخشي شيئًا، لن أتضايق حتى لو انتقدتِ حياتي !.

رمقتُه مذهولة :

كيف.. كيف عرفتَ ؟!.

رمقني بابتسامة مبتهجة ولم يردّ على سؤالي.

ذات مرة وجدته يرمق السماء حائرًا. التفتَ إليّ ببطء حينما شعر باقترابي منه، وغمغم بتأثّر :

لن تصدّقي ما حدث لي !.

وجد نفسه يستيقظ قبل الفجر بساعتين وقد انتابته رغبة في مغادرة البيت. شعور عارم اجتاحه بأنه يجب أن يذهب إلى الشارع الرئيسي الآن. لا يدري لماذا، لكنّه تَبع رغبته. وقبل أن يفتح باب الشقة التقط بعض النقود فوضعها في جيبه دون أن يعُدّها.

انطلق يمشي في الشوارع المظلمة شبه الخالية وهو لا يعرف طريقه، فقط يتبع قدميّه وشعوره.

عند ناصية التقاء شارع المبتديان بالقصر العيني وجد رجلاً يجلس وحيدًا على الرصيف وعلائم الهمّ على وجهه. شعر برغبة في الجلوس بجواره، فجلس.

تحدّث معه وعرف أنه أتى من قريته إلى القاهرة لقضاء بعض المصالح في مُجمّع التحرير، لكنّه مع نهاية اليوم وقبيل عودته فوجئ بأن نقوده اختفت. ربما نشلها أحدهم أو سقطت منه. حاول الاتصال بأقاربه في بلدته ليأتي أحدهم ويُنجده، لكنّ أصحاب المحال كانوا يرفضون السماح له بالاتصال حينما يعرفون أنه ليس معه ما يكفي ثمن المكالمة. استحى أن يطلب نقودًا من المارة، فظلّ طوال الليل يمشي على غير هدى، ثم استقر به الحال فوق رصيفٍ يبعد عن بيت خالد بضع عشراتٍ من الأمتار !.

– وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ ما فيه من نقود ووضعتُها في كفّ الرجل دون أن أعُدّها، وأنا أرجوه أن يستعين بها في العودة لبيته.

رمق الرجل النقود بين أصابعه بدهشة، وسألني غير مصدق :

كيف عرفتَ أنني أحتاج ثلاثين جنيهًا بالضبط للعودة إلى بيتي ؟!.

لم أجد إجابةً أردُّ بها عليه.. نهضتُ وابتعدتُ دون أن أنظر خلفي.. هل تتخيلين ما حدث ؟ لقد تمّ تسخيري لأداء مهمة !.

عرفتُ منه بعدها أن الأمر أصبح يتكرر معه كثيرًا، وإن لم يرغب في أن يقصّ عليّ التفاصيل.

لكن قُدّر لي بعدها أن أرى بنفسي بعض هذه الأمور رأي العين. كان موعد زيارة طانط عفاف السنوية لمحل الستائر قد حان، وطلبت مني كالعادة أن أصحبها. نفس المشوار الذي التقيتُ خالد خلاله للمرة الأولى حينما كان كفيفًا.

وفي ذلك اليوم ركبنا سيّارة عماد، طانط عفاف وخالد وأنا. لم أدرِ لماذا جاء خالد معنا، لكن سرّني التفكير في أنه رغب أن يكون بقربي.

أخذتُ من مقعدي في الأريكة الخلفية أستمع صامتة لخالد وهو يخبر عماد عن تجربته في مراكز مساعدة المكفوفين :

أؤكد لك أنني أستفيد منهم أكثر مما يستفيدون منّي.. على سبيل المثال، مصطفى الذي أخبرتك عنه هو فتى شديد الذكاء.. أمس جلستُ أقرأ له رواية ديستويفسكي "الجريمة والعقاب"، فإذا به يسألني عن ظروف كتابة الرواية!.. لم أكن أعرف، فاضطررتُ للبحث والقراءة في الموضوع.. هل تعرف أن ديستويفسكي كان يكتب تلك الرواية الرائعة بالتوازي مع رواية

المقامر ؟.. كان قد بدأ في نشر الجريمة والعقاب مسلسلة في إحدى الجرائد عندما جاءه ناشر وعرض عليه أن ينشر له كل أعماله القادمة.. كان ديستويفسكي كعادته يمر بضائقة مالية فقَبِل على الفور، رغم أن العقد كان يشترط عليه أن يزوّد الناشر برواية جديدة في وقتٍ محدّد وإلا أصبح من حق هذا الأخير أن ينشر كل ما يكتبه ديستويفسكي دون أن يعطيه مليمًا!.. وهكذا أصبح يكتب الجريمة والعقاب في الصباح ليلحق بموعد نشر حلقاتها في الجرائد، بينما يسابق الزمن في المساء للانتهاء من "المقامر" كي يسلّمها للناشر في الموعد المحدّد.. كان الأمر مستحيلاً، لذلك أحضروا له فتاة تُدعى "أنّا" لتساعده في الكتابة.. كان يُملي عليها المقامر طوال الليل، ثم تقوم هي في الصباح بتنسيق ما دوّنته.. هذه الفتاة ستصبح فيما بعد زوجته وأمّ ابنه الوحيد أليكسي.. طبعًا استطاع ديستويفسكي في النهاية أن يمنح الناشر رواية المقامر في الموعد المحدّد وانتهت تلك الأزمة على خير، لكن هل فهمتَ ما حدث هنا ؟!.

لم يرُدّ عماد عليه وهو يرمق الطريق بانتباه وكأنّه يبحث عن شيء، فأكمل خالد :

ذلك الناشر لم يظهر في حياة ديستويفسكي، ولم يكن جشعًا، ولم يحاول أن يحصل على حق نشر رواياته دون أن يعطيه حقه، كل تلك المحنة لم تحدث سوى كي يستطيع ديستويفسكي أن يلتقي زوجته أنّا !.

فجأة ظهر الارتباك على عماد وهو يتأمّل الطرق أمامه بحيرة. سألته طانط عفاف التي كانت تجلس بجواري :

هل هناك شيء يا عماد ؟.

- لا أعرف يا أمي.. يبدو أنني فقدتُ الطريق إلى محل الستائر.. قلتِ لي إنه بعد مسجد رابعة بقليل، واسمه الرضوان للستائر، أليس كذلك ؟.

غمغم خالد بحزن :

يبدو أنني شغلتُك بكلامي فلم تنتبه للطريق !.

ثم هتف بحماس :

أنا أذكر مكان ذلك المحل.. أعتقد أن عليك الدخول إلى ذلك الشارع جهة اليمين.

هزّ عماد رأسه بإحباط واتّبع توجيه خالد بلا حماس. كان الشارع الذي دلفنا إليه مكونًا من بنايات لا توجد أسفلها أي محال، تظلّله الأشجار من الجهتين. لمحتُ خالد في مرآة السيّارة التي بجوار نافذته وهو يرمق الأشجار مبتسمًا، ثم هُيء لي أنه يهزّ رأسه لها !.

التفتَ عماد إلى خالد قائلاً :

أأنتَ واثق من الطريق ؟.

اسرع خالد يقول بحماس :

نعم، نعم.. سر في هذا الطريق لآخره ثم انعطف يسارًا.

اتّبع عماد التعليمات مستسلمًا وقد بدا على وجهه - الذي كنتُ أرى انعكاسه في مرآة السيّارة أمامه - إحباط من يثق أننا قد تُهنا.

- انعطف في هذا الشارع أمامك، أعتقد أن محل الستائر يقع في منتصفه.

أخذ عماد يتّبع تعليماته صامتًا، إلى أن هتف خالد بحماس :

ها هو ذى محل الستائر.. أليس هذا هو المحل الذي تريدينه يا خالتي ؟.

كانت الأشجار الكثيفة على الرصيف تحجب اللافتة التي تحمل اسم المحل، ومع ذلك بدا واضحًا لنا أنه ليس المحل الذي ذهبنا إليه من قبل. هزّت طانط عفاف رأسها بإحباط وغمغمت :

ليس هو.. لكن لا بأس من أن نرى أنواع الستائر لديه.

كان من الغريب أن نضلّ طريقنا إلى محل الستائر الذي نعرفه فيصل بنا خالد إلى محل ستائر آخر !.

وبينما نهبط من السيّارة اقترب منّا شاب بتردّد، وقال لعماد بلهجة متذللة حزينة :

سايق عليك النبي يا أستاذ، بعض المجرمين استوقفوني وأخذوا نقودي، وليس معي الآن ولا مليم.. كل ما أريده ثلاثة عشر جنيهًا لأعود بها إلى بيتي، أنا من الحوامدية.

فوجئنا بخالد يقول للفتى بحزن :

هناك أشخاص يحتاجون للمساعدة فعلاً، ولن يصدّقهم الناس ولن يساعدوهم بسبب ما تفعله أنتَ وغيرك من خداع !.

ظهر الاستياء على وجه الفتى وهتف في وجه خالد بألم :

ما هذا الذي تقوله يا أستاذ ؟! حرام عليك ! أقسم بالله العظيم أنني لا أكذب.. أنا ليس معي...

قاطعه خالد بثقة :

أنتَ ليس معك سوى أربعون جنيهًا في جيب بنطالك الخلفي !.

ارتبك الفتى وتراجع إلى الوراء وهو يرمق خالد بذعر :

كيف.. كيف عرفتَ أن.. أنتَ ساحر.. الجان...

واندفع يركض مبتعدًا وهو يرمق خالد برعب.

لم تبدُ الدهشة على وجه عماد أو طانط عفاف، وكأنّهما اعتادا على مثل هذه المواقف، بينما ظلّ خالد يتابع الفتى الهارب بعينين حزينتين، فسألته بدهشة :

كيف عرفتَ أن معه أربعين جنيهًا في جيبه الخلفي ؟!.

رمقني بدهشة وكأنّي سألته سؤالاً غير متوقع، ثم أجاب بحيرة :

لا أدري.. وجدتُ نفسي أعرف !.

اقتربنا من محل الستائر، فظهرت لنا لافتته واضحة من بين الأغصان المتشابكة : ستائر ملكة المعارج !.

رمقنا بعضنا بذهول، طانط عفاف وأنا، غير مصدقين.. والتفتنا إلى خالد، لكنّه كان يرمق الأشجار باهتمام وقد غاب عنّا.

مع الوقت أدركتُ أنه ليس شخصًا عاديًا. أشياء غريبة تحدث معه، الأمور والأحداث تترتب أمامه من نفسها لتصل به إلى الوجهة التي كان يتمناها، أو أفضل مما تمنى.

لم يمضِ شهرٌ على عودته من السعودية حتى كان يزورنا مع طانط عفاف وعماد ليطلب يدي من أبي.

جلسنا في حجرة الجلوس نتبادل عبارات المجاملة والمحبة. بدا أبي مرتاحًا لخالد وسعيدًا بالزيارة، لكنّه كان محرجًا من الخوض في المسائل المادية الخاصة بالزواج. شعرتُ بحرجه فقلتُ لأمنحه فرصة للتفكير :

ما رأيكم في متابعة بعض الأخبار ؟.

فتحتُ التلفاز بجهاز التحكم وغيّرتُ القنوات إلى أن وصلتُ إلى قناة الجزيرة. كان المذيع يتكلم بلهجة تقريرية عن وقوع بعض التفجيرات في العراق، والشاشة تنقل إلينا مشاهد متفرقة للحطام والدماء المتناثرة. غمغم والدي متصعبًا :

كل يوم هناك تفجيرٌ جديد !.

كنتُ أنظر لخالد لحظتها فانتبهتُ قبل الجميع إلى ما هو قادم.. في البداية اختلج فمه وبدا أنه يحاول التماسك، وسالت دمعتان من عينيه، ثم لم يلبث أن أجهش في البكاء !.

فزع أبي، وانتطرت أمي من مكانها وهي تسأله بذعر عما هنالك، في حين بقيت طانط عفاف في مقعدها والحرج على وجهها، وكأنّها مرّت بمثل هذا الموقف من قبل. وجدنا خالد ينهنه من بين دموعه المتلاحقة :

لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما أشد حماقة الإنسان !.

غمغم أبي بذهول :

أكل هذا بسبب الأخبار ؟!.

بعد دقائق هدأ خالد وذهب مع أمي لتدلّه على طريق الحمام كي يغسل وجهه وآثار الدموع في عينيه، فمال أبي عليّ وهمس بقلق :

هذا الشاب مجنونٌ بلا ريب يا ابنتي.. أأنتِ واثقة من رغبتك في الزواج به؟.

أجبته مبتسمة :

هو فقط يعيش اللحظة يا أبي، ويعطي للحزن حقه !.

بعد تناول الغداء جلستُ مع خالد في الشرفة وحدنا، ووجدته مقطب الوجه وكأنّه يحاول سماع صوتٍ بعيد. سألته عمّا هنالك، فأجابني بحيرة :

هنالك ترنيمة كونية لم أستطع سماعها بعد.. لكنّي سأفعل ذات يوم !.

وجدتها فرصة لأسأله :

كيف أصل إلى ما وصلتَ إليه ؟.

فسألني بدهشة حقيقية :

وما الذي وصلتُ أنا إليه ؟.

-- كل هذا السلام والصفاء والتناغم الذي تعيشه !.

هزّ رأسه بحيرة وغمغم :

لا أعتقد أنه يوجد فرقٌ كبيرٌ بيني وبينك.. أنا فقط أبذل جهدًا مضاعفًا لأتذكّر !.

-- تتذكّر ماذا ؟.

-- الحقائق التي تعلّمتها من المُعلّم، والتي كان يؤكد لي دائمًا أنني أعرفها بالفعل لكنّي بحاجة فقط لتذكّرها.. أنتِ أيضًا تعرفينها لكنّك بحاجة لتذكّرها.. هل تعرفين ؟.. أنا أنسى أحيانًا، أنسى أنني "أنا هو أنا"، أنسى أننا "كُلّنا أنا"، أنسى أنني شجرة.. أستسلم للحظات الضعف، فأعود كما كنتُ

قبل أن ألتقي المُعلِّم، مجرد طفلٍ خائفٍ من العالم ومن الآخرين.. الشيء الوحيد الذي تعلّمتُه من المُعلّم وربما يجعلني مختلفًا عن الآخرين قليلاً هو أنني أعود فأتذكّر سريعًا، أتذكّر حقيقتي، فتمتلئ نفسي بالطمأنينة من جديد.

عدتُ أسأله بإلحاح :

وكيف أصل إلى هذا ؟.

صمتَ وكأنّه يبحث عن إجابة تقنعني ثم لم يلبث أن أشار إليّ قائلاً :

أنتِ لستِ بحاجة للوصول إلى أي مكان، بداخلك كل السلام والصفاء والتناغم الذي تحتاجين إليه، فقط عليك أن تصلي إلى نفسك فتجديه !.

سألته بعصبية :

وكيف أصل إلى نفسي ؟ ليس بمقدور كل الناس أن يلتقوا بالمُعلِّم الذي التقيتُ به ليدلّهم على الطريق ! ما البداية التي أحتاجها لأصل إلى نفسي ؟.

ابتسم وأجابني :

ابدأي بتقبّل العالم كما هو.

واستدرك :

ولا تنسي أنك جزءٌ من العالم !.

- لكن هناك في العالم أمور ليس بإمكان المرء أن يتقبّلها !.. أنتَ مثلاً، هل باستطاعتك أن تتقبّل وجود سائق الميكروباص الذي اعتدى عليك وألقاك في الظلمات شهورًا ؟.. مهما كان استعدادك للتسامح والغفران؛ سيظلّ جزءٌ صغيرٌ بداخلك يتمنى لو يلقى ذلك الرجل عقابه العادل، أليس كذلك؟.

فوجئتُ بعينيه تترقرقان، وغمغم بخفوت ناظرًا إلى الأرض تحت قدميه :

هل تعلمين أن أحد مراكز مساعدة المكفوفين التي أزورها بانتظام يقع على نفس خط المواصلات الذي وقعت لي فيه تلك الحادثة ؟.

حينما كنتُ أذهب إلى هناك في الفترة الماضية كنتُ أتساءل.. في كل مرة أتساءل بقلق : لو تصادف والتقيتُ بذلك الرجل فماذا ستكون ردّة فعلي؟.. نفس الشعور الذي انتابني ليلة زواج ليلى طليقتي، حينما وقفتُ أمام باب القاعة متردّدًا، وفوجئتُ حينما لمستُ في داخلي غضبًا تجاهها.. قلتُ لنفسي : لو شعرتُ بأي غضب أو رغبة في الانتقام تجاه ذلك الرجل فما فائدة كل ما تعلمتُه وتدربتُ عليه في السنين الماضية ؟.. سأعود إلى نقطة الصفر !.

لذلك كنتُ أذهب إلى ذلك المركز باستخدام سيارات الأجرة أحيانًا، خوفًا من أن أركب ميكروباصًا فأجد سائقه هو نفس الرجل الذي اعتدى عليّ..

وفي أحيان أخرى كنتُ أُرغم نفسي على خوض التجربة، فأركب الميكروباص وقلبي يخفق بعنف خوفًا من أن ألتقي به.. لكنّي لم ألتقِ به ولا مرة، وظننتُ أن الخطر قد زال.. لابدّ أنه غيّر مكان عمله، أو غيّر عمله نفسه.. أو ربما ألقوا القبض عليه لسببٍ أو لآخر.. وبيني وبينك؛ لم أكن واثقًا من الأساس إن كنتُ سأتذكّره إن رأيته أم لا !.

لكنّي في مرة من المرات وجدتُ نفسي أمامه وجهًا لوجه.. ركبتُ الميكروباص وجلستُ في الأريكة الخلفية كعادتي، وإذا بعينيّ ترتطمان بمرآة الميكروباص الأمامية لأجد وجهه منعكسًا فيها.. تذكّرتُه على الفور رغم أني لم أره في تلك الليلة سوى لدقائق قليلة.. كان هناك تغيّر كبير فيه، وجهه وملامحه بديا أكثر هدوءًا وجدّية.. التبّاع الذي يعمل معه كان طفلاً لا يزيد عن العاشرة من عمره.. سأله رجل يجلس أمامي مشيرًا للصبي في اتهام :

أهذا ابنك يا أسطى ؟.

رمقه السائق في المرآة أمامه، ولم يبدُ عليه أنه لاحظني.

– أيوة يا أستاذ، حسين ابني الوحيد.

برطم الرجل باستياء :

ونعم الآباء ! يجعل ابنه الصغير يعمل معه بدلاً من أن يهتمّ بدروسه ومذاكرته !.

لم يبدُ أن السائق سمعه، إذ كان تركيزه كله على الطريق أمامه، لكنّ امرأةً ممتلئة كانت تجلس بجوار الرجل قالت له بحزن :

لا تقل هذا.. حسين هو كل حياته.. أمه ماتت بعد ولادته بعدة أشهر.. كنتُ أعرفها جيدًا، فقد كنتُ جارتهم.. الصبي نفسه كان سيموت منذ أربع سنوات لولا لطف الله.

– ألف لا بأس عليه، ماذا أصابه ؟.

تنهدت وأجابت :

جاءه المرض الخبيث.. لم يدرِ والده ماذا يفعل به، كان ومازال غلبانًا ليس معه سوى ما يكفي للطعام والشراب، وأجر الأطباء كبير كما تعرف.. لكنّ أولاد الحلال دلّوه على مستشفى سرطان الأطفال، وتوسطوا له لِيُدخله هناك.. لم يتحمّل رؤية ابنه وهو يذوي أمامه بينما يتلقى الكيماوي حفظنا الله منه.. كانت أيامًا صعبة، ازدادت فيها حدّته وعصبيته، وكان يتعارك مع الزبائن باستمرار بسبب الهباب الذي بدأ يبلعه لينسى ما هو فيه.. لكنّ الله هداه بعد أن شُفي حسين وخرج من المستشفى.

التفتَ السائق نحونا في تلك اللحظة وهتف :

من الذي له باقي عشرة جنيهات ؟.

رفعتُ يدي وقلتُ مبتسمًا :

أنا يا أسطى.

دفع النقود إلى ابنه ليناولها لي، دون أن يبدو عليه أنه تذكّرني.

– معذرة يا بيه، تبقى لك نصف جنيه، لكن ليست معي فكّة.

وصلنا إلى نهاية الخط، فبدأ الركّاب في النزول، وحينما اقتربتُ من الباب سمعتُه يسألني :

هل تسامحني يا بيه في النصف جنيه ؟.

توقفتُ في مكاني. شعرتُ برغبة في البكاء. فوجئ بي أضع يدي على كتفه وأقول له مبتسمًا والدموع تترقرق في عينيّ :

بل سامحني أنتَ !.

## قالت ليلى :

كنتُ أجلس مع سمير في مطعمٍ يطلّ على النيل أثناء فترة خطبتنا، حينما فاجأني بقوله :

هل عرفتِ أن خالد محفوظ استعاد بصره ؟.

تجمدتُ في مكاني مذهولة.

- كيف.. كيف حدث هذا ؟ هل أجروا له عملية ؟.

كنتُ أخشى أن يثير انفعالي ضيق سمير وغيرته، لكنّ الأمر كان أكبر من كل هذه المشاعر.

- لا أعرف، أكثر من صديق أخبرني بالأمر.. قرأوا كلامه على الفيس بوك لكنّهم لم يلتقوا به وجهًا لوجه.. لا أحد رآه منذ ذلك الحادث، كل ما نعرفه عنه أنه مازال يقيم عند خالته.

هتفتُ بغضب :

بالتأكيد يكذب ! هو فقط يحاول أن يجعلنا نظنّ أنه مر بمعجزة أعادت له بصره، يريدنا أن نعتقد أنه أفضل منّا وأن المعجزات تقع له والله يرعاه ! أنا أعرفه جيدًا !.

لم يردّ سمير عليّ واستمر في تناول طعامه بهدوء، فأكملتُ بحدة :

هذا الرجل مسكين، يستحق منّا الشفقة لا أكثر ! إنه مريض نفسيًا وبحاجة للعلاج.. لا يفعل شيئًا سوى تعذيب من حوله ليعطفوا عليه، يعيش على شفقة الآخرين ! أنا متأكدة أنه مازال يقضي يومه في التحدّث إلى أصدقائه في غرفة الدردشة على النت متصعبًا على حاله وكيف تخليتُ أنا عنه !.

غمغم سمير بحزن :

أتفق معك في كونه مسكينًا، أفكّر جديًا في زيارته والاطمئنان عليه، لكن لا أعرف كيف ستكون ردّة فعله تجاهي.. بالتأكيد وصلتْه أخبار أنني تقدمتُ لخطبتك، فكّرتُ في الذهاب إليه واستئذانه قبلها، لكنّي تراجعتُ شفقةً به وبنفسي !.

– إياك أن تقترب منه ! لن تجني شيئًا، كل ما سيحدث أنه سيحاول بشتى الطرق إشعارك بالذنب وبأنك مدينٌ له !.

ظللتُ أغلي غيظًا طوال تلك الليلة كلما تذكّرتُ خالد، لكنّي نسيتُه أو تناسيتُه تمامًا بعدها، ولم أذكره سوى في حفل زفافي، حينما اقتربت مني هدى ابنة خالتي بينما نرقص سمير وأنا وبقية المدعوّين وسط النغام الموسيقى، وهتفت بجوار أذني بشيء ما لم أسمعه في البداية، فاضطُرت لتكراره :

طليقك يقف أمام الباب !.

التفتُّ بذعر إلى الباب فوجدته بالفعل يقف هناك وفي عينيه نظرة لم أفهمها. لا أدري إن كان رآني أم لا، لكنّه لم يلبث أن تراجع بسرعة وأغلق الباب وراءه.. فوجئتُ بسمير يميل عليّ ويهمس في أذني :

ماذا بكِ ؟ لماذا شحُب وجهك فجأة ؟.

لم أردّ عليه، فاصطحبني عائدًا إلى الكوشة لأستريح قليلاً.

ما أن التقطتُ أنفاسي حتى هتفتُ به بجزع :

سمير ! ذلك الوغد هنا ! لقد جاء ليفسد حفل زفافنا !.

في البداية أكّد لي سمير أنني كنتُ أتوهم، لكنّه مع إصراري أخذ يطمئنني أن الأمور على ما يرام وأن أحدًا لن يستطيع إيذائي أو الوصول إليّ.

وأثناء شهر العسل الذي قضيناه في شرم الشيخ طمأنني سمير قائلاً :

عرفتُ أنه يعمل في السعودية الآن، ولا أحد يعرف متى سيعود، حتى خالته.. لا تقلقي أبدًا يا حبيبتي، أعتقد أنه سيلتفتُ لحياته ولن نسمع عنه بعد اليوم !.

لكنّي ظللتُ قلقة، ولم تهدأ نفسي سوى بعد مرور عدة أسابيع دون أن يحدث شيء. طلبتُ من بعض الأصدقاء التلصص على صفحته على الفيس بوك فطمأنوني بأنه لم يقم بتحديثها ولا كتابة أي شيءٍ فيها منذ شهور.

مرّت الشهور ونسيتُ أمر خالد محفوظ تمامًا، حتى جاء يوم ذهبتُ فيه مع سمير إلى وسط البلد لتناول الغداء في مطعمٍ للوجبات الأمريكية السريعة هناك.

كنّا نجلس على مائدتنا بجوار زجاج الواجهة الذي يُطل على الطريق، نتابع السيارات والعابرين بينما نقضم في صمت من شطيرتينا. كان هناك فتيان صغيران من أطفال الشوارع يتعاركان سويًا. ملابسهما يظهر عليها القدم والقذارة، وعلى وجهيهما ارتسمت ملامح الشراسة التي تتنافى مع البراءة المتوقعة من سنهما، ربما كانا في العاشرة من عمرهما، أكبر أو أصغر من ذلك بقليل.

سألتُ سمير محاولة فتح بابٍ للحديث :

قد يكونان مادّة خصبة لقصّة تكتبها !.

هزّ رأسه صامتًا. كان البرود المعتاد قد حطّ برحاله على حياتنا الزوجية، أصبح كل شيء مكررًا معتادًا لا جديد فيه.

فجاة انتبهتُ على صوته وهو يهتف بدهشة :

أليس هذا خالد محفوظ ؟!.

التفتُ إلى حيث ينظر فإذا بخالد يسير في الشارع على بعد أمتارٍ من مجلسنا، كان هناك شيءٌ غريبٌ فيه. كان يرمق الناس الذين يمرّون حوله باهتمام وعلى وجهه ابتسامة. وقف أمام الصبيين المتعاركين وأخذ يتحدث إليهما مبتسمًا. توقف الصبيان عن العراك وأخذا يبادلانه الحديث. كانا يرمقانه بتردّد وشك في البداية، ثم لم تلبث أن ارتفعت ضحكاتهما. هل يعرفهما ؟.

فوجئتُ به يميل عليهما فجاة ويحتضنهما بقوة. وقفتُ في مكاني من الدهشة ولم ينتبه سمير إلى وقوفي، إذ كان يرمق المنظر بذهولٍ هو الآخر.

لم يهتمّ خالد بقذارة ملابسهما ولا بالتراب المتجمد فوق وجهيهما وشعريهما، احتضنهما بقوة وأغمض عينيه بحب وكأنّه يعرفهما منذ فترة طويلة. كنتُ متأكدة من أنه لم يرهما من قبل، الطريقة التي رمقاه بها حينما

وقف أمامهما وهما يتعاركان، وتعبيراتُ وجهه ووجهيهما تقولان بوضوح أنهما كانا يريانه للمرة الأولى. ما الموضوع ؟!.

تبادلتُ النظرات المندهشة مع سمير.

ثم فوجئنا بخالد يمسك يديّ الصبيين ويجذبهما خلفه بسعادة باتجاه مطعمنا. دخل ولم ينتبه إلي وجودنا، وجلس ثلاثتهم علي طاولة قريبة منّا، كان وجها الصبيين ينضح بالسعادة، ووصلني صوت خالد وهو يرمق قائمة الشطائر ويسأل الصبيين بحيرة :

ما رأيكما ؟ ماذا نختار ؟.

أشار كل واحدٍ منهما في اتجاه داخل صفحة القائمة. جاء الجرسون وأخذ يرمق ثلاثتهم بدهشة وتردّد، فطلب منه خالد أن يُحضر ما طلبه الصبيين.

سأله أحدهما :

وأنت يا عمّو ؟ أين شطيرتك ؟.

أجابه خالد مبتسمًا :

خالتي تعد لي الطعام في البيت، وستغضب كثيرًا لو عرفت أنني أكلتُ بالخارج !.

انفجر الصبيان يقهقهان وهما يضربان الأرض بأقدامهما على "عمّو" الذي يخشى غضب خالته، فإذا بخالد ينطلق في الضحك معهما !.

كان هناك شيءٌ ما متغيرٌ فيه لم أنتبه إليه في البداية. هناك إشراقة عجيبة في وجهه. لا أريد أن تختلط عليّ الأمور الآن يا سيدي بعد أن عرفتُ لاحقًا ما مرّ به وما أصبح عليه، لكنّي بالتأكيد لاحظتُ وقتها أن في وجهه قبسٌ من نور !.

عادة ما يكون المطعم ممتلئًا في مثل ذلك الوقت، لكن لحسن الحظ لم يكن هناك كثيرون ليشهدوا هذا المشهد غير المألوف. فقط ثلاث طاولات بخلاف طاولتنا، انصبّت أنظار أصحابها على طاولة خالد والصبيين باهتمامٍ ودهشة، لا تقل عن دهشة العاملين في المطعم.

كان خالد يلتفتُ حينما التقت عيناه بعينيّ المندهشتين. توقعتُ أن يعتريه الارتباك أو الحرج، يتظاهر بأنه لا يرانا أو يرمقنا بلا اهتمام، توقعتُ كل شيء إلا أن يمتلئ وجهه بالفرحة ويلوّح لنا بكفه بسعادة، ثم يقترب منّا ضاحكًا يتبعه الصبيان !.

– ليلى وسمير، يا لها من مصادفة مرتبة بدقة ! كيف حالكما يا أعزّ الناس؟!.

نهض سمير ليصافحه بتردّد فإذا بخالد يجذبه إليه ويأخذه في حضنه بقوة ويربتُ على ظهره مريحًا وجهه على كتفه مغمض العينين وكأنّه طفل وجد حضن أمه !.

أدهشني هذا الودّ بنفس قدر الدهشة التي ظهرت على وجه سمير، ثم لم يلبث أن التفت إليّ وصافحني بيديه الاثنتين وهو يقول بحماس :

ليلى العزيزة، ليلى الطاهرة، كيف حالك ؟ أراكِ تزدادين جمالاً يومًا بعد يوم!.

ثم سحب كرسيًا وجلس إلى طاولتنا دون استئذان وهو يسألنا باهتمام :

هل تسمحان لصديقيّ هذين بالجلوس معنا ؟.

وأشار إلى الصبيين اللذين وقفا خلفه يرمقان كل هذا بحيرة، فأسرع سمير يقول :

بالطبع، بالطبع، تفضلا !.

لم تكن جرأته هي ما أثارت استغرابي. ما أثار استغرابي فعلاً أنه كان يفعل كل هذا، يرانا ويتكلم ويضحك، ويجلس إلى طاولتنا، بمنتهى العفوية. لم

أشعر فيه بأي قدرٍ من الافتعال، لم أجد لديه أي قدرٍ من المشاعر المكتومة أو المخفية.

هل نسي كل ما مررنا به ؟ نسي حقده على سمير ومشاكله معي ؟ نسي اتهامه لي بخيانته وتركي له ثم زواجي بسمير ؟.

لو كنتُ مكانه لتمنّيتُ أن يختفي من على وجه البسيطة، كنتُ لأحجز له تذكرة مجانية بلا عودة على السفينة تيتانيك !.

شعرتُ بالتقزز من جلوس الصبيين معنا، القذارة التي تغطيهما والرائحة البشعة المنبعثة منهما، لابدّ أنهما لم يستحمّا منذ أسابيع. أشحتُ بوجهي بعيدًا علّ أنفي يجد منفذًا نظيفًا للتنفس، لكنّي فوجئتُ بخالد يقول لي مبتسمًا برقة :

الروائح السيئة تنبعث فقط ممن ملأوا قلوبهم بالكراهية.. ربما كراهيتهم هذه هي الشيء الوحيد الذي يستحق الغرق !.

رمقته بذهول ! كيف عرف ؟!.

– كيف.. كيف ؟!...

لم أجد ما أكمل به، فرمقني مبتسمًا وأخذ يربّتُ على ظهر أقرب الصبيين إليه.

كنتُ أشعر بالحرج الذي يشعر به سمير، لابدّ أنه يوازن بينه وبين نفسه إن كان خالد صادقًا في تصرّفه أم أنه يحاول فقط إحراجنا. تنحنح ثم سأل الصبيين محاولاً فتح بابٍ للحديث :

ما اسمكما يا صديقيّ ؟.

– علِيّ !.

– إبراهيم !.

فوجئتُ بخالد يلتفتُ إليهما ويقول بسعادة :

عليّ وإبراهيم، يالهما من اسمين مميزين جميلين !.

سألته بدهشة :

ألم تكن تعرف اسميهما ؟.

– الأسماء والوجوه غير مهمّة يا ليلى، المهم ما وراءها !.

قلتُ له بسخرية :

المهم ما وراءها ؟! وماذا ترى خلف وجهي ؟!.

كنتُ ساكمل بحدّة "ترى الخيانة، أليس كذلك ؟!"، لكنّني فوجئتُ به يبتسم قائلاً ببساطة :

أرى وجهي أنا !.

أذهلتني نظرتُه إليّ، لم يكن يحاول تصنّع أي شيء، لا الودّ الكاذب ولا اللامبالاة وعدم الاهتمام، كان فقط يرمقني أنا وسمير والصبيين بنظرة حبٍ صافية تلقائية، زلزلتني نظرتُه تلك لأنها ذكّرتني بنظرة المرحوم أبي إليّ. كان يرمقني بنفس الطريقة بينما ألعب وأنا صغيرة.

أدهشني أن وجدتُ نفسي أرتاح إلى وجوده، هناك شيء محبب فيه. لم يكن هذا خالد الذي أعرفه، هذا شخصٌ آخر يحمل نفس الملامح !.

انتبهتُ فجأة إلى الشيء الذي شعرتُ بتغيره في ملامحه. كان الصلع في مقدمة رأسه قد بدأ في الانحسار، وبدأ الشعر في النمو من جديد. هل قام بعملية زرع شعرٍ أم ماذا ؟!.

فيما بعد عرفتُ أنه هو نفسه لا يدري ماذا حدث، بدأ الشعر ينمو في مقدمة رأسه من جديد بلا سبب.

شعرتُ أن سمير ارتاح إلى ما يفعله خالد، بالتأكيد يشعر أن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهله. خالد ليس غاضبًا ولا حاقدًا عليه. سأله بود :

علمتُ من بعض الأصدقاء أنك عدتَ من السعودية منذ بضعة أسابيع.. ماذا تنوي أن تعمل الآن يا صديقي ؟.

- أزور بانتظام مراكز مساعدة المكفوفين لأساعد قدر استطاعتي.. أعطيهم ملفات كتبٍ صوتيّة بعضها حصلتُ عليه من الإنترنت وبعضها قمتُ بتسجيله بنفسي.. لا يمكنك أن تتخيل يا صديقي مدى معاناة المكفوف حينما لا يستطيع القراءة بنفسه.. هناك أيضًا برنامج مفيدٌ جدًا اسمه **Free letter sound**، تواصلتُ عبر الإنترنت مع المبرمج الذي صنعه وتعاونّا سويًا على تطويره ليناسب احتياجات المكفوفين أكثر.. كانت هذه هي المرة الأولى التي أستغل فيها تخصصي في البرمجة منذ تخرجتُ من الكليّة.

وأخذ يقهقه في سعادة مغمض العينين وقد تراجع برأسه إلى الوراء، ثم أكمل:

أحاول تعميم هذا البرنامج لدى جميع مراكز مساعدة المكفوفين، وأقوم بتدريبهم على استخدامه للتعامل مع أجهزة الكمبيوتر وشبكة الإنترنت.

سأله سمير بحذر :

كنتُ أقصد بسؤالي ماذا تعمل لتكسب رزقك !.

انطلق خالد يقول بحماس :

أها.. حاليًا أساعد ابن خالتي في إدارة شركة السياحة التي ورثها عن والده.. فرح كثيرًا حينما أبديتُ له استعدادي للعمل معه، وأخبرني – ذلك العزيز– أنه كان يتمنى هذا منذ سنين، لكنّه كان يخشى مصارحتي لأني كنتُ أغضب بشدة إذا حاول أحدٌ مفاتحتي في العمل في غير مجال الكتابة.

وأخذ يقهقه ضاحكًا وقد عاد برأسه للوراء مغمض العينين، حتى ظننتُ أنه قد يسقط عن كرسيه في أي لحظة.

– لكن بيني وبينك يا صديقي، لديّ خططٌ أخرى.. قمتُ مؤخرًا مع بعض الأصدقاء بإنشاء جمعية أدبية للاهتمام بصغار الكتّاب ومساعدتهم على نشر أعمالهم وتوزيعها والدعاية لها.. أسميناها جمعية "الكاتب الشاب".. أنتَ بالطبع معنا فيها يا سمير العزيز، سنستفيد كثيرًا من خبراتك وعلاقاتك في الوسط الأدبي.. ما رأيك ؟.. اسمع، سأكلّم بقية الرفاق في أن نجعلك رئيسًا للجمعية، ما رأيك ؟.

كـان يـتكلم بحمـاس الأطفـال، وكـأنّ كـل شـيء ممكـنٌ لمجرد أنـه يريـده. أدهشـني حماسـه لجعـل سـمير رئيسًـا لجمعيتـه تلـك، بـدلاً مـن أن يحتفظ برئاستها لنفسه.

ـ لا أعـرف يـا خالـد، الأمـور لا تؤخـذ بهـذه الطريقـة.. فلـنجلس مـع بقيـة الأعضاء ثم نرى ماذا بإمكاني أن أقدمه للجمعية.

هزّ خالد رأسه موافقًا بحماس، كانت السعادة تقطر من وجهه طوال الوقت. فكّرتُ في أنه لو فاز بجائزة نوبل في الأدب لما كان بمثل هذه السعادة والبهجة !.

التفتَ إلى الصبيين اللذين انهمكا في تناول شطيرتيهما وقال بحماس :

يمكنكما يا صديقيّ أن تأتيا للعمل معنا في الجمعية، ستساعدان في نقل الكتب وتوزيعها، تعالا أنتما ورفاقكما، سنوفر لكم عملاً ومكانًا للمبيت !.

رمقه الصبيين غير فاهمين، لكنّه عاد يلتفتُ إلى سمير قائلاً بحماس :

اسمع، هناك شيء آخر أود أن تساعدني فيه.. هناك رواية أكتبها منذ فترة وأوشكتُ على الانتهاء منها.. كنتُ أسميها في البداية "عدم" لكنّي بعد عودتي من السعودية أسميتُها "بصيرة".. أود منك أن تساعدني في نشرها وتسويقها، أنتَ صديقي وأنا بحاجة إليك !.

فوجئتُ بدمعة تترقرق في عينيّ سمير وهو يقول بتأثّر :

بالطبع يا صديقي، بالطبع.. أنا تحتُ أمرك في أي شيء.

كانت لحظة غريبة. كنتُ مازلتُ حتى تلك اللحظة أضع على وجهي قناع البرود وأتعامل مع خالد بتحفظ، إلى أن فوجئتُ به يصمت رامقًا الطاولة وكأنه على وشك قول شيءٍ خطير، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إلينا :

– قابلتُ مؤخرًا صديقًا نصحني بألا أكتم مشاعري.. قال لي : إذا أحببتَ شخصًا، حتى لو كان حارس بنايتكم، أخبره بذلك.. هو سيفرح وأنتَ ستُزهر.. نصحني بالتغلب على الكِبر بداخلي والسماح بمشاعر الحب أن تأخذ مكانها !.

وترقرقت عيناه بالمحبة وهو يكمل :

– أنا أحبكما، هل يمكننا أن نظلّ سويًا هنا لبعض الوقت ؟.

انهارت آخر حواجزي، ففوجئتُ بنفسي أهتف به :

خالد ! سامحني !.

رمقني بمحبة وغمغم :

بل سامحيني أنتِ !.

شعرتُ بنفسي تتخلص من كل أحمالها، تصبح خفيفةً كالعصفور، انتابني شعورٌ عميق بأنني يمكنني الطيران لو أردتُ. غزا الصفاء نفسي ولم أعد أشعر بالخوف.

رمقتُ خالد بامتنان، فإذا به قد غاب عنّا حين حطت حمامة على حافة إفريز الواجهة الزجاجية التي جلسنا بجوارها، فالتفتَ إليها وأخذ يرمقها باهتمامٍ وتركيز !.

**قال** خالد محفوظ :

اشارت لي الممرضة فنهضتُ عن مقاعد الانتظار وذهبتُ معها. هتف بي والد أمل بقلق :

أمازلتَ مصرًا على حضور العملية ؟!.

التفتُّ إليه ورمقته بابتسامة مطمئنة، فإذا بقلقه يزول والابتسامة ترتسم على وجهه :

كان الله معك يا بني !.

في أول زيارة لنا أمل وأنا لدكتور سعيد وجدتُ لوحة تُخبر الزوج أن بإمكانه حضور عملية الولادة إذا أراد. ثم عرفنا أن الدكتور سيتأخر لأنه يجري عملية ولادة في غرفة العمليات التي تقع بالضبط أمام مقاعد انتظار العيادة. دقائق قليلة ثم خرج الزوج من غرفة العمليات وكان سعيدًا منشرحًا، وأخذ يشرح للممرضات ما رآه بالداخل، أما حماته فكانت متأثّرة تمسك دموعها بصعوبة، وأخذت تشرح للمنتظرين معنا كيف أن ابنتها لديها مشاكل

صحية، وأنها أُجهضت في المرة السابقة، لكنّ دكتور سعيد كان متمكنًا وأجرى لها هذه الولادة القيصرية بنجاح. كان المولود أنثى، ولم تأخذ الولادة سوى أقل من نصف ساعة. ولم تمضِ بضع دقائق حتى ظهرت ممرضتان تدفعان أمامهما سريرًا متحركًا استلقت فوقه الأم الشابة وهي مازالت تحت تأثير المخدّر، فتركتنا أمها وأسرعت تساعدهما.

صارحتُ الدكتور برغبتي في دخول غرفة العمليات، فقال لي إنه لا مشكلة لديه في ذلك مادامت أعصابي قوية ويمكنني التحمّل، وأنه سيتبقى أخذ إذن طبيب التخدير يوم الولادة ليسمح لي بالدخول.

تجاوزتُ مع الممرضة باب غرفة العمليات، ووقفتُ معها في الطرقة التي تليه. طلبت مني خلع سترتي وحذائي، وساعدتني على ارتداء رداء العمليات الأخضر الذي يُربط من الخلف، ووضع القناع على وجهي، وسلمتني حذاءً أبيض معقمًا، ثم قادتني إلى الداخل.

لا أذكر عدد من كانوا يتحلّقون حول جسد أمل بالضبط، ولا من كان يفعل ماذا، ولم أرَ حتى وجهها الذي كان – لحسن الحظ – إلى الجهة الأخرى. فقط رأيتُ بطنها المشقوق، والدكتور يحرك مبضعه داخله ليزيد الفتحة اتساعًا. عرفتُ حينها أنهم تأخروا في إحضاري حتى ينتهي الدكتور من عملية فتح البطن خشية ألا أتحمل رؤية شق المبضع للحم.

لكنّي لم أهتز، كل ما كنتُ أفكّر فيه هو قدسية هذه اللحظة والنهاية الرائعة التي ستنتهي بها. فكّرتُ أنني أقف الآن وجهًا لوجه أمام الحياة، أمام أصل كل شيء، في اللحظة الفارقة التي تسبق بدء تجربتنا في هذا العالم.

في بطن أمل المفتوحة، وتحت الأنسجة الممزقة، هناك شيء دائري رقيق يشبه البالون، هذا هو الرحم. داخل هذا الشيء هناك حياة أخرى لم تكن موجودة منذ بضعة شهور، تم استخدامي أمل وأنا في إحضارها. بدأت صغيرة لا تُرى بالعين المجردة، وتابعناها على شاشة السونار على مدى الشهور الماضية وهي تكبُر شيئًا فشيئًا، من حبة عنب إلى حبة فراولة إلى قبضة اليد إلى أن صارت كائنًا حيًّا له رأس وأذنان وعينان وقلب ينبض. ذروة كل هذا سأراه الآن، لهذا لم أكن مهتمًا بالدماء ولا بالأنسجة الممزقة ولا بالمبضع الذي يشق مزيدًا من اللحم.

تحسس الدكتور الرحم، ووضع يده على منطقة ما، وقال لي من خلف قناعه:

هذه رأس الكتكوتة الصغيرة !.

وبحركة سريعة لا يمكن تصوّرها، وفي ثانية واحدة لا غير، شق بمبضعه هذا الجزء وباليد الأخرى سحب الصغيرة من رأسها وجذبها بالكامل مرة واحدة من داخل رحم أمل.

كان شيئًا لا يصدق، كانت مبتلة وصغيرة جدًا، بنفسجية اللون، والحبل السُرّي يلتف حولها. ولوهلة هُيء لي أنها فوجئت بما حدث فتجعدت ملامحها بانزعاج، وكأننا اقتحمنا عليها خلوتها في غرفتها وهي جالسة مطمئنة بعيدًا عن العيون، ثم انفجرت في البكاء.

سلّمها الدكتور إلى أحد معاونيه، فأخذها بعيدًا، ثم أخرج من داخل أمل قطعة ضخمة من اللحم بما يشبه الجاروف، وألقى بها في سلة المهملات!. ولما لاحظ نظرة الذعر في عينيّ ضحك وطمأنني :

هذه المشيمة !.

ثم أشار فجأة إلى الممرضة قائلاً بصرامة :

خذيه إلى الخارج !.

سألتهم بخجل :

هل يمكنني حمل المولودة وتلاوة الأذان في أذنيها ؟.

أخبرتني الممرضة أنه سيمكنني ذلك حينما يأخذونها إلى الحضّانة بعد دقائق، وأخذتني إلى الخارج وساعدتني في خلع رداء العمليات.

طمأنتُ والديّ أمل أن الأمور سارت على ما يرام. كانت مقاعد الانتظار قد بدأت تمتلئ بالناس لأن موعد كشوفات الدكتور كان قد جاء. وجدتُ بين الجالسين السيدة التي كانت ابنتها تَلِدُ منذ عدة أسابيع، وميّزتُ بصعوبة ابنتها الجالسة بجوارها في كامل أناقتها وزينتها. كانت أمّ أمل تقول بقلق :

يا رب طمئنّا عليها !.

فقالت لها السيدة مطمئنة :

لا تخشي شيئًا، دكتور سعيد ماهر جدًا. ابنتي ولادتها كانت متعثّرة لكنّه قام بتوليدها منذ عدة أسابيع، وها هي أمامك على خير ما يرام !.

رمقتُها بابتسامة، لم تكن هناك حاجة لأخبرهم أننا كنّا هنا لحظة تلك الولادة. لقد تمّ تسخيرهم لطمأنتنا وشدّ أزرنا، فلا داعي للتدخل في عملهم.

ثم نادتني الممرضة، فنهضتُ إليها.

– حضرتك كنت تريد تلاوة الأذان في أذنيّ الصغيرة، أليس كذلك ؟.

تبعتُها، ومن بعيد وعبر نافذة مفتوحة لمحتُ بعض الأشجار تتمايل مع أنسام المساء. كانت ترمقني مبتسمة، وتهزُّ لي أغصانها مشجّعة.

وجدتُ ممرضًا يخرج من غرفة العمليات وهو يحمل صغيرتي كالأرنب، بينما هي تبكي منزعجة بصوتها الرفيع. كان يُجلِسُها بين يديه، بِمقعدتها على كفّه، وظهرها المنتصب مسنود بكفّه الآخر، ودخل بها إلى حضّانة الأطفال ونحن وراءه. وضعها على ما يشبه الميزان تحت مصباح نيون يصدر حرارة دافئة، وأخبرني أنه سيقوم بتحميمها ويريد شامبو وزيت أطفال.

أسرعتُ إلى صيدلية المستشفى فاشتريتُ ما طلبه منّي ثم عدتُ إليه مسرعًا، فأخذ مني الأشياء، ثم حمل الصغيرة إلى حوض يشبه تمامًا حوض المطبخ. فتح الماء ووضعها تحته وهي لا تكف عن الصراخ. غسل شعرها بالشامبو، ثم حملها ملفوفة في منشفة كبيرة وجففها جيدًا، وأعادها إلى أسفل مصباح النيون. أخذ يغسل جسدها بقطنة مبللة بزيت الأطفال زكي الرائحة، ثم وجدتُ في يده فرشاة صغيرة أخذ يصفف بها شعرها إلى الخارج، بينما لا تكف هي عن البكاء.

ثم حانت اللحظة حينما انتهى من كل هذا، فحملها وناولها لي لأول مرة لأؤذن في أذنيها.

كنتُ قبل دقائق أهاب حمل الأطفال وأخشى أن أخطئ فأحطّم فيهم شيئًا ما، لكنّي بعد رؤيتي للدكتور وهو يُخرج الصغيرة بكل بساطة من بطن أمل شادًا إياها من رأسها فقط، ثم الممرض وهو يحملها بكل بساطة كالأرنب؛

أدركتُ أن الأطفال ليسوا بالهشاشة التي نعتقدها، لذلك أمسكتُ بها بثقة، وضممتها بين يديّ.

شعرتُ بدوارٍ خفيف، ولم أستطع السيطرة على دموع عينيّ.

سألتني الممرضة بفضول :

ماذا ستسميها ؟.

أجبتُها مبتسمًا :

حياة.

واقتربتُ بفمي من الأذن الصغيرة وهمستُ بحب :

مرحبًا بك يا حياة !.

أنهى العجوز حكايته قائلاً :

– وكانت هذه هي قصّة صديقنا خالد محفوظ !.

رمقني مبتسمًا وكأنّه ينتظر ردّة فعلي. كنتُ أشعر بنشوة الاستيقاظ من حلمٍ جميل. ظللتُ صامتًا قليلاً ثم سألته بحيرة :

هل تتوقع إن كتبتُ هذه الحكاية أن يتقبّلها الناس ؟.

– ولماذا لا يفعلون ؟.

شعرتُ بالغيظ منه، وكأنّه لا يعرف !.. غمغمتُ بضيق :

لأنها تقول ببساطة أن علينا أن نصبح خارقين لنصل إلى جنّة الأرض، إلى السلام الهانئ الذي لا يعكّر صفوه شيء، نكون دراويش نمشي بين الناس.. ولنصبح كذلك علينا أن نخوض تجربة روحية طويلة ليست متاحة للجميع!.

هزّ رأسه بدهشة :

من الغريب أنك أخذتَ الأمر بهذه الطريقة.. حكاية خالد تقول ببساطة ان المرء مهما بلغ من الحضيض بإمكانه أن يصل للقمة إن أراد ذلك.. بإمكانه أن يخرج من بين طين الأرض ويرتفع لأعلى إلى أن يتعدى حدود السماء.. أما عن التجربة الروحية، فمن أخبرك أننا لا نخوضها ؟ حياتنا كلها ليست سوى تجربة روحية طويلة، نحن فقط من لا ينتبه لذلك.

ثم صمت قليلاً ليأخذ نفسًا عميقًا، وأكمل :

أنا أثق أن خالد التقى بالمُعلِّم لأنه أراد بقوة وصدق أن يلتقيه.. هو أراد ان يصل إلى ما وصل إليه فكان أن وصل.. لكن هل هذا هو الطريق الوحيد ؟ لا أعتقد.. ليس علينا بالضرورة أن نسير على خطى خالد بالحرف، ولا أن نصل إلى نفس ما وصل إليه.. التجارب لا يمكن استنساخها لأن لكلٍ منّا ظروفه وطريقه الخاص، قد تكون الوجهة واحدة لكن تختلف السبل.. وفي النهاية ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلّه !.

عدتُ أقول بإصرار :

مازلتُ أشعر أن الناس لن يتقبّلوا هذه القصّة وسيجدونها تعج بالمبالغات !.

– ربما، من يدري.. بالتأكيد ستُضايق حكاية خالد من تختلف تجربتهم عن تجربته.. هناك كثيرون يعيشون حياتهم في تعاسة وشقاء، استسلموا لهذه الحالة ووجدوا ذاتهم من خلال شعورهم بالألم ورثاء الذات؛ حينما يقرأون

قصّة خالد قد يشعرون بالاستهجان.. سيشعرون أنها تتكلم عن شيءٍ بعيدٍ جدًا عنهم.. وحتى لو أعجبتهم سيقاومون هذا الإعجاب لأن إقرارهم به سيعني أنهم ضيّعوا حياتهم من أجل لا شيء.

– وكيف أتصرّف مع هؤلاء ؟.

رمقني بحنان :

احترم تجربتهم ! ليس لأنك خضتَ تجربةً مختلفة فإن عليك أن تتعالى على تجارب الآخرين ! هم لم يذوقوا ما ذقته، لم يتعرّفوا عليه، لم يشعروا به بعد.. تقبّل تجربتهم، وادعُ لهم ليملأ السلام جنباتهم، وتمنّ أن يصلوا لدرجة الوعي الكافية ليتقبّلوا تجربتك بدورهم.

صمتُّ قليلاً، ثم عدتُ أسأله :

وماذا عن المعاناة ؟ أعلينا أن نعاني لنجد أنفسنا ؟.

هزّ رأسه ببطء وهو يتأمّلني متفحصًا :

لا أعرف.. صديقنا خالد عانى كثيرًا كي يصل إلى أرضٍ صلبة يقف عليها، فهل يجب علينا نحن أيضًا أن نخوض نفس المعاناة ؟.. لا أعرف، لكنّ الفكرة قد لا تكون في المعاناة.. أنتَ هنا لغاية معينة ولديك طريق ستسير

فيه إلى أن تصل وتحقق غايتك.. لو حِدت عن هذا الطريق فستعاني إلى أن تعود إليه.. المعاناة هنا ليست وسيلة للوصول لغايتك ولكنّها طريقة الحياة في تنبيهك إلى أنك لم تعُد على الطريق.. كمنبّه الإيقاظ الذي ضبطته على ساعة معينة تستيقظ فيها لتذهب إلى عملك.. سيظلّ المنبّه يرن لما لا نهاية إلى أن تستيقظ وتوقفه.. لو أنك استيقظتَ من البداية لما احتاج جرس المنبّه لإزعاجك !.

فكّرتُ قليلاً ثم سألته :

لكن.. ما هي غايتي في الحياة ؟.

ضحك وقال :

لستُ أنا من سيجيبك عن هذا السؤال.. أنتَ تعرف الإجابة، لكنّك فقط بحاجة لتذكّرها.

هززتُ رأسي بشرود. رمقتُ ساعتي وغمغمتُ :

مضى الكثير من الوقت.. أعتقد أننا أوشكنا على الوصول إلى أسوان !.

ثم تذكّرتُ شيئًا فسألتُه بشك :

المفروض أن خالد محفوظ كان على وشك نشر روايته تلك والعودة بقوة إلى عالم الكتابة، أليس كذلك ؟!.

ردّ بثقةٍ مستفزّة :

لقد نشرها بالفعل ونجحت نجاحًا كبيرًا وصار من مشاهير الكتّاب !.

هتفتُ بغيظ :

يا سلام !.. كيف إذن لم أسمع عنه لا هو ولا روايته ؟!.

رمقني بابتسامة هادئة ولم يردّ، فعدتُ أسأله بحدة :

أعتقد أن الوقت قد حان أخيرًا لتخبرني بحل كل هذه الألغاز ! من أنتَ ؟ ومن خالد محفوظ ؟ ولماذا لم أسمع به من قبل مادام صار كاتبًا مشهورًا ؟! لقد وعدتني في البداية أن تخبرني مع نهاية القصّة بحقيقة شخصيتك !.

شرد ببصره وقال بخفوت :

أنا شخصٌ اكتشف أن غايته أن يُلهم أشخاصًا بعينهم.. قضيتُ العشرين عامًا الماضية أتجوّل في أماكن لا أعرفها لأتحدّثَ إلى أشخاصٍ أعرفهم وأُقنعهم بالاستماع إليّ.

– انتَ تتحدّث بالألغاز مرة أخرى بينما أنا أريد إجابة مباشرة.

– حتى إجابة هذا أنتَ تعرفها.. لكنّك بحاجة أيضًا لتذكّرها !.

نفضتُ رأسي وأنا أقول :

أتدري ؟!.. أشعر الآن بنفس الشعور الذي كنتُ أشعر به أيام الكليّة حينما كانت إحدى المحاضرات الصعبة تطول فيتوقف عقلي عن الاستيعاب.. أنا بحاجة لغسل وجهي ببعض الماء ثم أعود لأعرف منك الحقيقة كاملة !.

نهضتُ متجهًا إلى دورة المياه في الطرقة بين العربات. لعلّه فطن إلى أني أرغب في غسل وجهي للتأكد من أن كل هذا لم يكن حلمًا !.

كان الحمّام مغلقًا، هناك شخص في الداخل. وقفتُ أمام الباب منتظرًا، أرمق الليل خارج نافذة القطار محاولاً تمييز المرئيات المتسارعة.

انفتح باب الحمّام وخرج الرجل فأسرعتُ أدخل. كانت دورة المياه قذرة كالعادة، وخيط رفيع من الماء ينساب من الصنبور.

فتحتُ كفيّ تحت الصنبور وظللتُ واقفًا في صبر إلى أن امتلأ كفاي بالماء، ثم نثرتُه على وجهي. لقد كانت رحلة طويلة !.

رمقتُ وجهي المجهد في المرآة. بدا كأنّني كبرتُ في السن وصرتُ عجوزًا.

فزعتُ وكدتُ أسقط ! كيف فاتني هذا ؟!.

عدتُ مسرعًا إلى مقعدي. كان خالد جالسًا بهدوءٍ كعادته.

- الآن فقط انتبهتُ للأمر.. لا أدري كيف فاتني كل هذا الوقت !.. في البداية بدت لي ملامحك مألوفة وظننتك تشبه أبي.. لكن في الحقيقة أنتَ تشبهني أنا إذا بلغتُ الستين !.

لم تبدُ عليه المفاجأة من كلامي !.

تقلصت معدتي وقلتُ له بصوتٍ مبحوح :

أنتَ.. أنتَ أنا، أليس كذلك ؟.

ضحك بمرح وقال :

مازلتَ تفكّر في موضوع السفر عبر الزمن.. أنني أنتَ من المستقبل، أليس كذلك ؟.

أتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة.. لا يا عزيزي، أنا لستُ قادمًا من مستقبلك !.

هتفتُ بحدة :

إذن من أنتَ ؟!.

اختفت ابتسامته، وغمغم بخفوت :

أنا أنتَ.. ولكن بتاريخٍ مختلف !.

وقبل أن أنطق بحرفٍ نهض واقفًا وهو يقول بمرح :

سأحتاج لزيارة دورة المياه بدوري !.

وقبل أن أعترض تحرّك مبتعدًا.

كدتُ ألحق به، لكنّي انتبهتُ في تلك اللحظة إلى جلبة قادمة من مقدمة العربة. كان هناك جندي شرطة معه رجل بملابس مدنية يبدو واثقًا من نفسه، خمّنت أنه ضابط شرطة. كانا يمران على الركاب واحدًا واحدًا ويطلبان فحص بطاقات هويّتهم.

أشعر بالتوتر في وجود رجال الشرطة، ينتابني خوف طفولي من أن يكتشفوا فجأة أنني قمتُ بعملٍ يُعاقب عليه القانون دون أن أدري. لذلك أخرجتُ بطاقة هويّتي من جيبي وجلستُ منتظرًا في قلق مجيء الدور عليّ.

وحينما وصلا عندي مددتُ يدي إلى الضابط ببطاقتي، فتأمّلها مغمغمًا :

خالد محمد عبد الدايم محفوظ.. اسم الشهرة خالد عبد الدايم.

وأعادها إليّ فتنفّستُ الصعداء.

مضت بضع دقائق دون أن يعود خالد، وبدأ القطار يُبطئ من سرعته، وسمعتُ الفتية الواقفين بين الممرات يغمغمون بأن القطار على وشك دخول محطة أسوان.

هل من الممكن أن.. ؟!.

انتطرتُ كالملسوع وأسرعتُ إلى دورة المياه. كانت خالية.

أسرعتُ أركض إلى العربة التالية، والتي تليها، والتي تليها، أرتطم بالركاب وأعتذر بارتباك، وأفحص دورات المياه في الطرقات بين العربات.

لم يكن هناك أثر لخالد. لقد رحل فجأة كما ظهر فجأة.

عدتُ مسرعًا إلى عربتي وكلّي أمل أن أجده هناك جالسًا بهدوء فوق المقعد، لكنّ مقعدينا كانا خاليين !.

أسرعتُ إلى الفتية الواقفين بين الممرات وسألتُهم بلهفة :

الرجل.. الرجل العجوز الذي كان يجلس بجواري.. هل عاد أو مرّ من هنا؟.

رمقني الفتى – الذي رفضتُ في بداية الرحلة جلوسه بجواري – بخبث وسألني بضحكة ماكرة :

أي رجل يا أستاذ ؟ لقد كنتَ نائمًا وحدك طوال الرحلة ولم يجلس أحد بجوارك !.

رمقتُه مذهولاً غير مصدق، وحينما وجدتُ زملاءه يرمقونني وهم بالكاد يكتمون ضحكاتهم شعرتُ بالغضب يغلي في عروقي، وهتفتُ به :

أنتَ كاذب ! لقد كان يجلس بجواري طوال الرحلة وكنّا نتحدّث !.

توقف القطار في محطة أسوان، فرمقني الفتى بنظرة خاوية وقال :

تغطّى جيدًا حين تنام !.

وابتعد مع أصدقائه وبقية ركاب العربة في طريقهم للمغادرة وهم يضحكون.

هل الفتى صادق ؟ هل كلّ ما مر بي كان مجرد حلمٍ طويل ؟.

خالد محمد وخالد محفوظ وليلى وسمير وأمل ؟.

أم أن الفتى يسخر مني ويعابثني لأني رفضتُ جلوسه جواري ثم سمحتُ لخالد؟.

عدتُ إلى مقعدي بلهفة وأخذتُ أبحث عن أي شيء يدلّ على أن خالد كان هنا.

على الأرض أمام المقعدين كان هناك كوبا شاي فارغين وبجوارهما بقية أظرف سكرٍ فارغة. خمسة وخمسة !.

انطلقتُ بين العربات أبحث عن عربة البوفيه. لم يكن العامل الذي وجدتُه هناك هو نفس العامل الذي اشترى منه خالد الشاي. انطلقتُ أبحث مرة أخرى بين العربات حتى وجدتُه يجرّ عربة المشروبات عائدًا إلى عربة البوفيه.

سألتُه بلهفة :

معذرة.. منذ بضع ساعات اشترى جاري منك كوبي شاي وطلب عشرة أظرف سكر لي وله، ومنحك جنيهين كإكرامية.. أنتَ تذكره أليس كذلك.. لقد كان موجودًا هناك، أليس كذلك ؟.

رمقني الرجل بدهشة وقال :

لا أفهم ماذا تريد يا أستاذ !.

سألتُه برجاء :

أخبرني فقط من الذي اشترى منك الشاي.. أنا أم هو ؟ هل كان موجودًا؟.

رمقني الرجل بقلق وخوف، وغمغم :

مرّت عليّ في هذه الرحلة مئات الوجوه يا أستاذ !.

أخرجتُ من جيبي ورقةً بعشرين جنيهًا، ومددتُها إليه وأنا أهتف متوسلاً :

أرجوك تذكّر !.

رمق الرجل ورقة العشرين جنيهًا، ومدّ يده فأخذها ووضعها في جيبه، ثم قال لي بلهجة مرتبكة :

نعم، نعم.. ذلك الرجل.. اشترى مني كوبيّ شاي لك وله.. تذكّرتُ الآن.

رمقتُه بشك وسألتُه :

وماذا أخذ منك أيضًا غير الشاي ؟.

– لا أذكر !.

– ألم يأخذ منك عشرة أظرف سكر ومنحك جنيهين كإكرامية ؟.

– نعم، نعم.. تذكّرتُ.. عشرة أظرف.

فجأة انتبهتُ إلى أن الرجل يسايرني فقط ليأخذ العشرين جنيهًا. في الغالب هو لا يذكر شيئًا ! تركتُه محبطًا وعدتُ إلى حيث تركتُ حقيبتي.

هل كان الفتى يكذب ؟ هل كان عامل البوفيه يخدعني ؟ هل كان كلّ ما مر بي في الرحلة وهمًا أو حلمًا طويلاً ؟.

كان الجميع قد غادروا القطار وأصبحت العربات خاوية. وقفتُ على باب القطار أتأمّل المحطة وسط ظلام الليل.

قرأتُ آية الكرسي في سرّي وأخذتُ نفسًا عميقًا، ثم انطلقتُ في طريقي.

تعال، تعال

تعال واقترب

كم ستستغرق هذه الرحلة ؟

ما دمت أنت أنا

وأنا أنت

ماذا تعني أنا وأنت بعد اليوم ؟

نحن نور الحق، مرآة الحق

إذن لماذا الشجار بيننا دائما ؟

جلال الدين الرومي

امتناني عميق وبلا حدود لكل من ساهموا في تطوير هذا العمل ليصل إلى شكله النهائي.

الأصدقاء الرائعون الذين أخذوا من وقتهم ليقرأوه ويعطوني ملاحظاتهم التي أفادتني كثيرًا:

مروة سمير أولاً وآخرًا، وقبل كل شيء وبعد كل شيء – إبراهيم العراقي – محمد خميس – شيماء نصر – إيمان عبد المجيد – زهرة عبد المجيد – يونس مدويم – الشيماء أحمد جابر – غيداء ونّوس.

الصديقان المُلهِمان اللذان أضافت حواراتي معهما الكثير لفكري ووعيي : رامي عبد الله – أحمد يوسف.

صديقي الرائع محمد عبد القوي مصيلحي؛ الذي أبدع غلاف الطبعة الأولى في وقتٍ قياسي بكل احترافية وروعة، وصبر طويلاً على ملاحظاتي.

أصدقاء عمري في منتدى عالم الخيال؛ و أصدقائي الأعزاء في جماعة نوفيلّا الأدبية؛ الذين ساعدوني كثيرًا بملاحظاتهم في اختيار الغلاف والنبذة الخلفية.

شكرًا لكم جميعًا..

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

للنشر
والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧